وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة زيان عاشور الجلفة

مخبر جمع دراسة و تحقيق مخطوطات المنطقة و غيرها

مجلة التراث

مجلة دولية دورية محكمة يصدرها

مخبر جمع دراسة و تحقيق مخطوطات المنطقة و غيرها

العدد العاشر ـ السنة 2013

ISSN: **2253-0339**

الإيداع القانوني:2011-1934

الرئيس الشرفي :

أ.د شكري علي رئيس جامعة زيان عاشور الجلفة

مدير المجلة : **د.لحرش أسعد المحاسن**

رئيس التحرير : **بشيري عبد الرحمن**

الهيئة العلمية:

أ.د بوزيدي كمال	**جامعة الجزائر**	**د.سناء الباروني**	**جامعة جندوبة تونس**
أ.د بوغزالة محمد الناصر	**جامعة الجزائر**	**د.بن داود ابراهيم**	**جامعة الجلفة**
أ.د عبد القادر بن حرزالله	**جامعة باتنة**	**د.حمادي نورالدين**	**جامعة الجلفة**
أ.د سعيد فكرة	**جامعة باتنة**	**د.فشار عطاالله**	**جامعة الجلفة**
أ.د خير الدين سيب	**جامعة تلمسان**	**د.عزالدين مسعود**	**جامعة الجلفة**
أ.عبد الستار عبد الحق الحلوجي	**مصر**	**أ.هزرشي عبد الرحمن**	**جامعة الجلفة**
د.عز الدين بوكربوط	**جامعة الجلفة**	**أ.شلالي رضا**	**جامعة الجلفة**
أ.د العوفي عبد الكريم	**جامعة ام القرى**	**أ.درماش بن عزوز**	**جامعة الجلفة**
أ.د عمر أنور الزبداني	**قطر**	**أ.صدارة محمد**	**جامعة الجلفة**
أ.د ذياب البداينة	**الأردن**	**أ.بن حفاف اسماعيل**	**جامعة الجلفة**
د.محمود محمد زكي	**مصر**	**أ.معيزة عيسى**	**جامعة الجلفة**
د.دهينة نصيرة	**الجزائر**	**أ.شريط محمد**	**جامعة الجلفة**
د.كول سعيدة	**جامعة عنابة**		

قواعد النشر في المجلة

تصدر مجلة التراث في شكل دوري ضمن الميادين التي تعنى بالبحوث و الدراسات الاجتماعية و الانسانية من كافة الأساتذة باحثي الجامعات و يشترط في الدراسات و الابحاث المراد نشرها ما يلي :

- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر في أي مجلة أو جزء من كتاب أو مذكرة أو أطروحة
- أن يلتزم الباحث بالمنهج العلمي و الموضوعية و الأصالة
- تقدم المقالات مكتوبة فيما لا يتجاوز 25 صفحه
- تخضع الأعمال المرسلة الى المجلة للتحكيم قبل نشرها
- الالتزام بالخط traditional arabic 18 الهوامش 14
- ربط النص بالهوامش الزامي
- ترتب الموضوعات وفق اعتبارات فنية
- ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه ،و لا يمثل رأي المجلة بالضرورة
- ترسل البحوث و جميع المراسلات الخاصة بالمجلة الى مخبر جمع دراسة و تحقيق مخطوطات المنطقة و غيرها

التوابع عند علماء الجزائر

- دراسة تحليلية موازنة لمنظوماتهم اللغوية –

الدكتورة : فاطمة عبد الرحمن

جامعة الشلف

إن التوابع هي الأسماء التي يكون إعرابها على سبيل التَّبَع لغيرها ،وهي خمسة أضرب: تأكيد، وصفة، وبدل، وعطف بيان، وعطف بالحروف[1] ،وقد حصرها بعضهم في أربعة، وهي: النعت ،والتوكيد، والعطف، البدل[2] ،ومن زاد على ذلك يكون قد فصل بين عطفي البيان ،والنسق[3].

ولقد تعرض اللغويون الجزائريون لموضوع التوابع فيما عرضوا له من موضوعات نحوية ،وكان لهم حديث عنها في مواطن عديدة من منظوماتهم

ابن معطي: لقد ذكر ابن معطي التوابع ،وجعلها أربعة أقسام وهي: نعت ، وتأكيد، وعطف، وبدل[4]،إذ يقول[5]:

القَوْلُ فِي توابعِ الكَلمِ الأوَل * نَعْتٌ وتأكِيدٌ وعَطْفٌ وبَدَل

فأقسام التوابع عنده أربعة: نعت ،وتأكيد ،وعطف، وبدل.

– **ابن أب المزمري** : لم يمهد للتوابع بذكره لأقسامها كما فعل ابن معطي سابقا ،بل دخل مباشرة إلى الحديث عن كل قسم على حدى[6].

– **الشيخ محمد باي بلعالم**: اتبع بلعالم العالم ابن أب ،ولم يخصص بيتا للحديث عن أقسام التوابع، كما فعل ابن معطي ،بل دخل مباشرة إليها ،وعرف بها كل على حدى[7].

– **النعت** :

---

[1]- التعريفات للجرجاني، ص66.

[2]- شرح قطر الندى، ص309، و المفصل 143/1 ، وإرشاد السالك، ص107.

[3]- شرح المكودي، ص212.

[4]-لسان العرب المجلد الأول ، ص175-176..

[5]- ألفية ابن معطي، ص45.

[6]- فتح رب البرية، ص 5-7.

[7]- ترجمة الشيخ بلعالم، ص39-41.

تابعٌ يدل على معنى في متبوعه مطلقا[1] ويعرفه السيوطي بقوله: "هو تابع مكمل لمتبوعه لدلالته على معنى فيه أو في متعلق به"[2].

1)- ابن معطي:

لقد تعرض ابن معطي لموضوع النعت في منظومته، إذ يقول[3]:

فالنعت هو اللفظ الدال مطلقا على شيء باعتبار معنى هو المقصود مشتق أي مأخوذ من الفعل يبين الأسماء أي يميزها ،إما بإزالة اشتراك العارض في المعرفة أو تخصيص نكرة ، وقد وضح هذا الشارح بقوله[4]: "...أما الأول فنحو زيد العاقل فإن الوصف أزال الاشتراك العارض بينه وبين غير العاقل لأن اشتراك الأعلام اتفاقي ليس بمقصود بالوضع بخلاف اشتراك النكرات، وأما الثاني فنحو رجل عالم فعالم خصص من عموم رجل ا لصالح لكل أفراد النوع على سبيل البدل".

ويواصل نظمه بالحديث عن موضوع النعت ،فيقول[5]:

والنعت كالمنعوت في الإعراب *كذلك في الأربعة الأبواب

والنعت كالمنعوت في التذكير * وضِدِّهِ كذاك في التنكير

وضده والجمع والأفراد * والضد أغنـاني عن التعداد

يعد النعت حسب ابن معطي من خلال أبياته تابع من التوابع تشترك كلها في تبعية الإعراب لمتبوعاتها ،وذلك في التعريف ،والتنكير ،والتذكير، والتأنيث والإفراد ،والتثنية ،والجمع ،وقد وضح ذلك الشارح بالتفصيل[6]. ثم يواصل حديثه عن موضوع النعت ،إذ يقول[7]:

والنعتُ مِنْهُ حِليةٌ ونَسَب * ومنه ما هو علاج ينصب

ومنه صنعة وفعل النفس * غير العلاج رافع للبس

كزيد العالم والمصلي * وهند الفـارك ذات الذل

---

[1]- التعريفات للجرجاني، ص217.

[2]- همع الهوامع 116/2.

[3]- ألفية ابن معطي، ص45.

[4]- شرح ألفية ابن معطي، ص745-746.

[5]- ألفية ابن معطي، ص45.

[6]- شرح ألفية ابن معطي، 747/1-748.

[7]- ألفية ابن معطي، ص45.

وعمرو العلامة المكي * ورجل أخْـرَقٌ أسْوَدِيّ

يحاول ابن معطي من خلال أبياته أن يوضح لنا أن للصفة من جهة المعنى خمسة أقسام ،وهي: (1) الوصف بالحلية، (2) بالنسب، (3) بالعلاج، (4) بالغريزة،(5) الوصف بذو التي بمعنى صاحب مال ، وقد بينها الشارح ومثل لها[1].

وبعد أن أنهى حديثه عن الأقسام انتقل إلى مسألة أخرى تتعلق بالمضمر وذكر بأنه لم ينعت ،ولم ينعت به "أما الأول فلأن ما يفسره بعينه فلا يحصل له بسببه اشتراك يزيله الوصف... وأما الثاني فلعدم دلالته على المعنى الذي هو مقصود الوصف لأنه ليس مشتقا ولا في حكمه بل هو موضوع للذات من غير معنى كالعلم..." [2].

ويستمر في حديثه عن موضوعه ،فيذكر أن المعارف لا تنعت إلا ما بقي منها، ويقصد به المبهم ،وذو اللام ،والمضاف إلى المعرفة، أما أسماء الإشارة فتنعت ،ويكون نعتها خفي أي لما كان نعتها اسما جامدا ،وهو ما ذكره في مثاله: الرجُل، فهو مجهول الجنس ،فبين جنسه باسم الرجل ،والصفة من شأنها أن تبين ذات الموصوف ،هذا ما جمعه في أبياته ،إذ يقول[3]:

وكل مضمر فَلَم نُبْعَتُ ولَمْ * يُنْعَتْ به شيء ويُنْعَت العَلَم

بكلِّ ما بَقِي مِنَ المعارف * أما الإشارات فنعتها خفي

لأنه اسم جامد كالرجل * مُعَرَّف باللام كالممثل

كما بين من جهة أخرى أن المعرف بلام أو المضاف يوصف كل منهما؛ فالمعرف باللام يوصف به لأنه قد يكون مشتقا أو في حمله ، وأما المضاف إلى المعرفة،فيوصف به إذا كان فيه معنى الحديث ،إذ يقول[4]:

ثم المعرف بلام وصفه * بمثله أو ماله تضيفُهُ

ثم المضاف صفة به وصِفْهُ * فالنَّعْتُ قَدْ ابنتُهُ فاعرفه

2)– ابن أب المزمري:

---

[1]- شرح ألفية ابن معطي، 749/1-750.

[2]- نفسه، 751/1.

[3]- ألفية ابن معطي، ص45-46.

[4]- ألفية ابن معطي ، ص46.

تعرض ابن أب المزمري للنعت في منظومته ،إذ يقول[1]:

النعت قد قال ذَوُو الألبَابِ * يَتْبَعُ للمَنْعُوتِ فِي الإعْرَابِ

كَذاكَ في التَّعريفِ والتنكير * كَجَاءَ زيدٌ صَاحِبُ الأمِيرِ

لقد حاول ابن أب من خلال هذه الأبيات أن يوضح لنا النعت[2] الذي يتبع منعوته في التعريف ،والتنكير، وقد مثل لهذا بجَاءَ زيدٌ صَاحِبُ الأمِيرِ، فصاحب نعت حقيقي لزيد رافع لضميره تابع له في رفعه ،وتعريفه، وتذكيره، وإفراده[3].

ما يلاحظ هو أن ابن أب قد ركز فقط على ذكر أن يتبع النعت المنعوت في الإعراب، والتنكير، والتعريف فقط دون أن ينبه إلى أمور أخرى ذكرها ابن معطي الذي سبقه.

3)– الشيخ محمد باي بلعالم: يعد النعت أول التوابع الأربعة ، ولقد تعرض له الشيخ بلعالم في منظومته قائلا[4]:

النَّعْتُ والصِّفَةُ مَعْنَى مُتَّفَقْ * وهَكَذَا الوَصْفُ بِذَا المعْنَى أحَقْ

في الرَّفْعِ والنَّصْبِ وجَرٍّ تَبِعَا * مَنْعُوتَهُ والعُرْفِ والنَّكْرِ مَعَا

مثاله قد جاء زَيد الأديب * وقد رأيت المصطَفَى الخبْر النجيب

وامْرُرْ بِعَمرو الكريم العاقل * وأعْطِفْ على شيخ فَقِيرٍ سَايِل

فالنعت ،والصفة معنى واحد عند الشيخ بلعالم ،وهو عنده يتبع منعوته في الرفع، والنصب ،والجر، والتعريف، والتنكير، وقد وضح أقسام النعت إذ قسمه إلى قسمين؛ نعت حقيقي ،ونعت سببي؛ فالنعت الحقيقي هو الذي يتبع منعوته في الأربعة من العشرة ألقاب التي هي : الرفع ، والنصب، والخفض،والتعريف، والتنكير، والتذكير، والتأنيث، والإفراد ، والتثنية ، والجمع ،فهذه العشرة لا بد للاسم من أربعة منها وهي واحد من ألقاب الإعراب، وواحد من التعريف والتنكير، وواحد من الإفراد، والتثنية، والجمع ، فيجب أن يتبع النعت الحقيقي المنعوت في الأربعة التي تجتمع له من العشرة، أما النعت السببي

---

[1]– فتح رب البرية، ص6.

[2]– عرفه ابن مالك بقوله: "هو التابع الذي يكمل متبوعه لدلالته على معنى فيه أو فيما يتعلق به"، يراجع أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، تحقيق إميل بديع يعقوب، 300/3، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003.

[3]– مقدم العي المصروم على نظم ابن أب لأجروم للشيخ محمد بن بادي بن باي الكنتي، ص180.

[4]– ترجمة الشيخ بلعالم، ص39.

فإنه يتبع منعوته في اثنتين من خمس واحد من ألقاب الإعراب ، وواحد من التعريف، والتنكير، مثال جاء الزيدان القائم أبوهم ؛فالقائم نعت للزيدين تبع منعوته في الرفع ،وفي التنكير[1].

بينما ابن معطي فقد اكتفى بذكر أن النعت يتبع منعوته في الرفع ،والنصب والجر،والتعريف، والتنكير، و لم يذكر أقسامه بل لمح لذلك عن طريق الأمثلة فمثل للنعت الحقيقي بمثال: جاء زَيْدٌ الأديب؛ جاء فعل ماض ، وزيد فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره، والأديب نعت لزيد ،وقد تبع منعوته في الرفع والتعريف، والتذكير، ومثاله الآخر هو وقد رأيت المصطفى الحبر النجيب، فرأيت فعل ،وفاعل المصطفى مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف المانع من ظهورها التعذر، والجبر نعت للمصطفى منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره ،وقد تبع منعوته في نصبه، وتعريفه، وتذكيره، وإفراده ، والنجيب نعت بعد النعت وأضاف مثالا آخر، وهو وامْرُرْ بِعَمرو الكريم العاقل، امرر فعل أمر بعمرو جار ومجرور، الكريم نعت مخفوض بالكسرة الظاهرة في آخره،وقد تبع منعوته في جره وتعريفه ، وتذكيره، وإفراده، العاقل نعت بعد نعت ، ومثل للنعت بمثال هو واعطف على شيخ فَقِير سايل؛ أعطف فعل أمر، على شيخ جار ومجرور، فقير نعت لشيخ مجرور ،قد تبع منعوته في جره ، وتنكيره، وتذكيره، وإفراده[2].

ما يلاحظ في أبياته أنه اكتفى بذكر الأمثلة سواء لأقسام النعت ،وركز فيها على النعت الحقيقي أو في تبيان تعدد النعت، ولم يعرف أو يذكر قاعدة كل منهما.

وبعد هذا ينتقل إلى مسألة أخرى تتعلق بموضوع النعت ،وهي أن النعت يكون تارة معرفة،وتارة نكرة من المعرفة المضمر، وقد مثل له بـ أنت وهو والعلم وهو ينقسم إلى قسمين علم شخص، وعلم جنس ؛فعلم الشخص هو ما كان للفرق بين الأشخاص، وعلم الجنس هو ما كان للفرق بين الأجناس[3]، وقد مثل الناظم لعلم شخص بزيد ،وللعلم بمكة ثم أضاف من المعرفة الاسم المبهم ؛ويقصد به اسم الإشارة، ومثل له بهذا ،وهذه ،وهؤلاء، وذاك، وقد وضحها الشارح في قوله[4]: "اسم الإشارة وهو على ثلاثة أقسام قريب ومتوسط وبعيد؛ فالقريب يشار إليه مجردا من الكاف نحو هذا زيد ،وهذه

---

[1]- بتصرف يراجع كفاية المنهوم، ص76-77.

[2]- كفاية المنهوم ، ص77.

[3]- نفسه ، ص78-79.

[4]- نفسه ، ص79.

هند، وهذان ، وهاتان (وهؤلاء)،والبعيد يشار إليه بالكاف وجوبا مجردا من اللام مطلقا نحو: ذاك ،وهاذاك ،و تيك ، وأولائك أو مقرونا بها أي بالاسم جوازا نحو ذالك وتلك والمتوسط ذاك وذانك".

ومن المعارف أيضا المضاف أي ما أضيف للأسماء ،ويقصد المعرف بالألف واللام، ومن المعارف الاسم الموصول،فقد مثل الناظم للمعرف بالإضافة بقوله[1]:

تقول سيد الأنام..... * .....

ومثل للمعرف بالألف ،واللام بمثال الرسول ، والمعرف بالضمير (هو) والمعرف بالموصول (الذي) ،وكل اسم معرف بـ ال التعريف هو معرفة ،وإذا تجرد منها فهو نكرة ،وقد جمع هذه المسائل في قوله[2]:

والاسم منه ما يسمى معرفة * فهاكه مفصلا لتعرفه

فمضمر كأنت وهو والعلم * زيد ومكة والاسم المبهم

هـذا وهذه وهؤلاء *كذاك ما أضيف للأسماء

كذا المعرف بأل قد نَقلوا * والها من الموصول لبس يهمل

تقول سيد الأنام والرسول * هو الذي يهدي العباد الموصول

وكل اسم شابـع فنكرة * وكل ما يقبـل أل كَنَمِره

ومما يلاحظ هنا أن الشيخ بلعالم ،قد توسع في حديثه عن النعت ،كما فعل ابن معطي، ولم يكتف بذكر الأشياء التي يتبع فيها النعت منعوته فقط ،كما فعل ابن أب المزمري.

4)– الديسي: تعرض الديسي لموضوع النعت في ثنايا نظمه ،إذ يقول[3]:

و إن أَتَتْ نَعْتًا لمفْرَدٍ فَصِل * أو تَبِعَتْ لجُمْلَة لَهَا مَحَل

فالنعت يتبع منعوته في الرفع ،والنصب، والجر ،وقد وضح الشارح هذا بالتفصيل ،إذ نجده يمثل للرفع بمثال ،وهو قوله تعالى: "مِنْ قَبْلِ أَنْ يأْتِي يَومٌ لا بَيْعَ فِيهِ"[4]؛ فجملة (لا بيع فِيهِ) من لا ،واسمها،وخبرها في محل رفع على أنها نعت ليوم المرفوع على الفاعلية[5].

---

[1]– ترجمة الشيخ بلعالم، ص39.

[2]– نفسه، ص39.

[3]– المخطوط ص3، و الجملة النحوية في آثار عبد الرحمن الديسي، ص38.

[4]– سورة البقرة، الآية 254، وتمامها: "يا أَيُّهَا الذّينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِنْ قبْل أَنْ يَأْتِي يَوْمٌ لا بَيْعَ فِيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شَفَاعَةٌ والكَافِرُونَ هُمُ الظَالِمُونَ".

[5]– القهوة المرتشفة في شرح الزهرة المقتطفة، ص113-115.

5)– ابن فائد الزواوي:

يقول ابن فائد الزواوي في موضوع النعت[1]:

وَهِيَ عَلَى حَسَبِ مَا قَدْ تَبِعَتْ * مِنْ مُفْرَدٍ أو جُمْلَةٍ تَقَدَمَتْ

يذكر العالم الجزائري ابن فائد الزواوي في بيته هذا أن التابع نوعين ؛ تابع لمفرد، وتابع لجملة ، وقد وضح هذا الشارح في شرحه، إذ يذكر أن هناك التابعة لمفرد ،والتابعة لجملة؛ فالنعت يتبع منعوته ،وقد مثل لهذا بقوله تعالى: "مِنْ قَبْلِ أن يَأتِي يَومٌ لا يَبْعٌ فِيهِ وَلا خِلالُ"[2]؛ فجملة لا بيع فيه من اسم لا وخبرها في محل رفع على أنها نعت لـ (يوم) هذا فيما يخص التابعة لمفرد ،أما عن التابعة لجملة فقد مثل لها بـ زيد قام أبوه ،وقعد أخوه، فجملة قام أبوه في موضع رفع لأنها خبر المبتدأ[3]

– العطف :

لغة هو الرجوع عن الشيء ،والانصراف عنه[4]،ويعرفه الجرجاني بقوله[5]: "هو تابع يدل على معنى مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف العشرة مثل: قام زيد وعمرو؛ فعمرو تابع مقصود بنسبة القيام إليه مع زيد".

1)– ابن معطي :

لم يعرف ابن معطي العطف بل ركز على أنه ضربان عطف بيان[6] وعطف نسق[7]، إذ يقول:

والعَطْفُ عَطْفَانِ بَيَانٌ ونَسَق * عَطْفُ البَيَانِ شِبْهُ نَعت قد سبق

---

[1]– شرح أرجوزة الإمام الزواوي، ص194.

[2]– سورة إبراهيم، الآية 31. "قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلاَنِيَةً مِنْ قَبْلِ أن يَأتِي يَومٌ لا يَبْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ".

[3]– بتصرف يراجع شرح أرجوزة الإمام الزواوي، ص47.

[4]– لسان العرب (عطف) المجلد التاسع ص 249، والمعجم الوسيط 608/2.

[5]– التعريفات للجرجاني، ص39.

[6]– إنما سمي عطف البيان لأنه يبين متبوعه كالنعت قوله العَطْفُ إما ذو بيان أو نسق يراجع شرح المكودي لأبي زيد عبد الرحمن المكودي، ص200-201.

[7]– النسق في اللغة النظم، يراجع شرح المكودي، ص201 ، ولسان العرب المجلد العاشر ص 352-353.

وقد وضحهما الشارح في قوله[1]: "إنْ احتاج الثاني إلى حرف لكونه مغايرا للأول لفظا ومعنى فهو عطف النسق وإنْ لم يحتج إلى حرف فهو عطف البيان، لأن المعطوف هو المعطوف عليه في المعنى فما يُنْسَبُ إلى المتبوع ينسب إلى التابع وإنما سمِيَّ عَطْفُ بيان لأنه يبين معنى الأول ويوضحه".

وبعد ذكر ضربا العطف انتقل إلى مسألة أخرى تخصه،وهي أنه ليس بمشتق ولا في حكم مشتق أي لا يدل على معنى في متبوعه كالصفة ،ولا يتأول بالمشتق كما تتأول الصفة ،وهو أي عطف البيان كالبدل ،وأكثر ما يكون في الأعلام كنية كانت أم غير كنية ،إذ يقول[2]:

الحسنة ليس بِمُشتقٍّ وَلا * في حكم مشتق فضاهى البَدَلا

أكثر ما يكون بالإعـلام * وبالكنى كراهة الإبهام

وقد مثل لما سبق بقوله[3]:

شَاهِدُهُ "يا نَصْرُ نَصْرٍ نَصْرًا"[4] * وَالتَارِكِ البكريّ بِشْرٍ جَرًا[5]

ففي الشطر الأول مثال يتمثل في "يا نَصْرُ نَصْر نَصْرا "؛فنصر الأخير ليس فيه إلا النصب ،وفيه وجهان أحدهما أنه عطف بيان على المحل كالوصف ،والثاني أنه منصوب على المصدر،وأما نصر الثاني فيروى مرفوعا ،ومنصوبا، ومضموما بغير تنوين، أما الرفع فلأنه عطف بيان على اللفظ ،ولذلك نونه ،ولو كان بدلا لامتنع تنوينه، وأما النصب فعل الوجهين المذكورين في نصر الأخير، وأما الضم فيحتمل البدل أو التأكيد اللفظي ،وأما نصر فليس فيه إلاّ الضم لكونه علما[6]، و قد ذكر في الشطر الثاني

1- شرح ألفية ابن معطي، 768/1.

2- ألفية ابن معطي، ص47.

3- نفسه ، ص47.

4- يقول رؤبة في هذا الصدد:

إنّي وأسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرَا

لَقائِلٌ يا نَصْرُ نَصْرٌ نَصْرَا

يراجع ديوان رؤبة ، ص174.

5- يقول المرار بن سعيد الأسدي:

أنَا ابْنُ التَّارِكِ البَكْرِي بْشْرٍ

عَلَيهِ الطَّيْرُ تَرْقُبهُ وقُوعَا

يراجع المقرب 248/1، والكتاب 93/1 ، وشرح ابن عقيل، ص285 ؛ الشاهد (بشر) عطف بيان،يراجع شرح المكودي، ص201.

6- شرح ألفية ابن معطي 771/1.

مثالا آخر،وهو "التارك البكري بشرٍ وقد جرت بشر على أنه عطف بيان للبكري، ولا يجوز جعله بدلا لأن البدل في حكم تكرير العامل على الأظهر "[1]، وقد خالف ابن معطي المبرد لكونه روى بشرًا منصوبا على البدل من المحل، وأنكر الجر[2] ،وبعد أن أنهى حديثه عن عطف البيان انتقل إلى الحديث عن عطف النسق ،إذ يقول[3]:

والنسق الحمل على المعطوف * عليهِ مَعْطوفا بذي الحروف
الواو للجمع بلا ترتيب * والفاء للترتيب والتعقيب
وثم للمهلة أما حتى * فمثل صمتُ الدهر حتى السَّبتا
وأو وإما فيهما المشهور * الشك والإبهام والتخيير
وأم كل أذن أم أقاما * ولكن استدرك بها الكلاما
هذان يعطفان ما لم يُفْصَلا * وبل للإضراب عن اسم أوّلا
ولا بعكسها فهذي عشره * توجب عطف الكلم المؤخره
على التي من قبلها فاجعل لها * إعرابها حتى تكون مثلها
وأم به استفهم وبل معناه * في أنَّها الابلُ أم شياه
والواو تختص بها المفاعلة * نحو المضاربة والمقاتلة

فالنسق مأخوذ من نسقت الشيء إذ أتيت به متتابعا ، وعرّف بأنه تابع يتوسط بينه،وبين متبوعه أحد الحروف العشرة ، وقد عرفه ابن منظور بقوله[4]:

" نسق الشيء نسقا: نظمه، يقال: نسق الدر، ونسق كتبه، والكلام عطف بعضه على بعض وحروف النسق حروف العطف ،ويقال: هذا نسق على هذا عطف عليه ، وقد عرفه في البيت الأول ابن معطي بأنه الحمل على المعطوف عليه معطوفا بذي الحروف أي توسط الحروف بين المعطوف، والمعطوف عليه، وقد أكد ابن معطي بأن حروف العطف عشرة [5]،بينما خالفه العلماء،وقد وضحها

---

[1]- نفسه، 1/771-772.

[2]- شرح ألفية ابن معطي ، 1/772.

[3]- ألفية ابن معطي، ص47-48.

[4]- لسان العرب (نسق) ، والمعجم الوسيط 2/918.

[5]-يراجع تحفة الأحباب و طرفة الأصحاب في شرح ملحة الإعراب لجمال الدين القاسم بن علي الحريري، اعتنى به وعلق عليه على سليمان شبارة ، تصنيف أبي المحاسن محمد بن عمر بحرق الحضرمي ص132،مؤسسة الرسالة ،ط 1 1425 هـ- 2004م

الشارح في شرحه[1] وقد تمثلت هذه الحروف في: الواو، والفاء، وثم ، وحتى، و أو، وإما،وأم، ولكن، وهذان، وبل، وعددها عشرة[2] ،وقد شرحها الشارح ،ومثل لها بالأمثلة في شرحه[3].

وبعد أن حصر لنا الحروف انتقل إلى مسألة الضمير، إذ يقول[4]:

والمضمر المرفوع إن وصلته * فاعطف عليه بعدما أكدته

كمثل سرنا نحن والغلامُ *ولا تسر أنت ولا الأقوامُ

كذاك أكد بعد تأكيد ظهر * بالنفس والعين بدا أو استتر

ويضيف قائلا[5]:

والمضمر المجرور إن عطفتا * عليه جئ بما به جَرَرْتَا

نحو مَضَى به وبالغلامِ * وشَدَّ مِنْهُ "بِكَ والأيـامِ"

يحاول ابن معطي في أبياته هذه أن يوضح لنا مسألة المضمر ،ووضح من خلالها أنه يعطف على المضمر المرفوع بمضمر منفصل، وقد مثل لذلك بمثالين هما: سِرْنَا نَحنُ والغُلامُ ؛ فسرنا فعل وفاعل ونحن تأكيد للفاعل، والغلام معطوف على الفاعل، ولا تسر أنت ،ولا الأقوامُ فأنت تأكيد للضمير المستكن ،وهو الفاعل والأقوام معطوف عليه ، فابن معطي استقر على ذكر هاتين المسألتين، ولم يذكر عدة مسائل أشار إليها شارح المنظومة منها مسألة الفصل –وجوبا أو جوازا– وغيرها[6] ،وبعد ذكر المضمر المرفوع ،والتمثيل لذلك انتقل إلى المضمر المجرور إذ وضح بأن المضمر المجرور لا يجوز العطف عليه إلا بإعادة الجار وقد مثل لذلك بـ مَضَى بِهِ وبالغُلاَمِ ،إذ من خلال مثاله هذا وضح ما سبق ذكره؛

، و المسائل النحوية في تاج اللغة و صحاح العربية للجوهري دراسة وصفية تحليلية إعداد الطالب سمير محمود لبد إشراف د/ محمود محمد العامودي ص 135-143.

[1]- شرح ألفية ابن معطي، 773/1-775.

[2]- يراجع تحفة الأحباب وطرقة الأصحاب في شرح ملحة الإعراب للحريري، ص132، والمسائل النحوية في تاريخ اللغة وصحاح العربية للجوهري، دراسة وصفية تحليلية، إعداد الطالب مسير محمود لبد، أشراف الدكتور محمود محمد العامودي، ص135-143.

[3]- شرح ألفية ابن معطي ، 776/2-790.

[4]- ألفية ابن معطي، ص48.

[5]- نفسه، ص48.

[6]- شرح ألفية ابن معطي، 793/2-796.

أن المضمر المجرور لا يجوز العطف عليه إلا بإعادة الجار، كما بين أن هناك الشاذ وقد مثل له بالمثال "بِك والأيام".

2)– ابن أب المزمري:

إن العطف لغة هو الرجوع ، بينما اصطلاحا فهو تشريك المعطوف للمعطوف عليه في الحكم ،والإعراب ،أو في الإعراب فقط بأحد الحروف، أما ابن أب المزمري فلم يعرفه في منظومته ،بل اكتفى بذكر حروفه موضحا أنها عشرة هذا ما وجدناه عند ابن معطي فقد اتفق معه ابن أب في أن حروف العطف عشرة ،إذ يقول[1]:

هذا وإِنَّ العطف أيضا تَابِعُ * حروفه عَشَرَةٌ يَا سَامِعُ

إذن فحروف العطف عند ابن أب المزمري عشرة ،هذا ما وضحه في بيته هذا، وقد حصرها في: الواو، الفاء ،وثُمَّ، و أوْ ،وإمَّا، وبل ، ولكن، وحتى، ولا، وأم ، وقد جمعها في قوله[2]:

الواو و الفا ثمَّ أَوْ وإمَّا وبَل * لَكِنْ وحَتَّى لا و أَمْ فَاجْهَدْ تَنَل

وقد تحدث عن هذه الحروف الشارح ممثلا لها ،وشارحا لها بالتفصيل في شرحه[3].

وقد واصل نظمه ومثل لهذه الحروف بقوله[4]:

كجَاءَ زَيدٌ ومُحَمَّدٌ وَقَدْ * سَقَيْتُ عَمْرًا أو سَعِيدًا مِنْ ثَمَدْ

وقَوْلُ خَالِدٍ وعَامِرٍ سَدَهْ * ومَنْ يَتُب ويَسْتَقِمْ يَلْقَ الرَّشَدْ

ففي المثال الأول "جاء زيد ومحمد " ؛ فمحمد معطوف عليه تابع له في رفعه ، ومثال تبعية المعطوف للمعطوف عليه في نصبه، وفي الثاني قَدْ سَقيت عَمْرًا أو سَعِيدًا؛ فسعيدا معطوف على عمرا، أما عن مثال تبعية المعطوف عليه في خفضه قول خالد وعامر؛ فعامر معطوف على لفظ خالد مجرور ،ويجوز رفعه عطفا على المحل، وقد مثل أيضا لتبعية المعطوف للمعطوف عليه في جزمه ،وهو مختص بالأفعال، كما أنه في الجر مختص بالأسماء بقوله[5]:

.....* ومَنْ يَتُبْ ويَسْتَقِمْ يَلْقَ الرَّشَدْ

---

[1]– فتح رب البرية، ص6.

[2]– نفسه، ص6.

[3]– مقدم العي المصروم على نظم ابن أب لأجروم للشيخ محمد بن بادي بن باي الكنتي، ص190–193.

[4]– فتح رب البرية، ص6.

[5]– فتح رب البرية ، ص6.

فيستقم معطوف عليه مجزوم ،وقد وضحه الشارح بقوله[1]: "ومثال تبعيته له في جزمه وهو مختص بالأفعال كما أنه في الجر مختص بالأسماء: من يتب من الذنوب بإقلاع وعدم إصرار ويستقم على الطاعات بإخلاص يلق في وجهته الرشد إلى ما يقربه من مولاه ومن: شرطية تجزم فعلين ويتب فعل شرط ،ويستقم معطوف عليه مجزوم ويلق جواب الشرط وتقدير فاعله هو والرشد مفعول يلقَ".

3)- الشيخ محمد باي بلعالم:

لقد تعرض الشيخ بلعالم للعطف كما فعل غيره من العلماء ،إذ يعرفه بأنه تابع يدل على معنى مقصود بالنسبة مع متبوعه، إذ يقول[2]:

العَطْفُ تَابِعٌ لِمَا قَدْ عُطِفَا * عَلَيهِ هَبْهُ ثَابِتَا أَوْ حُذِفَا

ويؤكد هنا في هذا البيت أن المعطوف عليه قد يكون تابثا أو يحذف ،وقد مثل الشارح لذلك، بقوله[3]: "ثابتا كجاء زيد وعمرو أو حذفا أي حذف المعطوف عليه ومنه قوله تعالى: "أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِ تُتْلَى عَلَيكُمْ"[4] قال الزمخشري التقدير أفلم تأتيكم آياتي فلم تكن تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه وهو ألم تأتكم..." .

وبعد تعريفه للعطف ،انتقل إلى ذكر حروفه ،وقد حصرها في قوله[5]:

بالوَاوِ والفَاءِ وثُمَّ وبِأَوْ * وأمْ وإِمَّا بَلْ ولَكِن لا رَوَوْا

وحَتَّى بَعْضُ الشيء يَاتِي عَطْفُهَا * نحو أكلتُ الشاة حتى رأسَهَا

من خلال البيتين السابقين نجد أن الشيخ بلعالم قد عدد لنا حروف العطف وذكر أنها عشرة ،وهي: الواو ،والفاء، وثم ،و أو ،و أم ،وإما، وبل ،ولكن ،ولا وحتى ، وبهذا لم يخالف العلماء في أن حروف العطف عشرة، إذ نجد أن ابن معطي ذكر لها عشرة حروف ، وابن أب المزمري ذكر أن حروف العطف عشرة وما يلاحظ أن الشيخ بلعالم مثل للحرف حتى، وهو ما جاء في قوله[6]:

.....* نحو أكلتُ الشَّاةَ حَتَّى رَأسَهَا

---

[1]- مقدم العي المصروم، ص193.

[2]- ترجمة الشيخ بلعالم، ص40.

[3]- كفاية المنهوم، ص82.

[4]- سورة المؤمنون ، الآية : 105، وتمامها : "أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ".

[5]- ترجمة الشيخ بلعالم، ص40.

[6]- نفسه ، ص40.

فأكلت فعل وفاعل والشاة مفعول به حتى حرف عطف رأسها عطف البعض على الكل ، ولها معان أخرى ذكرها الشارح[1].

وقد ركز على مسألة مهمة تخص العطف ألا، وهي عطف المرفوع على المرفوع، والمنصوب على المنصوب ، والمجرور على المجرور، والمجزوم على المجزوم ،إذ يقول[2]:

وعَطْفُك الفِعْلَ عَلَى الفِعْل أتَى * عِندَ النُّحَاةِ دُون خُلْف ثَبَتَا

تَقُول زَيْدٌ وسَعِيدٌ في مِنَى * وقد رأيت الشيخ والطفل هنا

والصدق فِي قَوْلٍ وفِعْل جَيدُ * وقَامَ عَمْرُو وأتَى مُحَمَّدُ

واعْطِفْ على المجزوم مجزومًا كَلَمْ * يَقْرَأ ولَمْ يَكْتُبْ سَعِيد بالقَلَمْ

فمثال زيدٌ وسعيدٌ في منى هو خاص بعطف المرفوع على المرفوع ،وقد رأيت الشيخ والطفل هنا مثال لعطف المنصوب على المنصوب والصدق في قول وفعل جيد مثال لعطف المجرور على المجرور، ومثال المجزوم على المجزوم كَلَمْ يقرأ ولم يكتب سعيد، وقد أضاف إلى ذلك عطف الجملة على الجملة ،وقد مثل لها بـ قَامَ عَمْرُو وأتَى محمد ،وزاد مسألة أخرى وضحها في قوله[3]:

واعْطِفْ على الظَّاهِر بِالضَّمير * وعَكْسُهُ جَازَ بِدُونِ ضَيْرَ

لقد حاول الشيخ بلعالم من خلال بيته هذا أن يوضح لنا مسألة عطف الضمير على الظاهر، وقد وضحها الشارح بمثال ،وهو ما جاء في قوله[4]:

"واعطف على الظاهر بالضمير نحو قام زيد وأنت وعكسه جاز بدون ضمير وهو عطف الظاهر على الضمير نحو: قوله تعالى: "لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وأبَاؤُكُمْ"[5] معطوف على الضمير في كنتم.

– التوكيد

---

[1]– كفاية المنهوم، ص85.

[2]– ترجمة الشيخ بلعالم، ص40.

[3]– ترجمة الشيخ بلعالم ، ص40.

[4]– كفاية المنهوم، ص86.

[5]– سورة الأنبياء ، الآية 54، وتمامها :" قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ".

التوكيد لغة هو التقوية [1] ، واصطلاحا هو تابع يزيل عن متبوعه ما لا يراد من احتمالات معنوية تتجه إلى ذاته ،ويعرّفه الجرجاني بقوله[2]:

"تابع يقرّر أمرَ المتبوع في النسبة أو الشُّمول وقيل عبارة عن إعادة المعنى الحاصل قبله" ،ويستعمل بالواو أكثر من التأكيد؛ يقول الله تعالى: "ولاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوكِيدِهَا"[3].

1)– ابن أب المزمري:

تعرض ابن أب المزمري لموضوع التوكيد في نظمه،ولكنه لم يعرفه واكتفى بذكر ما يتعلق به من مسائل كمسألة أنه يتبع المؤَكَّدَ التوكيد في الرفع ، والنصب والخفض، إذ يقول[4]:

ويَتْبَعُ المؤَكَّدَ التَّوْكِيدُ فِي * رَفْعٍ ونَصْبٍ ثُمَّ خَفْضٍ فاعْرِفِ

ولقد تحدث الشارح عن هذا ومثل له بقوله[5]:

"...نحو: جاء زيدٌ نفسه ورأيت زيدًا نفسَهُ ومررتُ بزيدٍ نفسِه؛ فنفسه تابع لزيد في رفعه ونصبه وجره"، ويضيف قائلا[6]:

كذاك في التعريف فاقف الأثرا * وهذه ألفَـاظُه كَمَا تَرَى

النَّفْسُ والعين وكُلٌّ أجْمَعٌ * ومـا لِأجْمَعَ لَدَيـهم يَتْبَعُ

يوضح لنا ابن أب المزمري من خلال البيتين أن التوكيد خاص بالمعارف فقط ،ويكون بأسماء هي نفس، وعين، وأجمع، وكل ،وقد مثل لها بقوله[7]:

كَجَاءَ زَيْدٌ نَفْسُهُ يَصُولُ * وإنَّ قَوْمِي كُلَّهُمْ عُدُولُ

ومَرَّ ذا بالقَوْمِ أجْمَعِينَا * فاحْفَظْ مِثالاً حَسَنًا مُبِينَا

ففي هذين البيتين أمثلة عن التوكيد المعنوي بـ (نفس ،وكل، وأجمع)؛ فمثاله الأول جَاءَ زَيْدٌ نَفْسُهُ؛ ففي هذا المثال يوجد الاسم نفس، وهو توكيد له تابع له في الإعراب ،والتعريف ،ومطابقة

---

[1]–كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، أحمد بابا التنبكي ، دار ابن حزم بيروت ط1 2002 ص 37.

[2]– التعريفات، ص51.

[3]– سورة النحل، الآية 91 ، وتمامها: "وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إن الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ".

[4]– فتح رب البرية، ص6.

[5]– مقدم العي المصروم، ص196.

[6]– فتح رب البرية، ص6.

[7]– نفسه ، ص6.

الضمير، ومثاله الثاني هو و إنّ قَومِي كُلَّهُمْ عُدُول فكل توكيد لقومي تابع له في نصبه، وتعريفه ،ومطابقة الضمير ،ومثاله الثالث ومَرَّ ذَا بالقَومِ أجْمَعِينَا، فأجمعينا توكيد للقوم تابع له في جره وعلامة جره الياء[1].

2)– محمد باي بلعالم:

لم يعرف الشيخ بلعالم التوكيد، بل تعرض لأنواعه في نظمه قائلا:

تَوْكِيدُنَا اللفظي تكرار الكلام * في الاسم والفعل وفي الحرف يرام

والمعنوي وهو بالذَّاتِ وُصِف * لِرَفْعِهِ للاحْتِمَال المكْتَنِفْ

فالتوكيد عنده قسمان: توكيد لفظي؛ يكون بتكرار اللفظ –اسم، فعل، حرف–، بينما المعنوي فيكون بأسماء يضاف كل منهما إلى ضمير المؤكد منها كل ، وعين وأجمع ، ونفس ، وقد حصرها في قوله[2]:

وهو الذي بالنفس والعين انتمَى *كجَاءَ زَيْدٌ نَفْسُهُ فَغَنِمَا

وكُلُّ أجْمَعُ تَوَابِعٌ لَهَا * أكْتَعٌ أبْصَعُ إحَاطَةٌ بِهَا

وكُلُّ ما اسْتَحَقَّهُ الأوَّلُ مِن * إعْرَابِ أو تَعريف للثاني فَمِنْ

فَارْفَعْهُ إنْ رُفِعَ وانْصُبْهُ إذا * نُصِبَ واجْرُرْهُ بِجَرّ يُحْتَذَى

حاول الشيخ بلعالم أن يوضح من خلال أبياته السابقة أن التوكيد المعنوي هو توكيد الاسم بكلمات معروفة بعينها ،وقد حصرها في عين، نفس، أجمع كل شريطة أن يتصل بها ضمير يعود على المؤكد.

وقد مثل لها بجَاءَ زَيْدٌ نَفْسُهُ فغنما؛ فنفسه توكيد لزيد،وتوكيد المرفوع مرفوع والهاء مضاف إليه مبني على الضم في محل جر، وأما كل فلم يمثل لها الناظم بل اكتفى بذكرها، بينما نجد الشارح يمثل لها في شرحه[3] بمثال ،وهو جاء القوم كلهم؛ فكل توكيد للقوم، وهم مضاف إليه ،وكذلك أجمع فقد اكتفى بذكرها الناظم ،ومثل لها الشارح[4] بمثال: جاء القوم أجمعون فأجمع، وأجمعون توكيد للقوم ،وقد ذكر الشيخ توابع لأجمع، وهي أكتع ،وأبصع ،وقد مثل لها الشارح ب[5] جاء القوم أجمعون أكتعون، وأبصعون

---

[1]– بتصرف مقدم العي المصروم، ص198–199.

[2]– ترجمة الشيخ بلعالم، ص40.

[3]– كفاية المنهوم، ص88.

[4]– نفسه ، ص88.

[5]– نفسه ، ص88.

فكل من أجمعون وما بعدها[1] توكيد للقوم وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة ،وقد وضح لنا أيضا من خلال ما جاء في أبياته السابقة أن التوكيد تابع للمؤكد في رفعه ،ونصبه ،وخفضه، وتعريفه ، وقد مثل لهذا الشيخ بلعالم في نظمه، إذ يقول[2]:

كوَصَل الحُجَّاجُ كُلَّهُم مِنَى * وذَبَحُوا الهَدَايَا كُلَّهَا هُنَا

وامْرُرْ بِزَيْدٍ نَفْسِهِ وعَظِمَا * حَمَلة القُرْآنِ كُلَّهُمْ لِمَا

فمثاله الأول هو "وَصَل الحُجَّاجُ كُلَّهُم مِنَى"؛ فكلهم توكيد للحجاج مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره ،وهم مضاف إليه هذا فيما يخص الرفع، ومثال النصب هو "وذَبَحُوا الهَدَايَا كُلَّهَا هنا"؛ فكلها نعت للهدايا منصوب ،ومثال الجر هو "وامرُرْ بِزَيْدِ نَفْسِهِ" بالجر توكيد لزيد، و"عَظِ مَا حَمَلة القُرآن كُلَّهُم"؛ فهو مثال النصب ،وقد وضح من طرف الشارح فركز على الإعراب التفصيلي لهذه الجمل وشرحها أكثر[3].

3)– ابن معطي:

لقد تعرض ابن معطي لموضوع التوكيد ، وعرفه بأنه تحقيق معنى عند شخص يسمعه، إذ يقول[4]:

وهَاكَ في التأكيد حدا يَجْمَعُه * تحقيق معنى عند شخص يسمعه

وقد واصل نظمه قائلا[5]:

كجاء زيد عينه ونفسه *كُرِّرَ معنى ليزول لبسه

وثَنِّ واجمع ثمّ في الإحاطة * قل كلُّهُ واعرف لذا اشتراطه

وهي التجزّي بخلافِ الأوّل * وجَاءَ بَعْدَ كلِّهِ المِمَثَّلِ

من خلال هذه الأبيات نجد أن ابن معطي من خلال أمثلته يوضح أن هناك توكيد معنوي، وهو ضربان؛ تكرار بغير إحاطة ،وتكرار بإحاطة ؛فالأول يتمثل في اللفظين: نفس وعين[6] ،وقد مثل

---

[1]– يذكر أنه يجب فيها الترتيب إذا اجتمعت بأن يقال كله، أجمع، أكتع، أبصع، أتبع، يراجع همع الهوامع للسيوطي، 139/3

[2]– ترجمة الشيخ بلعالم، ص40.

[3]– كفاية المنهوم، ص88-89.

[4]– ألفية ابن معطي، ص46.

[5]– نفسه ، ص46.

[6]– شرح ألفية ابن معطي، 757/1.

له الناظم بمثال جَاءَ زَيْدٌ نَفْسُهُ أو عَيْنُهُ فهناك مبالغة في التوكيد ويمكن أن نقول جاء زيد نفسه ،وجاء زيد عينه، ويواصل حديثه عنهما إذ يذكر بأن كل من نفس ،وعين يمكن أن تثنى ،وتجمع إن كان المؤكد مثنى أو جمع، وأما التكرار مع الإحاطة فيشترط أن يكون المتبوع متحريا إما لفظا أو حكما، أما اللفظ فهو أن يكون موضوعا لأشياء مجتمعة ،نحو :القوم والناس ،وأما الحكم فهو أن يكون راجعا إلى العامل فتقول اشتريت العبد كله ،ولا تقول جاءني زيد كله[1] ،ويشترط في تأكيد الإحاطة التجزي ،إما بحسب العامل أو بحسب المعمول كما سبق ذكره ،وبهذا يختلف عن ما يتعلق بنفس ،وعين، وقد وضح ذلك أكثر الشارح في شرحه[2]، وأضاف قائلا[3]:

أجمع اكتع يليه أبصع * أبتع والكلُّ لكل يتبع

كمثل مَا وَرَدَ في القرآن * والنَّفْسُ والعَيْنُ مُقَدَّمَانِ

كذاك في نفسيهما عينيهما * وما لما تُنِّي سِوَى كِلَيْهِما

من خلال أبياته فقد حاول ابن معطي أن يذكر ألفاظ تأكيد الإحاطة ،وهي: أجمع، وأكتع، و أبصع ،أبتع ، كل ، والتزم فيها الترتيب لكوْنِهَا تتطلب ذلك ،وقد بينها، وشرحها شارح منظومة ابن معطي[4]، ويوضح بعدها أن كل الألفاظ التي ذكرت لا بد أن تتبع بكل ، وقد وضح لنا هذا الشارح[5] من خلال التمثيل بقوله تعالى: "فَسَجِدَ المِلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ"[6] ،فقد تقدمت كل على أجمع في الآية الكريمة ،وقد وضح الشارح هذا بذكره للآية بأنها تضمنت كل ،وأجمع ،وتقدمت كل على أجمع ،إذ يقول[7]: "لأن كل تفيد الإحاطة بجميع الأفراد وأجمعون يفيد أن السجود وقع منهم دفعة واحدة فهو هيئة للأفراد متأخرة عنها ولا ينصرف أجمع وأخواته للتعريف بالإضافة المنوية على الأصح".

ثم يواصل حديثه ليضيف مسألة أخرى تتعلق بألفاظ التوكيد (نفس وعين) وذكر أنهما يتقدمان على ألفاظ التوكيد إذا اجتمعت، وقد وضح الشارح سبب تقدمهما وتأخر كل في قوله[8]: "وإنما قدمت

1- شرح ألفية ابن معطي، 758/1.

2- نفسه ،758/1.

3- ألفية ابن معطي، ص 76.

4- شرح ألفية ابن معطي 759/1.

5- نفسه 760/1.

6- سورة ص، الآية 73.

7- شرح ألفية ابن معطي، 760/1.

8- شرح ألفية ابن معطي ، 760/1.

النفس على العين لأنها وإن كانت ها هنا عبارة عن الذات كالعين إلا أنها أشرف لشرف مسماها الأصلي وإنما تأخرت كل عنهما لأنها تدل على الإحاطة وهي من أحوال الذات وهما يدلان على أصل الذات ولما كان حال الشيء متأخرا عن ذاته بالطبع كان ما يدل عليه متأخرًا على ما يدل على أصل الذات بالوضع ولأن كلا لا يؤكد بها إلا ما يتجزئ كما مر و هما يؤكد بهما ما يتجزىء فهما في التوكيد أعم منها فكانت متأخرة عنهما تأخر الخاص عن العام" ،ويؤكد لنا أن المثنى إذا أكد بالنفس والعين قدما على ما يؤكد به المثنى وهو كلا وكلتا كما يقدمان على كل، وقد استغنى عن البقية[1]، إذ يقول[2]:

..... * ومَا لما ثُنِّي سِوَى كِلَيْهِما

وبعد أن أنهى كلامه عن المثنى ،وذكر أنه لا يؤكد بعد النفس ،والعين إلا بكلا ،وكلتا ،انتقل إلى الجمع ،وذكر أنه لا يؤكد به النفس ،والعين ،وكلهم إلا بأجمعون وتوابعه ،وهي: أكتع، وأبصع، أبتع ،إذ يقول[3]:

والجَمْعُ أجْمَعُونَ[4] أكتعونا * وبَعْدُ ابْصَعُونَ أبتعُونا

وأما جمعاء وتوابعها ،فقد مثل لما بقوله[5]:

وقد رأيتُ دارَهُ جَمْعَاءَ *كتعاءَ بَصْعاء وقُلْ بَتْعَاءَ

من خلال بيته هذا نجد أن ابن معطي قد مثل لجمعاء بمثال ،وهو "وقد رأيتُ دارَهُ جَمْعَاء"؛ فالشاهد كلمة جمعاء، فقد أكدت بالمؤنث المفرد دَارَهُ إلا أنه لم يذكر الشرط الأساسي ،وهو أن جمعاء وتوابعها يؤكد بها المؤنث المفرد بعد كلها بشرط التجزي مطلقا، وقد أشار إلى هذا شارح ألفية ابن معطي ،ومثل لذلك بقوله[6]: "رأيت داره كلَّها جمعاء كتعاء بصعاء بتغاء"، وواصل حديثه عن التوكيد

---

[1]- نفسه ، 760/1-761.

[2]- ألفية ابن معطي، ص46.

[3]- ألفية ابن معطي ص46، وهمع الهوامع، 139/3.

[4]- يقول الله تعالى: "فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ"، سورة الحجر، الآية 30.

[5]- ألفية ابن معطي ، ص46.

[6]- شرح ألفية ابن معطي ،763/1 .

،وجمعه وذكر بأنه إن كان لفظيا يؤكد النكرة منه ،بينما المعنوي فمنع تأكيده عند البصريين وأجاز ذلك الكوفيون[1] ،وقد ذكر هذا في قوله[2]:

وقل لأنثى جُمَع إذ تُجْمع * والنكِراتُ لم تؤكَّد جُمَع

وقد أضاف مسألة أخرى تتعلق بألفاظ التوكيد في نظمه قائلا[3]:

والقطع والعطف إذا أكَّدْتَا * امتَنَعَا والنَّعْتُ إنْ كَرَّرْتَا

أجزتَ في الذي جَعَلْتَ وصْفا * اتباعَهُ وقطعَهُ والعَطْفَا

يوضح ابن معطي من خلال البيتين السابقين مسألة ألفاظ التوكيد ،وذكر أنه لا يجوز قطعها عن المؤكد، ولا عطف بعضها على بعض ،وقد ركز على هذا الشارح بالشرح والتمثيل[4] ،واستثنى في ذلك الصفات ،وذكر أنها إذا تكررت جاز فيها الإتباع للأول، ولبعضها البعض ،إما بغير حرف ،أو بعطف على بعض، وجاز عطف بعضها على بعض ،إذ كل صفة تدل على معنى لا يدل عليه غيرها، ويتم فيها القطع إذا تكررت الصفات ،وكان فيها معنى مدح أو ذم، وهذا ما ذكره الشارح ومثل له في شرحه[5].

– البدل في حالة الرفع

يعرفه ابن منظور بقوله[6]: "وبَدَلُ الشيء وبدَله وبديله: الخَلْفُ منه والجمع أبدال" ،يقول ابن فارس[7]: "الباء والدال واللام أصل واحد، وهو: قيام الشيء مقام الشيء الذاهب، يقال: هذا بَدَلُ الشيء وبديله ويقولون: بدَّلْتُ الشيءَ، إذا غيرته، وإن لم تأت له يبدله... وأبدلته إذا أتيت له ببدل".

أما اصطلاحا فهو تابع مقصود بما نُسب إلى المتبوع دونه[8].

1)– ابن معطي (ت 628هـ):

---

[1]- نفسه ، 1/763-764.

[2]- ألفية ابن معطي، ص47.

[3]- نفسه، ص47.

[4]- شرح ألفية ابن معطي، 1/765-766.

[5]- نفسه ،1/766-767.

[6]- لسان العرب، ابن منظور مادة (بدل)ص 175-176 المجلد الأول

[7]- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس تحقيق عبد السلام هارون، مادة بدل و القاموس المحيط 3/455.

[8]- التعريفات، ص45.

لقد حد البدل بأنه تفسير اسم باسم يقدر إحلاله في محل الأول[1] ، وقد جاء ذلك في قوله[2]:

والبَدَل اقْدِرْهُ مكان المبدل * سنْهُ فأعْرِبْهُ بما في الأوَّل

مِثَالُهُ جِئْتُ أخاك جعفرا *عرفت أو نكَّرْتَهُ أو أضمرا

من خلال البيتين نجد بأن ابن معطي حاول من خلالهما أن يعرف البدل،وهو التابع من التوابع أي يتبع فيه البدل المبدل منه في الإعراب ،والتعريف ،والتنكير وقد مثل لهذا بمثال جئت أخاك جعفرا ، فقد أتبع البدل المبدل منه في التعريف والتنكير ، والإظهار، والإضمار، وقد وضح هذا الشارح بالتفصيل في شرحه[3].

وبعد حديثه عن البدل،والمبدل منه انتقل إلى مسألة تتعلق بأقسامه،إذ يقول[4]:

وهو على أربعة قد قسما * كل منَ الكلِّ كما تقدما

وبعضه من كله نحو أكل * زيد رغيفا ثُلُثَيْهِ أو أقَلْ

وذو اشتِمال ثالث مثالُهُ * أعجَبَني محمد جمالُهُ

يحاول ابن معطي من خلال أبياته هذه أن يوضح لنا أن أقسام البدل هي أربعة بدل الكل من الكل[5]، وبدل البعض من الكل، وبدل الاشتمال ، وبدل الغلط وقد مثل للأقسام الثلاثة ،ولم يمثل للقسم الأول أي بدل الكل من الكل أي ذكر القسم دون التمثيل ،بينما نجده قد مثل لبدل بعض من كل بمثال أكل زيد رغيفا ثلثيه،ومثال ذو الاشتمال هو أعْجَبَنِي محمدٌ جَمَالُه، وبدل الغلط كمثل جئت دَعْدَ زيدا غلَطا[6]، أراد أن جئت زيدا فسبقه لسانه إلى ذكر دعد ثم ظهر الغلط فتداركه ،وهي مسألة بدل معرفة من معرفة، وهناك مسائل ثمانية وضحها الشارح[7].

---

[1]- الفصول الخمسون، ص238.

[2]- ألفية ابن معطي، ص48 -49 .

[3]- شرح ألفية ابن معطي، 2/801-802.

[4]- ألفية ابن معطي، ص49.

[5]- بدل كل من كل بأن اتحد معنى وقد يقال بدل شيء من شيء لوجوده فيما لا يطلق عليه كل نحو قوله تعالى: "صِرَاطِ العَزِيز الحَمِيد الله"، سورة إبراهيم، الآية 21، يراجع همع الهوامع، 3/147-150.

[6]- شرح ألفية ابن معطي، 2/812.

[7]- شرح ألفية ابن معطي، 2/812-813.

ما نلاحظ هو أن ابن معطي ركز على أربعة أقسام للبدل، وهذا ما سيذكره كل من ابن أب المزمري، و بلعالم ،واختلف عنهما في تسمية القسم الأول فيسميه بدل الكل من الكل ، بينما المزمري فيسميه بدل الشيء من الشيء تبقى اختلاف في التسمية لأن المضمون واحد[1].

ففي مثاله الخاص ببدل البعض من الكل، فقد مثل له بـ أكل زيد رغيفا ثلثيه فهو معرفة من نكرة ،وبهذا نجد أن ابن معطي قد ركز على مسألة واحدة من ضمن ثماني مسائل[2].

و يواصل نظمه قائلا[3]:

و أبْدَلُوا الفِعْل مِن الفِعْل إذا *كان بمعناه وذاك مثل ذا

إنَّ عليَّ أن تبايعا * تؤخذُ كَرْها أو تجيءَ طَائِما

من خلال البيتين السابقين نجد أن ابن معطي أضاف مسألة مهمة ،وهي أن الفعل يبدل من الفعل إذا ترادف فعلان لفظا وزمنا على معنى، فيجوز إبدال أحدهما من الآخر إبدال الكل من الكل.

وقد مثل لهذا في البيت الثاني ؛ففي هذا البيت الشاهد أنه نصب تؤخذ، وما بعده على البدل لأن المبايعة تتضمن إما الكره ،والطوع لأنها لا تخلو عن أحدهما[4].

2)– ابن أب المزمري:

لقد تعرض المزمري لموضوع البدل[5] الذي هو آخر باب من أبواب التوابع في قوله[6]:

إذَا اسْمٌ ابْدِلَ من اسم يَنْحَلُ * إعْرَابَهُ والفِعْلُ أيْضًا يُبْدَلُ

يحاول ابن أب المزمري في بيته هذا أن يوضح أن الاسم يبدل من الاسم والفعل يُبدل من الفعل ،وأن المبدل منه يتبع البدل في الرفع ،والنصب ،والجر.

ثم يواصل نظمه عن موضوع البدل لينتقل إلى مسألة أخرى تتعلق به ألا وهي أقسامه، إذ يذكر أنه ينقسم إلى أربعة أقسام، إذ يقول[7]:

---

[1]– سأتحدث عن هذا بعد حديثي عن ابن معطي.

[2]– شرح ابن معطي 808/2-809.

[3]– ألفية ابن معطي، ص49.

[4]– شرح ألفية ابن معطي، 812/2.

[5]– البدل هو الإعلام باسمين أو فعلين تبيينا أو توكيدا منويا بالأول الطرح معنى لا لفظا وهو في بيته تكرار العامل ، يراجع تقريب المقرب لأبي حيان الأندلسي تحقيق د / عفيف عبد الرحمن ، ص80 ،دار المسيرة، ط1 1402هـ - 1982م

[6]– فتح رب البرية، ص6.

[7]– مرجع نفسه ، ص6.

أَقْسَامُهُ أَرْبَعَةٌ فَإِنْ تُرِدْ * إِحْصَاءَهَا فَاسْمَع لِقَولِي تَسْتَفِد

وقد عددها في قوله[1]:

فَبَدَلُ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ كَجَا * زَيدٌ أَخُوكَ ذَا سُرُورٍ بَهِجَا

وبَدَلُ البَعْضِ مِنَ الكُلِّ كَمَنْ * يَأكُلْ رَغِيفًا نِصْفَهُ يُعْطِ الثَّمَنْ

وبَدَلُ اشتِمَالٍ نَحْوُ رَاقَنِي *حَمَّدٌ جَمَالُهُ فَشاقَنِي

وبَدَلُ الغَلَطِ نَحْوُ قَدْ رَكِبْ * زَيدٌ حِمَارًا فَرَسًا يَبْغِي اللَّعِبْ

من خلال ما ذكره المزمري في أبياته هذه نجد بأن أقسام البدل أربعة ،وهي بدل الشيء من الشيء، وبدل البعض من الكل، وبدل اشتمال، وبدل الغَلَطِ ؛فأما الأول فيسميه العلماء البدل المطابق، وبدل الكل من الكل[2] ،وقد سماه المزمري ببدل الشيء من الشيء اختلاف في التسمية، وقد مثل له بجا زَيْدٌ أَخُوكَ ذَا سُرُورٍ بَهِجَا دون أن يعرفه وإذا أردنا التعريف به ؛فهو ما كان البدل فيه عين المبدل منه ومساوي له في المعنى ،نحو: جاء زيدٌ أخوك فأخوك بدل من زيد بدل شيء من شيء مرفوع برفعه وعلامة رفعه الواو، وهذا ما نجده في القرآن الكريم ،إذ يقول الله سبحانه وتعالى: "مَفَازًا حَدَائِقَ وأَعْنَابًا"[3].

وبَدَلُ البعض من الكل، وقد مثل لهذا بمثال ،وهو كمن يَأكُل رَغِيفًا نِصْفَهُ يُعْطِ الثَّمَنْ ،وقد وضح هذا المثال أكثر شارح المنظومة[4] ،وبدل اشتمال ،وقد مثل له بمثال وهو رَاقَنِي مُحَمَّدٌ جَمَالُهُ؛ وجماله بدل منه مرفوع يرفعه مشتمل على ضميره، وبدل الغَلَطِ ،وقد مثل له بمثال وهو قَدْ رَكِبْ زَيدٌ حِمَارًا فَرَسًا يَبغِي اللَّعِبْ؛ ففرسا بدل غلط من حمارا.

3)– الشيخ بلعالم:

لقد تحدث الشيخ بلعالم عن القسم الرابع من التوابع ،وهو البدل، إذ يقول[5]:

إن أَبْدِلَ الاسم من الاسم فَحَلْ * مَحَلَّهُ وَجَازَ في الفِعْل البَدَل

1– مرجع نفسه ، ص7.

2– مقدم العي المصروم، ص201.

3– سورة النبأ، الآية 31–32 وتمامها: "إِنَّ لِلمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وأَعْنَابًا (32)" ففي الآية الكريمة نجد الشاهد حدائق بدل كل من كل من مفازا فحدائق بدل وهو نكرة ومفازا مبدل منه وهو نكرة، يراجع فتح رب البرية، ص158.

4– فتح رب البرية، ص158، ومقدم العي، ص201.

5– ترجمة الشيخ بلعالم، ص40.

فَأحكم لَهُ بِمَا حَكَمْتَ أولاَ * لمبدل منه في الإعراب جَلاَ

ما يلاحظ في هذه الأبيات أن الشيخ بلعالم لم يعرف البدل،واكتفى بذكر المسائل الأخرى المتعلقة به فقد بدأ بمسألة أن البدل يتبع المبدل منه في الإعراب ووضح أن الاسم يبدل من الاسم ،وأجاز أن الفعل يبدل من الفعل أيضا ،وقد أوضح الشارح هذه المسألة ،ومثل لها في شرحه[1] .

وبعد أن أنهى هذه المسألة انتقل إلى مسألة أخرى ألا وهي تقسيم البدل ،وقد قسمه إلى أربعة أقسام ،وهي : بدل الشيء من الشيء[2]، وبدل البعض من الكل،وبدل الاشتمال، وبدل الغلط ،إذ يقول[3]:

وهو إلى أربعة قد قسما * فَبَدل الشيء من الشيء انتما

لِبَدَل الكُل من الكل كقام * زيد أخوك قاصدا إلى الأمام

وبَدَل البعض كقولك أكل* زيد رغيفا نصفه في ذا المحَل

وذو اشتمال راقني سعيد * خُلُقُـه فهو به سعيد

وجاء زيدٌ الحمارُ في الغلط * وخذ ثِيابا درهما بلا شطط

لقد حاول الشيخ بلعالم من خلال أبياته أن يوضح لنا أقسام البدل ،وهي أربعة أقسام؛ بدل الشيء من الشيء ،وقد نسبه لبدل الكل من الكل ،و مثل له بـ قَامَ زيد أخوك؛ فقام فعل ماضي زيد فاعل أخوك بدل من زيد بدل كل من كل مرفوع بالواو نيابة عن الضمة لأنه من الأسماء الخمسة ،والكاف مضاف إليه مبني على الفتح في محل جر[4]، وبدل البعض من الكل وقد مثل له بأكل زيد رغيفا نصفة؛ أكل فعل ماضي ، زيد فاعل، رغيفا مفعول منصوب بالفتحة الظاهرة في آخره نصفه بدل بعض من كل وبدل المنصوب منصوب[5] ،وبدل الاشتمال ،وقد مثل له براقني سعيد خُلُقُه؛ راق فعل ماض والنون للوقاية والياء مفعول به في محل نصب سعيد فاعل مرفوع وخلقه بدل اشتمال من سعيد وبدل المرفوع مرفوع، والهاء مضاف إليه مبني على الضم في محل جر؛ فسعيد يشتمل على الخلق اشتمالا

---

[1]- كفاية المنهوم شرح على اللؤلؤ المنظوم، تأليف محمد باي بلعالم، ص89.

[2]- يراجع همع الهوامع للسيوطي، 3/147-150.

[3]- اللؤلؤ المنظوم ، ص41.

[4]- كفاية المنهوم، ص90.

[5]- مرجع نفسه ، ص90.

معنويا كاشتمال الظرف على الظروف[1] ،وبدل الغلط وقد مثل له بجاء الحمار؛ فالحمار بدل من زيد بدل غلط، ومثاله الآخر خذ ثيابا درهما ؛فدرهما بدل غلط.

آليات اشتغال التصوير الفني في ديوان الشيخ عبد القادر بطبجي المستغانمي

–مقاربة بلاغية للخطاب الشعري الصوفي الشعبي الجزائري–

الدكتور : عبد اللطيف حني

أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات – جامعة الطارف

[1]- مرجع نفسه ، ص90.

ملخص :

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على شبكة الصور البيانية المشتغلة في الخطاب الشعري الصوفي الشعبي، ومدى توسل الشاعر بالتصوير البياني لتدبيج خطابه والارتقاء به إلى الجمالية والتأثيرية، متخذة من الشاعر الشعبي الجزائري عبد القادر بطبجي المستغانمي أنموذجا، حيث تبحث الدراسة في كفاءة توظيف الشاعر لمختلف الآليات البيانية والبلاغية في تشكيل أفكاره، مستفيدا من قدرتهم التصويرية، ومستعينا بهم في نقل معانيه الشعرية، كما تبين أثر الخيال في المتلقي ومدى شحن الخطاب بالدلالات العميقة والمعاني المؤثرة. "

Abstract:

This study seeks to identify the network graphic images engaged in discourse popular poetic "al-ssoufi", and the extent begged poet filming graph of speech and elevate it to the aesthetic and influential, taken from the poet popular "Abdelkader Betbji Al-mostaganmi" model, where the study examines the efficiency of employment poet of the various mechanisms graphsthe rhetoric in the formation of his ideas, pictorial, taking advantage of their ability, and aided them in the transfer of poetic sense, as demonstrated by the impact of imagination in the receiver and the extent of charging discourse deep influencing meanings.

بسط منهجي :

حظي الخطاب الشعري الشعبي الجزائري باهتمام الأوساط المثقفة، ولقي بينها رواجا وانتشارا ملفتا للانتباه، حيث وطن نفسه في الذاكرة الثقافية بفضل شعرائه الفحول الذين تفتخر بهم الأمة، وتعتز بآثارهم التي استقطبت الباحثين والدارسين فراحوا يلجون أبوابه ويقتحمون أسواره عبر جميع موضوعاته الاجتماعية والسياسية والدينية، وكانت القصيدة الشعبية الصوفية مقصد الدارسين الذين

راحوا يقاربون مضـمونها بالعديد من المناهج الحديثة، حيث تمكنوا من الإفصـاح عن جمالياتها وفنياتها الخبيئة في أتونها، فساعد ذلك على الغوص في أعماقها، وإجلاء كنوزها.

ولعل الشـعر الشـعبي الجزائري استفاد عبر حقبة زمنية طويلة من الحركة الصـوفية التي نشـطت في الجزائر فتزود من نشـاط حركيتها ولغتها ومصـطلحاتها، كما تمكن الشـعراء من ممارسـة السـماع الذي ارتبط بالشـعر الشـعبي، فجنحوا إلى مدح الأولياء الصـالحين من الأقطاب وأصـحاب الطرق الصـوفية الكبرى في الجزائر، وسـاهموا في نشـر هذه الطرق عبر الشـعر الذي حوّل إلى أغان ومدائح لبسـطها للناس وتسـهيل فهمها وتطبيقها، مثل الشـيخ سـيدي أحمد بن مصـطفى العلوي المسـتغانمي مؤسـس الطريقة العلوية، وسيدي لخضر بن خلوف، عبد العزيز المغرواي وغيرهم.

وعلى هذا الأسـاس تسـعى هذه المداخلة إلى إثارة إشـكالية مفادها لماذا اتخذ التصـوف في الجزائر النص الشعري الشعبي مطية لتبليغ تعاليمه ومبادئه للناس؟ وما مدى التوافق الفني والفكري بين الشعر الشـعبي والتصـوف الإسـلامي؟ وهل نجح الشـاعر الشـعبي الجزائري في الارتقاء إلى مصـاف التجربة الصـــوفية؟ وهل أثر وتفاعل وفعل متلقيه من خلال نصـــه؟ وما هي الآليات والتعبيرية والتقانات الأسلوبية التي توسل بها النص الشعري لاحتضان الظواهر الصوفية؟

ولعل من أبرز الأدوات الفنية والجمالية التي يتحصـن ويتوسـل بها هذا الخطاب هي الصـورة الفنية بمختلف أبعادها، والتي باستطاعتها استيعاب مظاهر السلوك الروحي ومعارفه وتمظهراته النورانية، فهي المختبر الذي ينصـهر فيه الشعر والتصوف، فيتجلى الإبداع والفن، وهذا ما لمسناه في نصوص شعرنا الشـعبي، وسـتسـعى المداخلة إلى كشـفه والوقوف عليه من خلال التركيز على طبيعة التصـوير البياني باعتباره آلية فنية وجمالية، وذلك باتخاذ ديوان الشـاعر الصـوفي الشـيخ عبد القادر بطبجي المسـتغانمي مداح سـيدي عبد القادر الجيلاني صـاحب الطريقة القادرية مجالا للتطبيق والدراسـة، والتأكيد على نضج النص الصوفي الشعبي الجزائري.

1-التصوف المفهوم والماهية :

يعتبر التصـوف الإسـلامي من الموضـوعات الكبرى في ثقافتنا الأدبية والاجتماعية الفكرية، إذ تحول إلى ظاهرة تتشـكل وتتطور وفق التطور الزماني وأفكاره، وقد جسـد الأدب الصـوفي أفكار المتصـوف بمختلف اتجاهاتهم سـواء الفلسـفية أو السـنية، والمتصـوفة هم «أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلو عن

الدنيا وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقا تخلقوا بها»[1]، وقد شاع طريقتهم بين الناس وعرفوا بهذه الصفات بين الناس.

وعند الرجوع إلى المصادر التاريخية نلحظ أن الكثير من الدارسين اختلفوا في سبب إطلاق مصطلح التصوف، فهناك من نسبها إلى انتساب هؤلاء الأقوام إلى الصف الأول من الصلاة، وأرجعها آخرون إلى «أنها مأخوذة من (صوفة القفا) وهي الشعرات النابتة في مؤخرة الرأس، أخذوا منها تصوف، ونسبوا إليها صوفي كأن الصوفي قد انصرف عن الخلق للحق»[2].

وهناك من أرجع التصوف إلى رجل من العرب يقال له (صوفة) انقطع للعبادة والتقرب لله تعالى، ونسبها آخرون إلى أهل الصفة وهم فقراء كانوا في عهد النبيρ وأعتبر أقرب تأويل للتصوف هو أنها اشتقت من كلمة الصوف، لأنه لباس الأنبياء ومن سلك سبيل الزهد والتعبد والانقطاع، فهو دلالة على التواضع والبعد عن مفاتن ومشاغل الدنيا[3].

وعلى هذا الأساس تشكل مفهوم التصوف واتضح واستوي إلى معنى العكوف على العبادة والانقطاع عن الدنيا وهجر لذاتها والزهد فيما يقبل عنه الناس الانشغال بذكر الله تعالى في خلوة منعزلة قصد التعبد والابتهال، بل يسموا المتصوفة في تعريفهم للتصوف بأنه «الطريق الذي يسلكه الزاهد ليصل إلى المحبة الإلهية، والمعرفة الكاملة اللدنية التي عندها يفنى حيال الوجود الشخصي في حقيقة الكائن الإلهي الشاملة لكل شيء»[4].

ويبدو أن المسلمين في القرون الأولى للهجرة لم يكن لديهم علم بهذه الرياضة الروحية ولم يتلمسوها في سنة النبي ρ، فقد طرأت عليهم بروافدها وتعاليمها، ولم تتشكل وتتمظهر باعتبارها مفهوما إلا بعد القرن الثالث للهجرة، واستوى التصوف على سوقه وتكونت مفاهيمه المرتكزة على أساس أنه «رياضة روحية تهف للوصول إلى الله والاتحاد به، وأصبح مذهبا واضح المعالم معروف الحدود، فقد استنبع

---

[1]-جمال الدين أبو الفرج الجوزي، تلبيس إبليس، مكتبة المتنبي، القاهرة، د ط، د ت، ص 161.

[2]-صابر طعيمة، الصوفية معتقدا ومسلكا، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 2، 1985، ص 21.

[3]-ينظر : مرجع نفسه، ص 20.

[4]-يوسف خليفة، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 1967، ص 202.

الحب الإلهي الذي كان الطابع العام لتصـــوف القرن الثالث(الفناء) في المحبوب وترتب على الفناء (الاتحاد) بذلك المحبوب أو مشاهدته والبقاء به»[1].

إن التصـوف خطى خطواته الأولى انطلاقا من هذه المبادئ ولم يتخذ الخلفية الفلسـفية متكأ، وهذا ما يؤكده جان شوقليي فيقول : «لم تكن النزعة الصوفية في بادئ الأمر تأملا فلسفيا لاهوتيا مثل علم الكلام، كما ليست تأويلا للأحلام كما هو الشأن عند فرويد، ولا هي حكمة مشرقية بالمعنى المعاصر لهذا المصطلح، إن الصوفية هي قبل كل شيء تجربة داخلية، هي طريقة في الحياة والسلوك»[2].

كما يعتبر الصـــوفية الحب الإلهي الركيزة الأســـاس في تقربهم لله تعالى، وهو المقياس لدرجة قربهم أو بعدهم، وكلما تعاظم في أنفســـهم كلما تحقق الارتقاء في الدرجة، يبين الحلاج ماهية الحب الإلهي فيقول : «إن جوهر الذات الإلهية هو الحب، فإن (الحق) أحب ذاته قبل الخلق في وحدته المطلقة، وبالحب تجلى بنفسه لنفسه، فلما أحب أن يرى ذلك الحب بعيدا عن الغيرية والثنوية في صورة مظاهره أخرج من العدم صـورة من ذاته لها جميع صـفاته وأسمائه فكانت هذه الصـورة الإلهية آدم الذي تجلى الحق فيه وبه»[3].

ويرى الدارسون أن التصوف ليس وليد البيئة والثقافة الإسلامية، إنما تسرب إليها من ثقافات أخرى كالشـرقية التي انتشـرت في الديانات الهندية والفارسـية واليهودية، أو الغربية كاليونانية والمسـيحية، في حين يرى آخرون أن لا تأثير لهذه الثقافات على التصوف الإسلامي، ويعزي الدكتور عمر فروخ التأثير إلى الفكر الصيني الذي يعدّ المرجع الرئيس لفكرة التصوف التي انتشرت في الإسلام والمسيحية[4].

ولعل المتمعن في التصـوف الإسـلامي يرى ذلك التقارب والاشـتراك بينه وبين الذين تبنوا التصـوف الفلسـفي المعتمد في أغلب في مبادئه على ثقافات دخيلة على الإسـلام، لكن رغم ذلك نلمح التأثير الواضح لهذا التصوف وخاصة أن أصحابه ومنظروه هم من غير المسلين، مما دفعوا التصوف الإسلامي

---

[1]-عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي –نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث هجري-، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، 1954، ص 46.

[2]-جان شوقليي، التصوف والمتصوفة، ترجمة : عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص11.

[3]-نيكلسون–رينوك آلن، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة : أبو العلا عفيفي، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1969، ص85.

[4]-ينظر : عمر فروخ، التصوف في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 32-48.

إلى الخروج عن التعاليم والأطر والضوابط الإسلامية وذلك من خلال بحثهم عمن التكامل بين المادي والروحي.

ويبدو أن التصوف الإسلامي والفلسفي قد سارا جنبا إلى جنب وفق ترتيب زمني مقدر، وكل اتجاه اكتسب أفكارا ورؤية جديدة تبطن وتدثر بها، رغم أن الفلسفي كان الأقوى في الظهور والتأثير على أفكار أصحاب هذا الاتجاه، وكان الأدب هو المجال الوحيد لصب هذه الأفكار وتجسيدها للمتلقي، وطريقة لنشر هذه التعاليم بين الناس وإقناعهم بها، وهو وسيلة للتعبير والترويج لهذا الخطاب عن طريقة آليات وأدوات الأدب واللغة والمتمثلة في اللغوية والأسلوبية وأبرزها التصوير البياني.

2-حدود التصوير البياني في التنظير النقدي :

يتوسل الأديب بالكثير من الأدوات الفنية التي بواسطتها يصوغ تجربته الشعرية ويعبر عن حاله وواقعه سلبا أو إيجابا، ومن أبرزها استعمالا الصورة الشعرية، التي تعتبر أداة مطواعة في يد الشاعر يشخص بها انفعالاته ويظهر في مكامنها المعاني التي تختلج في فكره ونفسه، فالصورة وسيلة لإظهار البؤر «الشعورية والتعبيرية، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك» [1].

إن الصورة الفنية تعكس الجانب الملفوظ لأفكارنا وأحاسيسنا فهي «تمثيل وقياس نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا» [2]، وبذلك تكون وسيلة لنقل أفكار الأديب وتقريبها للمتلقي، والارتقاء به إلى مستوى التجربة الشعرية التي عاشها بشكل أسمى وأرقى، فيتفاعل معها فكريا وعاطفيا، لأن الصورة الشعرية تستوعب أبعاد الخيال المختلفة المدرك واللامدرك في آن واحد[3].

وترتبط الصورة الشعرية بالفكر لأنه المختبر الذي تصاغ ضمن أطره وتصنّع وتصقل فيه، فهي حادثة ذهنية متعلقة بشكل أساسي بالإحساس، وبالتالي تستمد دينامكيتها من الحدث الذهني، وعلى هذا الأساس تكون الصورة «منهجا لبيان حقائق الأشياء»[4].

ويقصد بالصورة لغةً تجسيم ورسم لإنسان أو حيوان أو تجسيم طبيعي، أما اصطلاحا فهي: «أسلوب يجعل الفكرة تبرز بكيفية أكثر حساسية وأكثر شاعرية، تمنح الشيء الموصوف أو المتكلم عنه

---

[1] –سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 03، 1980، ص 5.

[2] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الأعجاز في علم المعاني، تعليق : محمد رشيد، مكتبة القاهرة ، مصر، 1961، ص 330.

[3] – أرشيبالد مكليش، الشعر والتجربة، ترجمة : سلمى الخضراء الجيوشي ، بيروت 1963 ، ص 67.

[4] – مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط 3، 1983، ص 08.

أشكالا وملامح مستعارة من أشياء أخرى، تكون مع الشيء الموصوف علاقات التشابه والتقارب من أي وجه من الوجوه»[1].

ويعرف الشاعر الفرنسي "بيار ريفاردي" (1889-1960) لفظة (Image) بأنها «إبداع ذهني صرف، وهي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة وإنما من الجمع بين حقيقتين واقعيتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة، ولا يمكن إحداث صورة المقارنة بين حقيقيتين واقعيتين بعيدتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل»[2].

وأهم ميزة يعرف بها العمل الإبداعي هو الصورة التي اهتم بها الباحثون منذ القدم إلى عصرنا الحالي فهي«في وضعها الرئيسي ليست تعبيرا منتقى قصد به أن تدل على فكرة مجردة حدد الشاعر معالمها سالفا ثم راح يتأمل تفاصيل الطبيعة من حوله يختار أكثرها مناسبة لتصوير فكرته، ولكنها انبثاق تلقائي حر يفرض نفسه على الشاعر كتعبير وحيد على لحظة نفسية انفعالية، تريد أن تجسد في حالة من الانسجام على الطبيعة من حيث هي مصدرها البعيد، وتنفرد عنها رتبا إلى درجة التناقض والعبث بنظامها وقوانينها وعلانيتها تأكيدا لوجودها الخاص ودلالتها الخاصة... ومن ثم فإن الصورة ليست أداة لتجسيد شعور أو فكر سابق عليها بل هي الشعور والفكر ذاته، لقد وجد بها ولم يوجد من خلالها »[3].

ولعل المرزوقي تحدث عن عنصر التصوير من خلال ذكره أقسام الشعر السبعة وهي:«شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف والمقارنة في التشبيه التحام أجزاء النظم والتقائها على تخير لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له»[4] فهذا القول يمثل نظرة القدامى للصورة الشعرية إذ لم ترد في مؤلفاتهم حديثا مخصوصا حولها، فالإصابة في الوصف والمقارنة في التشبيه ومناسبة المستعار منه للمستعار له يمثل في هذا المقام التصوير والتبيين والإيضاح.

1- GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEDIGUE، IMAGE . T. G ، PARIS، 1960.

2-مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1974، ص 297.

3-محمد حسين عبد الله، الصورة الشعرية والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، 1981، ص 33.

4-شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط01، 1951، ص 09.

وقد كان النقاد القدامى يهتمون بالصورة من حيث لا يدرون، وذلك بإيلاج إبداعهم عالم الوسائل البلاغية مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، بيدَ أن تطبيقهم لهذه الوسائل كان جزئيا«لا يتعدى الجملة إلى البيت، أو البيت إلى القصيدة »[1].

ويُعَدُ عبد القاهر الجرجاني من النقاد القدامى الذين اهتموا بالتصوير في العمل الأدبي في كتابه أسرار البلاغة وعلم البيان، حيث بيّن فيه وجهة نظره بقوله:«فالانتقال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتجميلات التي تهز الممدوحين وتحركهم وتفعّل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر، إن التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش والبحث والنقر، فكما إن تلك تعجب وتخلب وتروق وترنق وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور»[2].

وانطلاقا مما سبق سَعينا قدر الإمكان تلخيص نظرة النقد العربي القديم إلى الصورة الشعرية التي اعتبارها عاملا تجميليا في القصيدة بعناصرها وطغيان الخيال الحسي المجسد لها المستمد من نظرة الشاعر للحياة وجزئيات الكون، ومن تجربته التلقائية الشعورية في حياته اليومية، لذلك تميزت نظرة العرب القدامى للصورة بسيطرة«النزعة الحسية على النظرة الجمالية في الشعر العربي، تلك النزعة التي تعتمد على الإقناع وإمتاع الحواس غالبا أكثر مما تعتمد على الإيحاء» [3].

واعتمد النقد الحديث في دراسته للصورة الفنية على عنصر الخيال باعتباره عاملا ديناميكيا يقع على مستوى مخيلة الشاعر، يتمازج في خفة وتوافق مع التجارب الشعورية، ويولد الصورة البديعة لذلك فالصورة تبث الخيال في جمالية مطلقة.

---

[1]–عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك : الدراسات الأدبية واللغوية، الرياض، السعودية، ط 01، د ط، 1980، ص 15.

[2]–عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، صححه وعلق على حواشيه : محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 02، 1981، ص 297.

[3]–السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث : مقوماته الفنية و طاقاتها الإبداعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 98.

وقد اعتبر الشاعر الإنكليزي كولوريدج– COLRIDGE– الخيال جانبا مهما وأعطاه الدور الحقيق في صنع وتشكيل الصورة، والمجسد لأعماق وأحاسيس الشاعر والكاشف لجماليات الحياة لديه، فهو«طاقة روحية هائلة أو عالما مطلقا غير محدود، بينما عالم الحياة المادية خامل محدود وزائل» [1].

ويؤسس عبد القادر القط نظرته للصورة على التشكيل المكون من الخيال والطاقات اللغوية والتعبيرية المكتسبة من الأديب فيقول :«الصورة في الشعر هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والجناس وغيرهما من وسائل التعبير الفني، والألفاظ والعبارات مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني، ويرسم بها الصورة الشعرية» [2].

3–الشعر الصوفي الشعبي وآلية التصوير البياني :

إن التصوير هو وسيلة وآلية أسلوبية وفنية في يد الشاعر المتصوف لصياغة أفكاره وتجسيد رؤيته للعالم والوجود، ومن خلال ينفذ إلى النشوة المقصودة، كما أنه وسيلة للتواصل مع متلقيه لرفعه عاليا إلى مستوى تجربته والسعي إلى مشاركته لذة الروحانيات الصوفية، ولأن الشعر تدثر بأسرار لا يدركها إلا الشعراء، فهو ممارسة غير عادية للوجود وقراءة ما ورائية لمكنوناته، لذلك «اعتبر الصوفية الشاعر مصنوعا على عين الله ... جسمه في الأرض وقلبه في السماء، يتسقط أخبار العالم العلوي الذي يمده بومضات إلهية بها يكون شعره نارا تهجم على الأفئدة بغير حجاب» [3].

وعليه اعتنى المتصوفة بالشعر، واجتهدوا في تشكيله وصنعه وجعلوه مقام إشارة لا يدرك إلا بالمجاهدة والصبر المكاشفة وهتك ستار الحجب، وجعلوه مصاحبا لأحوالهم ومقاماتهم الصوفية، وارتقوا بألفاظه ومعانيه وعمقوا دلالاته، وطعموه بمخلف التجارب الصوفية، وجعلوا المتلقي يسعى إليه بكل ما أوتي من قوة، كما راح البعض يحملون النصوص الشعرية بالمعتقدات التوجهات الدينية مثل الحلاج وابن

---

[1]–عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري (دراسة في النظرية و التطبيق)، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ط: 01، 1984 م- 1405هـ، ص 77 – 78.

[2]–عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت،لبنان، دط، 1978، ص435.

[3]– علي آيت أوشان، الكتابة واحتجاب المعنى– قراءة نقدية في ديوان مجمع الأهواء للشاعر أحمد العمراوي–، ملتقى الأدب والنقد، موقع إلكتروني..

عربي، ومنهم من اتخذه متنفسا وفضاء لطرح رؤيته الصوفية وحواراته مع ذاته، وتفسير نظرته للعالم الخفي واللغة والوجود وهذا ما نجده عن ابن الفارض وابن عفيف التلمساني وشعراء الحداثة.

وكذلك كان الحال بالنسبة للشعراء الصوفيين الشعبيين في الجزائر فقد «فهم شيوخ وأقطاب الصوفية في المنطقة المغاربية منذ زمن بعيد أن الشعر الملحون هو أثقل وزنا وأكثر رسوخا في أذهان العامة الذين شكلوا وما يزالون يشكلون أغلبية أتباعهم. وفهم هؤلاء الشيوخ أيضا أن هذا الشعر لا يمكن أن يرسخ في أذهان العامة إذا لم يغن. ومن هنا جاءت العلاقة العضوية المتينة بين شيوخ وأقطاب التصوف وبين شعراء الملحون. ولا يعني ذلك أن شعراء الملحون كانوا عاجزين عن نظم الشعر الفصيح ولكنهم كانوا ينظمون الملحون أكثر من الفصيح (سيدي قدور العلمي نموذجا) لأنه أكثر وأسرع انتشارا وأكبر أثرا وبالتالي أكثر فاعلية في توصيل الرسالة الصوفية.» [1].

وفي هذا الإطار لا يمكننا أن نغفل «ثنائية (الطالب) و (المدّاح) هي التي تقف في النهاية من وراء ظهور ما يعرف اليوم بالفن الشعبي أو الغناء الشعبي الجزائري، حيث أن مدرسة الشعبي ما هي إلا امتداد لظاهرة المدّاح المنطلقة أساسا من الفضاءات الصوفية المتمثلة في الزوايا.فالمدّاح من جانب المضمون كان يمدح عن الله تعالى،وعلاقة الإنسان به من حيث الطاعة و المعصية والاستغفار بما يشمل جميع الانشغالات السلوكية الصوفية، ويمدح أيضا عن الرسول علية الصلاة والسلام، والصحابة رضي الله عنهم، والأولياء والصالحين، إضافة إلى أيام وغزوات العرب» [2].

يبدو أن الشاعر الشعبي الجزائري قد تشرب بقدر كبير من التصوف، ثم أعاد تصنيعه ونسجه وفق «ما تزود به من علوم ومعارف دينية. وهنا نلاحظ أن الشاعر الشعبي لا يجهل الأبعاد الحضارية لخطابه، فهو يستفيد مما تعطيه الجماعة الشعبية كما يستفيد من مؤهلاته الاجتماعية و الثقافية» [3]، وهذا يؤهلنا للقول أن الشاعر الشعبي الصوفي متأثر بالثقافة الدينية والشعبية التي أخذها من محيطه والوسط الذي عاش فيه، هذه الثقافة التي تعتبر زادًا معرفيًا متنوعًا تقدمه (الجامعة الشعبية) المتمثلة في المساجد والزوايا .

---

[1]- سعيد جاب الخير، العلاقة بين التصوف وشعراء الملحون (الشعر الشعبي) في الجزائر- "محمد بن مسايب" نموذجا- الكتابة-، منتدى الثقافة والفنون، موقع إلكتروني.

[2]- مرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- مرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ولعلنا نجزم أن اغلب الشـعراء الشـعبيين الجزائريين والمغربيين هم من المتصـوفة، و نذكر منهم : سيدي لخضر بن خلوف، عبد العزيز المغرواي، الحاج محمّد النجّار،الحاج عيسى لغواطي، الشيخ عبد الرحمن المجدوب، الحاج مبارك بولطباق، سيدي أحمد لغارابلي، عبد القادر بلوهراني، سيدي أمحمّد بن عودة، سيدي بلحسن وشاعرنا الشيخ عبد القادر بطبجي وغيرهم.

5–التصوير البياني في ديوان عبد القادر بطبجي :

يعد شاعرنا الشيخ عبد القادر بطبجي من فحول الشعر الصوفي مقتديا بالشعراء الشعبيين الذين سخروا شعرهم لوصف حبهم للرسول ρ وللأولياء، بألفاظ وتعابير صوفية وبمصطلحات العشق والحب والوفاء والشوق الصوفي، مظهرين معرفتهم الحقيقية للأولياء والصوفية والشيوخ .

وإذا تصفحنا ديوان بطبجي نلمس مدى التأثير الذي كان للمدرسة الشعرية الصوفية على الشعر الشعبي باعتباره رافدا هاما من روافد ثقافتنا، وقد كانت الصور البيانية وسيلة وآلية أسلوبية في الخطاب الشعري لبطبجي لعرض نظرته وآرائه ومواقفه الصوفية التي انحصرت في التوسل بالنبي ρ والابتهال لله تعالى، ومدح الولي الصالح شيخ الطريقة القادرية عبد القادر الجيلاني، والتغني بالمصطلحات الصوفية كالخمر الصوفية والتجلي والإشراق والنور المحمدي .

أ–التصوير الاستعاري :

وظف شارعنا بطبجي الصورة الاستعارية في لغته الصوفية لما لها من قدرة فائقة في استعمال وإبراز التجربة الشعرية للمبدع،«لأن صورها أكثر وفاء واستنفادا لعناصر التجربة الشعرية، حين تتخلص من القيود والفواصل، والعلاقات المحدودة زمانا أو مكانا، أو الأجسام المشكلة بهيئة خاصة لا تتغير في دلالتها، وكل ما في الاستعارة من عناصر لا يلزم وجوده–حتما–في الواقع لكنه يستمد حيويته من مجال إبداع الشاعر، الذي لا يرى شيئين، بل يرى شيء واحدا»[1] .

وانطلاقا من الرؤية الجمالية للصور الاستعارية، فإنها في شعر بطبجي الصوفي زينته ولونته بلمساتها الفنية، وتشكلت في صور جزئية بديعة كالفسيفساء التي تتخذ من كل الألوان وجها لتشكل وترسم لوحة كبرى عامة، حيث يحرص بطبجي في قصائده على الأخذ بيد القارئ ليتجول به بين هذه الجزئيات الساحرة، فيظهر أفكاره على هيئة صور استعارية مبهجة، تشكل لوحة فنية وصورا كاملة، مستعينا في ذلك بأدوات فنية مثل التشخيص والتجسيم والتجسيد، ومستخلصا المادة المشكلة للصور من حياته

[1]–علي إبراهيم أبو زيد، الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، دار المعارف، مصر، ط 01، 1981، ص 292 .

العامة الشعبية ومعاشرته للناس، وما تتداوله الذهنية الشعبية من صور في حديثها اليومي، ومن ثقافته الدينية والاجتماعية، وما تقع عليه حواسه من الطبيعة الواسعة، بمختلف مظاهرها التي تشكل مادة خصبة للمبدع .

ونسوق بعض الصور الاستعارية التي زخرف بها بطبجي قصائده الصوفية في أحسن وأبهى حلة، حيث يقول في التغني بشمائل النبي ρ : [1]

يَاْ الْعُنْصَرْ الْوَاْكَدْ مَاْهْ مَاْ يْغُوْرْ يَاْ الْسَاْسْ الْثَاْبَتْ يَاْ الْزَّيْنْ كُلْ زَيْنْ

يَاْ الْلِيْ بْصْلاَتَكْ كُلْ سَاْقَيْهْ تْفُوْرْ وَ كُلْ شَجْرَةْ لَقْحَتْ بْثْمَاْرْهَاْ أَبْنِيْنْ

فالشاعر يتغنى بوصف مقام للنبي ρ مكثرا من الصلاة والسلام عليه، ومتطرقا بالثناء والتعظيم لمقامه الطيب وروضته الشريفة، موظفا الاستعارة في إخبارنا بمدى ما يكنه من حب للمصطفى ρ، حيث شبهه بالنبع الفياض الصافي الزلال (العنصر الواكد ماه ما يغور)، الذي تود البشرية الارتواء منه، ويقصد الدين الحنيف الذي لا يزول أبدا وحذفه (المشبه)، وصرح بالمشبه به وهو النبع الصافي، على سبيل الاستعارة التصريحية.

وتتميز صور بطبجي الاستعارية بالتجسيم الذي يزرع في الصور الفعالية والثراء والحركة التي تنبع من ثقافة الشاعر، وما تقع عليه عينه من المناظر الطبيعية، والارتقاء بها إلى مستوى الشعرية، حيث يقول في وصف هواه : [2]

يَاْ مَنْ دْرَىْ آنْشُوْفْ بْعَيْنِيْ شَمْسْ كَنْزْ الأَسْرَاْرْ لَعْرَجْ دَبَاْبْ الْتَاْلِيْ

الْعُقُوْلْ سَيْفْ الْمْشَاْلِيَةْ منْ لاْ مَثْلُهْ وَاْلِيْ

يَاْ مَنْ دْرَىْ آنْشُوْفْ بْعَيْنِيْ فَحْلْ الْفُحُوْلْ مَحْبُوْبْ حَضْرَةْ الْدَاْيِمْ الْجَلاْلِيْ

يَاْ مَنْ دْرَىْ آنْشُوْفْ بْعَيْنِيْ بَدْرْ آنْقُوْلْ مْشَرَفْ الْنَسَبْ منْ نَسْلْ الْمُخْتَاْرِيْ

يَاْ مَنْ دْرَىْ آنْشُوْفْ بْعَيْنِيْ شَمْسْ الْمُنِيْرْ مْغَيْثْ مَنْ حَصَلْ الْرَفِيْقْ الْخْطَاْرِيْ

يَاْ مَنْ دْرَىْ آنْشُوْفْ بْعَيْنِيْ زَهْوُ الْضَمِيْرْ سُلْطَاْنْ الأَوْلِيَاْءْ نُوْرْ الْبَدْرْ الْوَاْرِيْ

يَاْ مَنْ دْرَىْ آنْشُوْفْ بْعَيْنِيْ عَبْدْ الْقَدِيْرْ

وهكذا استطاع بطبجي رسم لوحة فنية كبرى مؤسسة على صور جزئية تركيبية تتلاحم وتتلاءم مع بعضها البعض، فتتآلف ألوانها وأشكالها لتخلق مشهدا رائعا للممدوح، وقد توالت مجموعة من

[1]- عبد القادر بطبجي، الديوان، تحقيق وتقديم : عبد القادر غلام الله، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2005، ص 262.

[2]- مرجع نفسه، ص 63 .

الاستعارات المصورة لجمال الولي الصالح، وهو جمال معنوي خلقي لا يرتبط بالخلقة أبدا، حيث أصبغ عليه مجموعة من التشبيهات وصاغها على سبيل الاستعارة التصريحية، حيث شبهه بالشمس في الإضاءة والنور، وهو الكنز الذي لا ينضب وهو الفحل القوي الأصيل، والسيف البتار القاطع، والبدر الجميل والمغيث والمنجد، والنور الساطع على الناس بحبه وعطفه وتعليمه وتبليغه القيم الدينية لهم .

استهل بطبجي صوره السابقة بنداء تنبيهي وبصيغة استفهامية تعجبية (أنشوف؟) أي هل أرى وأشاهد مرة أخرى محبوبي الذي حاز كل الصفات الجمالية التي ذكرناها ؟ والتي تشكلت من الجزئيات الصغيرة التي تركب وتؤلف اللوحة الكبرى، وقد ساعدت اللغة في إيصال الصورة رغم أنها ملحونة إلا أنها اتسمت بالبلاغة والحيوية والتآلف والتبليغ(يا درى أنشوف)، لذلك تكونت الاستعارة بصيغ لغوية ملفتة للانتباه، كانت في قمة البلاغة (شمس العقول، بدر النقول، فحل الفحول، شمس المنير، زهو الضمير، كنز الأسرار...) وهذا من خواص الصورة وثقل تأثيرها وروعتها وجمالها، «لذلك ينبغي للشاعر أن يحسن إيصالها ونقلها، ولا يتأتى ذلك إلا إذا أحسن استخدام اللفظ، ويعرف كيف يعبر عن المعنى، ويصوغ انفعاله في صورة، ومن هنا كان عليه في نقل عاطفته أن يستخدم لغة مألوفة بعيدة عن المصطلحات العلمية والكلمات الغريبة، وأن يقصد إلى العواطف عن طريق غير مباشر »[1].

ويتمنى بطبجي الارتواء من خمرة شيخه الصوفية المميزة والعتيقة المختلفة عن خمرة الدنيا موظفا التصوير البياني، فيقول : [2]

مَنْ مْدَامُكْ نَمْلاَّكْ كيْسَانْ يَاْ الْسُلْطَانْ يَتْحْيَاْوْا أَغْصَانِيْ تَمَاْ تْقَرْ عَيْنِيْ

نَبْشَرْ بالْعَزْ مَعْ الآمَانْ يَاْ الْسُلْطَانْ تَمَاْ نَفْخَرْ وَ نْقُوْلْ أَعْنَاْيْتِيْ اقْبَلْنِيْ

تظهر الاستعارة في(يتحياوا أغصاني) حيث شبه نفسه(المشبه محذوف) بأغصان شجرة ميتة(مشبه به مذكور) ومدام الولي هو الماء الذي يحييها، لقد أظهر بطبجي مقدرة فنية مميزة كشفت وترجمت أحاسيسه لمن يسمع ويتلقى شعره، فيتعايش معه ويحس به.

وقد اعتمدت صور شاعرنا في خطابه الصوفي على التوضيح بالتحليل والاستقصاء والتعليل والإقناع لما يكنه من احترام وتقدير وحب للممدوح، ويثبت مكانته في نفسه، فهاهو يتحدث عن الهوى كيف

---

[1]-عبد الفتاح نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1983، ص 81 .

[2]- عبد القادر بطبجي، الديوان، ص 57 .

زاره وما فعله به، فيشخصه بصفات الإنسان الذي يزور ويهجر، ويصور المنام والسهر كالشخص المعذب : [1]

زَارْ الْهُوَىْ بْرَاْجْ أَسْوَاْقِيْ وَ الْتَاْجْ فِيْ اَكْنَاْنِيْ وَ لاْ اَنْفَعَنِيْ فِيْ مَرْضْ هْوَاْكْ دْوَاْيَاْ
وَ الْمَنَاْمْ أَهْجَرْنِيْ وَ الْسَهْرْ مَضَاْنِيْ لانْ اَسْخَفْ بَصْرِيْ بْدْمُوعِيْ قْوَيَةْ
وَ لاْ أَنْفَعْنِيْ فِيْ الْمَحْتَةْ صَبْرْ مَقْوَاْنِيْ آهْ يَاْ وَاْهْ اَتْرَاْدْ ذَاْ الْشَوْقْ َ بِيَاْ
فِيْ الْدْوْاْخَرْ ذَاْ لُضَرْ اَغْمَيْقْ دَخْلاْنِيْ أَنْتَ بْعَيْدْ وَ شَوْقَكْ دِيْمَاْ حَدَاْيَاْ

وخلاصة القول أن الشاعر الشعبي المستغانمي بطبجي استطاع أن يستعين بالرموز المحسوسة والملموسة، واستعارها للتمثيل بها على المشاعر والأحاسيس الكامنة في نفسه، وخاصة تسخير أدوات الطبيعة لذلك، والذاكرة الشعبية وثقافته العلمية والدينية والأدبية ساعدته على تكوين صوره وتركيبها، فهو ماهر وحذق في ذلك رغم أن اللغة ملحونة، إلا أنها أسعفته بسحرها وجوهرها البلاغي ومكنته من إيصال المعنى كاملا واضحا، كما عمل على تسخير آلية الاستعارة وتكيفها وجعلها صورة كاشفة عاكسة لما يريد أن يعبر عنه، وهذا دليل على بلاغة وشعرية الشاعر الشعبي، الذي لم يجعل اللغة الملحونة إلا مطية لإيصال تجربته وخبراته في الحياة، ويبرهن على فكره المطلق، وخياله الفياض في عالم الأفكار ولا نعجب لذلك، فبطبجي يمتلك ثقافة متنوعة تأخذ من كل العلوم بطرف، حيث تكشفت معالمها في لغته ووظفها في عرض صوره الشعرية وتجربته الروحية في مجال التصوف .

ب–الصور التشبيهية :

يقوم التشبيه على طرفين أساسيين لا يمكن الاستغناء عنهما،وهما العنصران الأساسيان فيه«يذكران صراحة أو تأويلا ولو حذف–أسلوبيا–أحدهما يعد موجودا من جهة المعنى»[2] .

وعليه فإننا نلمس توظيف صورة التشبيه في شعر بطبجي الصوفي، وذلك لخدمة المعنى وتوضيحه وتقريبه للمتلقي، حيث يقول : [3]

مَنْ الْفَكْرْ وَ رَيْحْ الْشَوْقْ زَلْزَلْ الْعَقْلْ طَاْرْ عَلاْ فِيْ الْبْحَرْ وَ سَاْفَرْ
دَمْعِيْ تَسْنَيْ مَنْ الْجْفَنْ مُثْلْ صَبْ الأَمْطَاْرْ يَاْ مُوْلاْيَ عَبْدْ الْقَاْدَرْ

---

[1]– مرجع نفسه، ص 139 .

[2]–فايز الداية، جماليات الأسلوب –الصورة الفنية في الأدب العربي–، دار الفكر ، بيروت، لبنان، ط 02، 2003، ص 72 .

[3]– عبد القادر بطبجي، الديوان، ص 131 .

فبطبجي يظهر تعلقا واضحا بالولي عبد القادر الجيلاني، متمنيا لقياه في منامه ويقظته، فقد استبد به الشوق وغلبه علي، فصاغ صورته المأساوية بواسطة التشبيه(دمعي تسنى من الجفن مثل صب أمطار)، حيث شبه نزول دموعه من الجفن(المشبه) بانهمار مياه المطر(المشبه به) والأداة(مثل) ووجه الشبه بينهما الكثرة والديمومة في الهطول، فأدى التشبيه دوره في نقل هذه الصورة ورسم شدة حزن الشاعر وحجم مأساته وألمه الشديد من غرامه لوليه، واختار العين (دمعي تسنى من الجفن) المشبعة بالدلالات الحية النابعة من حياته الحزينة التي آلت به إلى البكاء وإظهار ضعفه أمام ما يلاقيه من البعاد والجفاء، وتدل أيضا على حسه الديني وارتباطه بفكرة الأولياء الراسخة في بيئته .

إن هذه الصورة التشبيهية مشحونة بالحركة والجدة والفاعلية، لأنه شبه فيها حزنه العميق وكثرة بكائه الدائم بصورة المطر المنهمر، وتدل كذلك على حزن الطبيعة الكئيبة التي فقدت الشمس والصحو، وعلى العموم هذه صورة قديمة، لكنها تكشف جمال تصوير وخيال الشاعر وذكائه في نقل حالته للمتلقي .

وتتوالى التشبيهات في القصيدة نفسها كوسيلة توضيحية مشخصة لحالته ووضعه المأساوي وتوتر حالته وعدم استقرارها أمام حب الولي الصالح، فيقول : [1]

نُتْوَهَجْ مُثْلْ الْجِيْرْ فَوْقْ صَهْدْ الْجْمَارْ ذَاْ الْحُبْ أَمْلَكْنِيْ وَاْعَرْ

فِيْ فُنُوْنْ الْهُوَى شْفَيْتْ عَيْطَاْ ضْرَاْرْ يَاْ مُوْلاْيْ عَبَدْ الْقَاْدَرْ

يوضح بطبجي حالته كل مرة، ويصورها أبلغ تصوير باختيار الرموز الصوفية ليقرب الفكرة، حيث يشكل صورة جديدة مما تعارف عليه الناس في حياتهم وما خبروه من تجاربهم، حتى يقرب إليهم التشبيه ويؤدي دوره، فيشبه نفسه الحزينة(المشبه) بالجير (المشبه به) وهو الطين الذي يطبخ على النار لغرض البناء به، وهذا الجير لابد أن يوضع في فرن عالي الحرارة حتى يصلح للاستعمال(صهد الجمار)، وأداة التشبيه (مثل) ووجه الشبه بينهما هو الاكتواء والتعذيب بالحر الذي لا يطاق، لقد تجذر حب الولي في نفسه (ذا الحب أملكني واعر)، فبطبجي أبدع في رسم هذه الصورة التشبيهية وأحسن اختيارها لتعبرعن وضعيته المأساوية، ويوظف الصورة نفسها في قصيدة أخرى حيث يقول [2]

رَاْنِيْ فَوْقْ الْنِيْرَاْنْ نَنْشْوَىْ فَوْقْ مْحَاْوَرْ الْجَمْرْ

كِيْ جَيْرْ الْفُرْاْنْ هَذْاْ مَقْدُوْرْ أَكْتُيْبُهْ

---

[1]- مرجع نفسه، ص 132 .

[2]- مرجع نفسه، ص 137 .

يرسم الشاعر صورة حالته النفسية في نمط ووصف شعري واحد عن طريق التشبيه الممتد والمتواصل في جميع قصائده، فتعددت الصور والمشاهد الموظفة، حيث تصب في معنى واحد وهو التعبير عن العذاب الذي يعيشه لكي يستحق حب وليه وينال منه الحظوة، وهذه الرياضات والمجاهدات عرفت عند الصوفية، فهي بمثابة الامتحان الروحي والنفسي للمحب والمريد، عليه تحملها وتجاوزها بكل الأحوال والظروف .

وقد نجح بطبجي في توظيف التشبيه بصورته البسيطة، من أجل خدمة المعنى وإيصاله للمتلقي، لأنه اعتمد في تشبيهه على الإيجاز والتوضيح والإشارة البيانية الجمالية، بل استطاع أن يشخص حالته النفسية، مستنطقا البيئة ومنطلقاته وثقافته الدينية التي أعانته على حبك صورة التشبيه .

ويظهر بطبجي مخلصا لممدوحه، محبا له من خلال صورة الدمع الغزير الذي يذرفه بسبب هجرانه له، فهو مثل الطوفان الذي يأتي على كل شيء في طريقه، فالصورة البليغة جسدت المعنى وضخمته،وشكلت مشهدا مؤثرا في النفس،يقول بطبجي في موقف آخر:[1]

لَوْ عَلْمُوْاْ بيَاْ أَهْلْ الْهُوىْ لَوْ كَاْنْ أَتْبَدَلتْ كُنْيَتِيْ قَيْسْ الْثَانيْ منْ كَثْرَةْ مَاْ قْصَيْتْ منْ الْمْحَاْنْ الْعَشْقْ الْجْوَاْدْ

هَذَاْلِيْ عَشْرْ سْنِيْنْ بالْتْمَاْمْ أُنْتَبَعْ فِيْ مْرُوْ مَاْ آرْمَقْتُهْ بأْعْيَاْنيْ فِيْ كُلْ الْنْهَاْرْ وَ كُلْ لَيْلْ وَحْشُهْ لَيَاْ يَنْزَاْدْ

بَدَلْتْ هْنَاْءْ الْنَوْمْ بالْسهَرْ الْكُرُوْبْ اَصْغَىْ يَاْ مَنْ تُكُوْنْ كَيَّسْ سيْسَاْنيْ أَنَاْ الْمَحْرُوْجْ بلَيْعَةْ الْهُوَىْ فِيْ دْوَاْخَرْ الْعُضَاْدْ

فالشاعر يصف نفسه جريحة(أنا المجروح) بحرقة الهوى الذي يسكنها، فنغص عليه حياته وغير نومه أرقا، فراح يفكر ويتخيل طيف محبوبه عبد القادر الجيلاني، موظفا التشبيه البليغ لتصوير هذه الحالة الأليمة، ويقول : [2]

تَاْرَةْ نَجْبَرْ عَقْليْ صَاْحيْ نَتْرَنَمْ فِيْ الْنْظَاْمْ نَنْشَدْ غَوَاْنيْ فِيْ سْوَاْيَعْ الْصَحْوُ كُلْ سَاْعَةْ نَعْمَلْ ميْعَاْدْ

تَاْرَةْ مَثْلْ الْمَجْنُوْنْ نَنْسَكَنْ نَتْخَبَلْ لَوْنِيْ يْعُوْدْ مَثْلْ الْيَرْقَاْنيْ هَذَاْ حَاْلِيْ يَاْ عَاْشْقَيْنْ بَحْريْ مَاْ لَهُ تَحْدَاْدْ

---

[1]- مرجع نفسه ، ص 81 .

[2]-مرجع نفسه، ص 83 .

فالشاعر يعول كثيرا على الصور التشبيهية لوصف حالته للمتلقي، والتأثير فيه بسحرها وبلاغتها، ففي البيت الأول من المقطوعة السابقة نراه يوظف كعادته التشبيه البليغ لإظهار نفسه الأليمة، إذ يصور حاله مثل الواعي (الصاحي) سعيد بنفسه، يترنم في الإنشاد والمديح لوليه، وفي أوقات أخرى يكون مثل المجنون فيسكنه الهم والحزن، ويتخيل نفسه مثل اليرقة في الضعف والهوان، وهي صورة محسوسة معروفة عند القراء.

ونجده في موضع آخر يبني صورة مهيكلة من الصور التشبيهية البليغة، قصد رسم صورة كاملة مكونة من صور جزئية، هدفه من ورائها التأكيد على وصف هيئة وليه للناس وإعلائها في أذهانهم، صورة تتخطى الحدود وتخرق الآفاق، فقد أغدق بطبجي على صاحبه مجموعة من التشبيهات البليغة الساحرة، ومنها أنه الساقي ومنقذ الغارقين من بحار العذاب والمغيث والأنيس للغريب حيث يقول :[1]

أَنْتَ الْسَاقِيْ لجْمِيَعْ منْ أَتْوَلَىْ تَصْرَيْفْ الْمُلْكْ فِيْ الْعَجَمْ وَالْعُرْبَانِيْ الْمُسَمَىْ سُلْطَانْ الأَوْلِيَاءَ يَاْ نُوْرْ الأَثْمَادْ

أَنْتَ سَلاَّكْ ٱلْغَارْقِيْنْ منْ هَوْلْ الْبَحْرْ وَ آفَاْتْ الْقُلْتْ وَ الْوِيْدَانِيْ أَنْتَ سَلاَّكْ الْخَاْصْلِيْنْ بَيْنَ يَدَيْنْ الْجُحَادْ

أَنْتَ غَيَّاثْ الْشَّانْقِيْنْ دّبَّابْ التَّالِيْ بالْجْمّيْعْ فِيْ كُلْ أّوْطَّانِيْ أّنْتّ كّنْزْ الْمُحْتَاْجْ يَاْ ذْخِيْرَةْ مَنْ لاْ لَهُ زَادْ

أَنْتَ عَزْ الْمَضْيُوْمْ يَاْ وْنِيْسْ الْخَاْطَرْ يَاْ صَرْخَةْ الْكْفِيْفْ وَالْبَرَانِيْ أَنْتَ عَمَّاٍرْ الْدْيَارْ خَالْيَةْ بالْمَالْ وَ الَأوْلاَدْ

وبذلك استطاع الشاعر أن يحقق من الصور السابقة هدف التشبيه في توضيح أفكاره، والخروج من دائرة الغموض إلى الإشارة الخفية الجمالية، لما يتركه من أثر دلالي من جهة التركيب ومن جهة التأثير بالمتلقي، ومدى تعبيره عن موقف الشاعر من ذاته، ومن العالم الذي يعيش فيه من خلال الاهتمام بعنصري التشبيه، والتقائهما دون الأداة في تحقيق الإشارة الجمالية من المعنى المنتج .

وتكمن جمالية التشبيه الضمني فيما يوزعه الشاعر في نمطية قراءة البيت الشعري، فيضفي عليه حيزا من التفكير، وحرية تصوير الصورة، وحركيتها كما يشاء القارئ، وحسب ثقافته، كما يلمح بالمفاجأة التي ينتظرها من وراء الصورة، والألفاظ المبثوثة، فهي متكاملة ممتدة متماسكة تشكل هيكلا

[1]- مرجع نفسه، ص 83 .

بديعا وجميلا يسمى المعنى، الذي يهدف إليه الشاعر«نزوعا إلى الابتكار وإقامة الدليل على الحكم الذي أسنده إلى المشبه، ورغبته في إخفاء التشبيه، لأن التشبيه كلما خفي كان أبلغ وأفضل في النفس»[1] وهذا ما يؤكده الشاعر في قوله : [2]

يَاْ تَرْيَاْقْ الْعَلَلْ يَاْ طْبَيْبْ الْغْصَاْصيْ يَاْ غَوْثْ منْ أَبْقَىْ فيْ الْخْلاْءْ بلاْ جَيْشْ
عَلاْشْ يَاْ قُوْيْدَرْ مْحَرَمْ الْنْعَاْسيْ حَاْليْ بحَاْلْ قُمْريْ أَبْقَىْ بلاْ ريْشْ
طَاْلْ الْرْجَاْءْ عْليَاْ أَنْزَاْدْ تَحْمَاْسيْ الْمَاْءْ قْريْبْ وَ أنَاْ مْنَكَدْ عْطْيْشْ
منْ هَمْ ليْعَةْ جْفَاْكْ كَثْرَتْ اَعْلاْليْ لَوْ صُبْتْ يَاْ الْوَليْ منْ دْوَاْكْ شَرْبَةْ
تَطْفَىْ منْ دَوَاْخَرْ الْلَّهيْبْ مَشْعَاْليْ ضُريْ صْعَيْبْ مَاْ عَاْلجُوْهْ طْلْبَةْ

الشاعر يشبه روحه المحرومة من النعاس، المرهقة من التعب والوجد، مثل الحمام العاري من الريش لا يستطيع التحليق ففقد لذة العيش، ويشبه شوقه لوليه، بالعطشان الذي يرى الماء قريبا منه لكنه لا يصل إليه، ويزداد ظمأه .

إن الشاعر يسعى دوما لخلق فضاء شعري يرتقي به إلى مصاف النشوة واللذة، التي تجعله يعيش حالات التخيل الإبداعي، ويحاول جاهدا عبر سلسلة من الألفاظ والصور الشعرية والمعاني إيصال القارئ إلى تلك النشوة، من خلال الأدوات البلاغية التي تكشف المعنى، وذلك هو المقصد الشريف وهو من المقومات البلاغة.

ج–التصوير الكنائي :

تعتمد الكناية على معنيين؛ المعنى الأول القريب المحسوس المفهوم من ظاهر اللفظ وغالبا لا يقصده المبدع، وإنما وضع للدلالة والإشارة إلى المعنى الثاني وهو البعيد ويفهم بالذكاء عن طريق القرائن المختلفة وغالبا ما يكون المقصود، وسنحاول كشف الصور الكنائية في الديوان بناء على ما تقدم لمفهوم الكناية، ويظهر ذلك في موضوع المدح والتغني بجماليات المحبوب، حيث يقول بطبجي: [3]

أَنْشُوْفْ وَجْهَكْ حَاْليْ يَزْيَاْنْ يَاْ الْسُلْطَاْنْ يَسْتْقَاْمْ الْدْلْيْلْيْ ثُمَ الْحَشَاْ وَ بَدْنيْ
طَبْ ضَريْ الْرَمْقْ بْالأَعْيَاْنْ يَاْ الْسُلْطَاْنْ فيْ بْهَاْكْ الْفَاْيْقْ عَنْ سَاْيَرْ الْمْزَاْنيْ

---

[1]– علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص 46 .

[2]– عبد القادر بطبجي، الديوان ، ص 98 .

[3]– مرجع نفسه، ص 57 .

يحدثنا بطبجي عن صفات محبوبه الولي الصالح، فيكني عن جماله الذي لا يوصف، وفرحته به عند رويته (حالي يزيان) و(سقام دليلي)ولا يكتفي بذلك بل يوظف الكناية في التأكيد على جماله (الرمق بالأعيان)(بهاك الفايق) فلهذه التعابير معنيان؛ معنى قريب هو الملحوظ والمدرك، ومعنى بعيد وهو المخفي المكني عنه بالظاهر، وهو جمال الشيخ في إعانته للناس ونجدة المستغيثين به وغيرها من الأعمال الخيرية التي يقوم بها، والتي زينت سيرته، ثم يعرض الشاعر صفات شيخه ومآثره الصالحة، فيقول : [1]

سَلاَّكْ كَامْنْ يْسيْرْ مَنْ بَرْ الْكُفَاْرْ عْلَىْ رُؤْوسْ الأَشْهَاْدْ عُدْتْ أَخْبَاْرُهْ

وَ أَظْهَرْ سُرُهْ فِيْ كُلْ جيْهَ الْيَمنْ وَ يَسَاْرْ عَزُهْ رَبْ الْعْبَاْدْ عَلاَ نَقْدَاْرُهْ

سَلاَّكْ الْغَاْرْقِيْنْ منْ بَحْرْ الْزْخَاْرْ يَنْبُوْعْ الْجُوْدْ مَاْ يَخَيْب مَنْ زَاْرُهْ

فقد وظف بطبجي الصورة الكنائية لتجسيد المعنى وتقريبه للمتلقي، حتى يستوعب ويعي الصورة كاملة؛ إذ كنى عن الناس الذين شهدوا أعمال الولي الخيرية ولمسوها "برؤوس الأشهاد"، وكنى عن علمه الراسخ وهدايته التي أودعها الله فيه وفي روحه الطيبة ونفسه الخيرة (أظهر سره)، كما كنى عن معاملته الطيبة وصفاته الحسية بينبوع الجود .

والمتأمل في الصور الكنائية عند بطبجي يجدها صورا وصفية مشخصة دائما للولي الممدوح، تمتاز بالبساطة والجزئية، إذ يحتاج إلى استكمالها في رسم الصورة الكلية، كما يكنى في موضع آخر عن قدر الولي عند الناس في كل مكان (أصل الرياسة) أي أن أهله وأسرته من السلاطين المطاعة، وهو يصلح أيضا لتوليها وحكمها بل سيد كل الملوك مهما كانوا وأينما وجدوا، كما يكنى عن علمه العزيز والواسع بالبحر الذي ماله قياس(بحر ماله قياس)، ويكني عن رغبته في لقائه (طالب جلسة معاه)، وهذه المعاني البعيدة التي تهدف إليها الكناية، وأما القريبة فهي الموجودة في ظاهر اللفظ : [2]

سَيّدْ أَحْمَدْ بُوعَبْسِىْ مْطَوْعْ الْلّيْ اقْسَىْ

سَيّدْ أَهْلْ الْرْيَاْسَةْ بَحْرْ مَاْلَهْ قْيَاسْ

فِيْ حَضْرَة بُمُوْسَىْ بْثُوْبْ سْتَرْ انْكْسَى

نَاْلْ الْعَزّ وْطِيْسَةْ اَمْلاْ مِنْ الْسّرْ كَاسْ

لَعَلِيْ طَاْلَبْ جَلْسَةْ مْعَاهْ بَدْرْ الْمْسَاءْ

---

[1]- مرجع نفسه، ص 186 .

[2]- مرجع نفسه، ص 195 .

كما وظف بطبجي في ديوانه الكناية عن موصوف[1]، من خلال حديثه عن الخمر"المدام" الصوفية وما تفعله في المحبين، وما ترسمه من صور العشق والغرام الأبدي الصافي، حيث يقول : [2]

يَاْ إمَامْ أَهْلْ الْخَطْرَةْ يَاْ مْرَاْحَةْ كُلْ غْرِيْبْ
الْهَوَى وَ الْشَوْقْ اَقْوَىْ يْشَاْعْرُكْ يَاْ عُرْفْ الْطَيْبْ
عُدْتْ رَاْنِيْ نُتْكْوَىْ وَ لاْ اَنْفَعْنِيْ قَطْ طْبِيْبْ
طَاْلَبْ اَلْقَاْكْ فِيْ سَلْوَىْ وَ لاْ يْكُوْنْ اَجْلِيْسْ الْرْقِيْبْ
مَنْ مُدَاْمُكْ نَمْلاَ كِيْسَانْ يَاْ الْسُلْطَانْ يَتْحَيَاْوْا أَغْصَاْنِيْ تَمْاْ تَقَرْ عَيْنِيْ

إن بطبجي يناجي حبيبه في خلواته، ويترقب زيارته، فالشوق قد استبد بنفسه، ولم يجد له دواء إلا اللقاء والأنس والشرب من مدامه، فيملأ الكؤوس ويرتوي منها، وتسري في جسده فتحييه، وتنقله إلى عالم الجمال والأمان والحب الذي يناشده، وهي علامة القبول والرضى، ويشير الشاعر إلى حالة السكر ومداعبة الجمال لسر المحبوب في حضرة مشاهدته، وعندئذ تدهش الذات، وتهيم بسكر نور العقول المميز بين الأشياء، محسوسها ومعقولها، وهذه الحال تسمى سكرا، ويجمع أغلب الدارسين أن الصوفية يذكرون الخمرة بأوصافها، ويريدون بها ما أدار الله على ألبابهم من المعرفة « والمحبة والحبيب في عبارة ابن الفارض هي حضرة الرسول ρ، أو ذات الخالق ...»[3] .

وشاعرنا يتغزل بحبيبه بواسطة ذكر الخمر وصفاتها وألوانها ومذاقها وما تفعله في الصوفي، ويتمنى أن يذوقها لينعم بها، فيقول : [4]

سَيْدِيْ شْهَيْرْ سُلْطَاْنْ فِيْ كُلْ بَرْ مَشْهُوْر
بَحْرُهْ لُكُلْ عَطْشَاْنْ بَيْنْ الأَسْيَادْ مَذْكُوْرْ
بَحْرُهْ شْهَيْرْ مَاْلْهْ سَاْحَلْ لاْحَدْ وَيَنْ يَاْسَعْدْ مَنْ خَدْمَه بالْنَيَةْ
يَرْوِيْ منْ الْخَمْرْ الْصَافِيْ طَيْبْ آبْنِيْنْ خَمْرُةْ صَاْفَيْةْ بَاْهِيَةْ
بَحْرُهْ الْصَاْفِيْ الأَعْذَبْ يَاْ مَنْ دَرَىْ يْكُونْ نَصَيْبِيْ
وَ يَهَيْبْ لِيْ بْجُوْدَهْ نَشْرَبْ يَبْرَاْ مَنْ الْمْحَايْنْ قَلْبِيْ

---

[1]–وهي التي لا يراد بها صفة لا نسبة بل موصوف (ينظر : حفني شرف، الصور البيانية، ص 223).

[2]– عبد القادر بطبجي، الديوان، ص 57 .

[3]–عاطف جودت نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 1983، ص 36–37 .

[4]– عبد القادر بطبجي، الديوان، ص 124 .

يشيد بطبجي في هذه الأبيات بقوة وشهرة شيخه، فالناس تحبه وتعشق نور جماله، فبحره سقى كل عطشان من المحبين المقربين المريدين لطريقته خمرا، تتميز بالصفاء والنقاء والعذوبة، فتغري بمنظرها الشاربين، كما تتصف باللذة والمذاق الأبدي، ونجد شاعرنا كني عن الخمرة بالبحر فيصفه بالصفات نفسها، ويتمنى كمريد أن يشرب منه، ويرجو من حبيبه أن يسقيه بيده الطاهرة، ويكون اللقاء الذي طالما انتظره وتغنى به .

وسمة قصائد بطبجي هي المزج بين الدعوة إلى التصوف، وبين وصف الخمرة الإلهية، وبين وصف جمال شيخه، والتغني بشمائله، والإفصاح عن المعاناة من حبه وعشقه، وهذا ما جعلنا لا نعثر على قصائد منفردة في الخمر وأوصافها وعملها في المريد .

ويستمر شاعرنا في التغزل بجماله حبيبه بواسطة جلسات الشرب، وإحياء ليالي اللقاء والأنس، فيقول [1] :

لِيْـهْ انْصَبَحْ وَ ْ نمَسـيْ

يَمْلاْلِيْ منْ بَحْرُهْ إمَامْ الأَقْطَابْ كَاْسْ يَنْفِيْ عَنِيْ الْـوَسْوَاْسـيْ

وَ يَشْبَبْ ديْنَاْرْ الْثُقَّاْتْ بَعْدْ الْنْحَاْسْ حُبُكْ حَرَمْ اَنْعَـاْسـيْ

يْرْوِيْنـيْ منْ كَـاْسُهْ طَيْبْ منْ جَـاْلُسُـهْ

نَقْتَبَسْ منْ شَمْسُهْ هَمَامْ جُـمْـعْ الْشُمُوْسْ

مَاْ نَقْطَعْشيْ اَلْيَاْسَهْ جُوَرْاْرْحيْ سُوسُوْا

دَاْيَمْ غَيْرْ أَيْهَـسُوْا عْلَيَا لَيْـثْ الْعُبُـوْسْ

لَعْرَجْ رَبـيْ خَـصُهْ عَلَىْ الْمَلَةْ ريَّسّهْ

فَيْضْ وَ آمْلاَ كَـاْسُهْ آسْقَىْ جُمَيْـعْ الْجُلُوْسْ

لا تفارق صورة ملأ الكؤوس قصائد بطبجي وأبياته الغزلية فهي صورة متكررة، وكأنه تأكيد لرمز صوفي وهو التغني بطقوس جلسة شرب الخمر، فيتطلب منه أن يملأها ويفيضها لري الشاربين والعطشى من المريدين والمحبين للشيخ، ويظهر في قوله:[2]

شَرَبْنِيْ كَاْسْ منْ الْرْفَيعْ امْدَاُمكْ صَاْفِيْ زُلاْلْ يْبَرَدْ غْلَيلْ خَ ْاطرْيْ بَعْدْ اسَ ْقَاْمُهْ يَنْشْـرَاْحْ

دَاْوِيْنِيْ يَاْ مْرَاْحْ بَصْرِيْ نَبْرَاْ منْ ذَاْ الْعْلاْلْ يَاْ لَعْرَجْ لَيْكْ طَاْرْ عَقْلِيْ رَفْرَفْ بْلاْ جْنَاْحْ

[1]- مرجع نفسه، ص 135 .

[2]- مرجع نفسه، ص 136 .

عَنْدَكْ تَحْقِيْقْ طَبْ دَاْبَة آهْ يَاْ سَيْدْ الأَبْطَاْلْ وَ اَنْجَلَتْ عَلَىْ الْوُصَيْفْ ظَنِيْ كَفُكْ فَيْاَ شَحَاْحْ

ويذهب بطبجي أن السلوان والراحة والأمان مرهون بالشرب من مدام الأولياء، لأنها مباركة، ولا تضاهيها خمرة أخرى في حياتنا الدنيوية، فيقول : [1]

مَاْ أَشْفَىْ سَلْوَىْ مَنْ لاْ خَاطْبُوْهْ بِاْلْسَاْنْ مَاْ اَسْتَنْشَقْ مَسْكْ وَ لاْ عَدْبُهْ أَهْوَاْهُمْ

كَيْفْ يَسْلىْ مَنْ لاْ شَرْبَةْ كَيْسَاْنْ كَيْفْ يَهْنَىْ مَنْ لاْ لَهْ زَاْدْ مَنْ أَدْعَاْهُمْ

ويرى شاعرنا أن خمرة حبيبه باستطاعتها إطفاء نيران حبه، فتزول همومه وتنقضي أحزانه، ويستعيد سعادته التي غابت جراء محبته الدائمة، فيقول : [2]

طَاْلَبْ آنْشُوْفُكْ يَاْ الأَمْجَدْ يَاْ الْفَحْلْ الأَقْطَاْبْ الْوَاْكَدْ

منْ مُدَاْمَكْ بَاغِيْ نُوْرُدْ آيْزُوْلْ تَسْهَاْدُهْ

لاَ غَنَىْ نِيْرَاْنِيْ تَهْمَدْ مَنْ آدْعَاْكْ بَغَيْتْ انْزَوْدْ

لا يخرج بطبجي عن المعاني التي وظفها، والصور التي وضحها في حديثه عن الخمر، معبرا بواسطتها عن محبته الدائمة لمحبوبه الجيلاني، في صورة غزلية عفيفة، من خلال الشوق لخمرته التي يرى فيها الترياق للمريدين، حيث يقول : [3]

يَعْطَفْ عَنِيْ نَبْرَاْ مَنْ جَمِيْعْ الْضْرَاْرْ

لأَنِيْ شَاْرَبْ خَمْرَةْ كَيُوْسْ مَدْخَرَةْ

عَاْشَقْ رَاْعِيْ الْخَمْرَةْ سَنِيْنْ ذَاْلِيْ جْهَاْرْ

إن ديوان بطبجي مشبع بالغزل الصوفي، الذي قصد من ورائه التغني بفضائل وخصال وأخلاق وجمال شيخه عبد القادر الجيلاني، وقد مر بنا الحديث عن هذه الصفات في ثنايا المدح الذي خصصه الشاعر له، حيث شغل حيزا كبيرا من مساحات الديوان، و يظهر ذلك في يقول : [4]

بَرَمْ يَاْ كَاْمَلْ الْخْصَاْيَلْ بِيَاْ ذَاْ الْوَحْشْ طَاْلْ للهْ عَلَيْكْ يَاْ قُوْيْدَرْ دَاْوِيْنِيْ نَسْتَرَاْحْ

اَعْدَمْ جَسْدِيْ هْوَاْكْ وَ اَسْكَنْ قَلْبِيْ لَوْنِيْ دْبَاْلْ منْ كَثْرَةْ مَاْجَيْتَنِيْ نَقْضُوْا فِيْ جَسْدِيْ أَجْرَاْحْ

أَنَاْ دَاْيْمْ أَنْسَاْلْ وَ أَنْتَ فِيْ وَعْدِيْ مَاْ تْسَاْلْ إِنَاْ باللهْ وَ بِيْكْ دَاْوِيْنِيْ يَاْ نُوْرْ اللَّمَاْحْ

---

[1]- مرجع نفسه، ص 168 .

[2]- مرجع نفسه، ص 174 .

[3]- مرجع نفسه، ص 198 .

[4]- مرجع نفسه، ص 151 .

أَنْتَ الْزَّادْ وَ نُورْ بَصْرِيْ وَ أَنْتَ لْلْخَيْرْ فَالْ أَنْتَ زَهْوِيْ وَ فَخْرْ لْسَنِيْ يَاْ قَصَاتْ الْزَبَّاْحْ

فالشاعر يتحدث عن غرام من نوع آخر لا يساويه حب بشري، فعشقه صوفي يهدف من ورائه الفوز برضى الله، وبذلك يعبر عن شرعية حب الأولياء، وإحراز الأجر العظيم .

و يظهر بطبجي حبه العميق لشيخه، ويشكو أيضا ألم الغرام، فيقول : [1]

وَ الْسَهُوْ أَفْنَىْ جْوَاْرْحِيْ وَ دْلِيْلِيْ مَضَاْهْ حُبَكْ فَيَّاْ يَسْرِيْ

صَاْلْ غْرَاْمُكْ وَ آنْزَاْدْ هَيَّجْ رَيْحَكْ وَ ارْبَاْلِيْ

وَ لاْ صُبْتْ طْبِيْبْ يَطَبْ عَلْتِيْ وَ اَسْقَاْمِيْ بْحْصَاْهْ مَاْ شَفَكَشِيْ هَجْرِيْ

يَاْ صَرْخَةْ كُلْ الْبْلاْدْ جُوْدْ عَلَيَّاْ وَ أَصْغَاْلِيْ

طَبْ بْجُوْدَكْ جَسْدَيْ مَنْ الْضَنَىْ فِيْ سْبِيْلْ اللهْ دَاْوِيْنِيْ منْ ضُرِيْ

ويطمع بطبجي من وراء الوصال بعث الحياة وازدهار جسده ولونه، فتدفأ روحه، فالشاعر رومانسي إلى أقصى درجة، حيث يقول : [2]

كَاْنْ اَعْطَفْ لِيْ يْرِيحْ الْخَاْطَرْ منْ كَيْدْ الأَلاْمْ لَعْرَجْ خَضْرْ الْعْلامْ يَرْتَاْحْ الْقَلْبْ منْ هْوَاْلَهْ ذَاْلَهْ مُدَةْ عْطَيْبْ

نَدْفَاْ باْلْوُصَاْلْ يَحْيَاْوْ أَغْصَاْنِيْ بَعْدْ الْعْدَاْمْ لَعْرَجْ خَضْرْ الْعْلامْ نَسْتَنْشَقْ رِيْحُتَهْ الْعَطِيْرَةْ فَاْقَتْ عَنْ كُلْ طْبِيْبْ

نُنْظُرْ مَحْبُوْبْ خَاْطْرِيْ فِيْهْ نُحَقَقْ باْلْنِيَاْمْ لَعْرَجْ خَضْرْ الْعْلامْ منْ وُدْ وَ إحْسَاْنْ وُلْدْ خَيْرَةْ يَسْهَاْلْ الْلِيْ صْعَيْبْ

يَعْطِيْنِيْ عَاْهَدْ الْوَفَاْءْ وَ نْشُوْفْ اسْمِيْ فِيْ الْزَمَاْمْ لَعْرَجْ خَضْرْ الْعْلامْ يَكْتَبْنِيْ عَبْدْ منْ عْبَيْدُهْ مَعْتُوْقْ بغَيِرْ رَيْبْ

وَ يْبَشَرْنِيْ بحَاْجَتِيْ يَقْضِيْهَاْ رَمْشْ الْنَيْامْ لَعْرَجْ خَضْرْ الْعْلامْ وَ جْمِيْعْ الْلَيْ طَلْبَتَهَاْ عَنْدُهْ نَقُصُدْهَاْ آنْجِيْبْ

هَذْا ظَنِيْ فِيْ فَاْرَسْ الْخَصْلَةْ الْغَوْثْ الْهُمَاْمْ لَعْرَجْ خَضْرْ الْعْلامْ بمُوْسَىْ فَاْرسْ الْمْشَاْلِيْ مُوْلْ الْبَحْرْ الْعَدَيْبْ

---

[1]- مرجع نفسه، ص 166 .

[2]- مرجع نفسه، ص 147 .

ويصف في قصيدة أخرى الحب الصوفي، الذي غاص وتوطن وسكن جسده، موظفا حروفا هامسة تنبئ عن السكون والحزن المطبق على حالته، خاصة دلالة حرف السين وحرف الحاء، حيث يعبران عن الألم والتوجع :[1]

حُبُكْ فِيْ جَسْدِيْ غَاْسْ حَرَثْ أَرْمَىْ الْفَاْسْ
مَرَسْ جَسْدِيْ تَمْرَاْسْ جْوَاْرْحِيْ سْوَّسُوْاْ
مَاْ لْلْهْوَىْ تَأْسَاْسْ سَجْنْ مَاْلُهْ خْلاْصْ
مَغْلُوْقْ بْلاْ عَسْاْسْ وَيْحْ مَنْ يَحْرْسُوْا
لاْ سيِّمَاْ يَاْ جُلاْسْ حُبْ سَيَّدْ الأَجْرَاْسْ

ابن مرزوق الحفيد ومنهجه

في كتابه المتجر الربيح في شرح الجامع الصحيح للبخاري

د.حفيظة بلميهوب

أستاذة محاضرة بكلية العلوم الإسلامية

جامعة الجزائر1

الحمد لله عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته والصلاة والسلام على أفضل الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وسار على هديه صحابته رضوان الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فهذا بحث متواضـــع نحاول فيه التعريف بالإمام ابن مرزوق الحفيد، أحد أعلام الجزائر البارزين في القرن التاســـع الهجري، الرابع عشـــر الميلادي، وذلك بالتعرف على حياته الذاتية والعلمية ،وأهم

[1]- مرجع نفسه، ص 134 .

مؤلفاته، مركزين على منهجه في كتابه " **المتجر الربيح والمســـعى الرجيح والمرحب الفســـيح والوجه الصبيح والخلق السميح في شرح الجامع الصحيح**"[1]

" هذا الكتاب الذي يمثل مساهمة المغرب في شرح صحيح البخاري، واهتمامهم بالأصول، ويرد على أولئك الذين زعموا أن علماء المغرب اهتموا فقط بالفروع.

تمهيد: لقد شهد المغرب ازدهارا علميا خلال القرن السابع والتاسع الهجريين، الثالث، والرابع عشر الميلادي، رغم تدهور الأوضاع السياسية، فكانت تلمسان من أعظم أمصار المغرب التي ضاهت أمصار الدول الإسلامية كما قال ابن خلدون، نبغ فيها كثير من العلماء وعلى رأسهم ابن مرزوق الحفيد صاحب المتجر الربيح، موضوع بحثنا هذا.

ومما زاد في تعزيز الحياة الفكرية وازدهارها، وانتشار العلماء، وكثرتهم،اهتمام الأمراء بإنشاء المساجد، والمدارس التي كانت خير دليل على الازدهار العلمي آنذاك.

مثل مسجد تلمسان الكبير، وجامع أغادير الأعظم بتلمسان [2]، والمسجد العظيم الذي شيده السلطان أبو الحسن بالعباد، جاء في العبر:وقد شيَّد بالعباد مسجد عظيم كان عم محمد ابن مرزوق خطيبا به[3]، ويقصد بالعم عم ابن مرزوق الجد.

بالإضافة إلى إنشاء عدة مدارس كبرى، كانت منارات علمية، تخرج منها الكثير من العلماء، وكانت لهذه المدارس والمساجد أوقاف عظيمة تصرف عن الفقهاء والمدرسين والطلبة.

كما أنشأ الأمراء المشتغلون بالعلم الزوايا، ودور العلم، نذكر منها زاوية أبي عبد الله بن محمد التميمي(تـــ756) حفيد الفقيه القاضي المبارك أبي عبد الله محمد بن أبي عمرو التميمي الذي من أجل كتبه ترتيب كتاب اللخمي على المدونة، وأنشأ زاوية بتلمسان كائنة بطريق العباد، كانت مركزا علميا تعلم فيه وتخرج منه الكثير.

([1]) كذا ورد العنوان كاملا في مقدمة المتجر الربيح لابن مرزوق الحفيد، الجزء الأول وقد ذكره صاحب فهرست معلمة التراث الجزائري بشير ضيف: 82/2 إلا أنه أخطأ في عنوانه وفي نسبة "شرح الشفا" إلى ابن مرزوق الحفيد؛ والصحيح أنه لجدّه ، وكان الحفيد ابن مرزوق قد اطلع على نسخة "الشفا" لجدِّه وبخطه بالقاهرة، أطلعه عليها الحافظ ابن حجر عندما زاره في رحلته (ر: الدرر الكامنة: ابن حجر 362/3).

[2] : تاريخ المغرب: مؤنس: 147/2.

[3] :تاريخ ابن خلدون: 473/7.

كان لعلماء الأندلس النازحين أثر كبير في مزج الثقافة المغربية بالثقافة الأندلسية وأصبح المسجد الجامع بتلمسان، و الجامع الأعظم بأجادير لا يقلان أهمية عن جامع القرويين والزيتونة[1] ، كل ذلك جعل من هذا العصر عصر ازدهار علمي، حفل بطائفة من مشاهير العلماء في الفقه والحديث واللّغة، وكانت تلمسان آنذاك موطن العلماء وكعبة طلاب العلم، لم يؤثر فيها الاضطراب السياسي وانتشار الفتن، قال"البكري[2] "... دائما بلد علم وعلماء ومركز سنة وجماعة، وبنو زيان كانوا من رعاة العلوم حيث قربوا العلماء والأدباء والفقهاء.

وقد وصف تلمسان أبو الحسن القلصادي الأندلسي -في رحلته (سنة 840 هـ) عندما قصدها في طلب العلم وهي تعيش أزهى أيام حياتها الثقافية- فقال:".. المقصودة بالذات المخصوصة بأكمل الصفات :تلمسان، .... و أدركت فيها الكثير من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة والهمم إلى تحصيله مشرفة وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان،و أولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق..."[3]

المبحث الأول:التعريف بابن مرزوق الحفيد(سيرته الذاتية والعلمية)

المطلب الأول: سيرته الذاتية:

[1] : بغية الرواد: يحي بن خلدون: 92، تاريخ المغرب: حسين مؤنس: 147/2.

[2] : البكري هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ت1094م، له كتاب صفة إفريقية والمغرب، قطعه من كتاب المسالك والممالك.

[3] :رحلة القلصادي: دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان: 94 ط2 78/7/14 تحت عدد:5078.

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد[1] العجيســـي[2] التلمساني أبو عبد الله واشتهر بالحفيد، تمييزا له عن غيره من علماء المرازقة [3].

ويقصد بالحفيد، حفيد ابن مرزوق الجد المشهور بالخطيب شمس الدين المتوفى سنة:781هـ.

ولد ليلة الاثنين رابع عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة للهجرة (766هـ)الموافق للعاشر من ديسمبر عام 1364م بتلمسان.

قال ابن حجر في المعجم المؤســـس:"...و ذكر ابن مرزوق بخطه أن مولده في ربيع الأول سنة ست وستين"[4]. وقال ابن غازي: ولد ابن مرزوق الحفيد بتلمسـان المحروسة سنة ست وستين وسبع مائة، وتوفي جده بالقاهرة سنة إحدى وثمانين وسبع مائة، قاله ابن خلدون أيضا[5].

واهتم ابن مرزوق الحفيد بالرحلة في طلب العلم، رحل من تلمســان إلى قســنطينة حيث تعلم وعلم، ومنها إلى مختلف البلاد شرقا وغربا حتى وصف بالرحالة.

وصفه التنبكتي بـ"الرحلة الحاج[6] "شرق وغرب، ورحل إلى تونس فأقام بها عالما ومتعلما.

قال الثعالبي: "... وقدم علينا بتونس شــيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها وأخذت عنه كثيرا وسمعت جميع الموطأ بقراءة صـاحبنا أبي حفص عمر ابن شـيخنا محمد القلشـاني وختمت عليه أربعينيات النووي قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم ، وكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع ثم أخذ بالبكاء فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب رحمه الله..." [7]

---

[1]: رحلة القلصادي: 96، الضوء اللامع: السخاوي:.50/7، نيل الابتهاج:499، كفاية المحتاج: التنبكتي:391.تعريف الخلف:128/1، الأعلام: الزركلي:5/ 331 ط12، دار العلم للملايين بيروت) أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: يحي بوعزيز: 2: 56. البستان: 201، تاريخ الأدب العربي: د/عمر فروخ:634/6-640، المعجم المؤسس (ملحق):ابن حجر:514، نفح الطيب:420/5.

[2] : لقد لقب ابن مرزوق بالعجيسي لأن أسرته كانت تنتسب إلى العجيسة وهي قبيلة بربرية من زناتة معروف مكانها منها .ر: المجموع لابن مرزوق:1 (المخطوط).

[3] : لقد حفلت عائلة المرازقة بكثير من العلماء الفطاحل لهذا اشتهر كل منهم حسب وجوده في الأسرة : الجد والحفيد وحفيد الحفيد وذلك تسهيلا في التفرقة بينهم .

[4] : المعجم المؤسس: ابن حجر: 514 (الملحق).

[5] : انظر فهرس ابن غازي: 187، تاريخ ابن خلدون:475/7.

[6] نيل الابتهاج للتنبكتي 305 ونفح الطيب للمقري 420/5 .

[7] نيل الابتهاج التنبكتي 308 ، البستان 206 ، النفح 425/5 .

والتقى ابن مرزوق الحفيد بالإمام ابن عرفة وحضر مجالسه كما حكى ذلك في بعض فتاويه[1] كما التقى بأبي العباس القصار، وبعدها رحل إلى فاس فأخذ بها عن الشيخ أبي زيد المكودي وابن حياتي والحافظ محمد ابن مسعود الصنهاجي الفيلالي ثم رحل إلى المشرق فدخل مصر وحط رحاله بالقاهرة حيث أخذ عمن لقي بها من جلة العلماء[2].

ورحل إلى مكة حاجا (سنة 790هـ/ 1388م) رفقة ابن عرفة فلقي بها جمعا من العلماء، من بينهم ابن صديق الذي روى عنه صحيح البخاري، وحج ثانية (عام 819هـ /1416م) والتقى بعلماء أجلاء، أخذ عنهم.

قال ابن حجر ضمن ترجمته لجده شمس الدين(المتوفى سنة 781هـ): "و قدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفاء بخط جده فاتحفته به وسر به سرورا كثيرا ونعم الرجل هو معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط والخلق والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدَّث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى"[3]، وأضاف ابن حجر قوله في المجمع المؤسس:"....**سمع مني وسمعت منه...**" [4].

و بعد حياة حافلة بالعلم والعمل والترحال مات ابن مرزوق في عشية الخميس رابع عشر من شعبان سنة اثنين وأربعين وثمانمائة(تـ 842هـ/ 1439م) عن عمر يناهز الست والسبعين سنة بتلمسان، وهذا بإجماع العلماء الذين ترجموا له.

المطلب الثاني: سيرة ابن مرزوق الحفيد العلمية

الفرع الأول:رحلاته العلمية

اهتم ابن مرزوق الحفيد بالرحلة في طلب العلم، فرحل إلى الأمصار بعد أن أخذ العلم عن علماء بلده كإبراهيم المصمودي والشريف التلمساني بتلمسان ، وابن قنفذ القسنطيني بقسنطينة.

ذكر القلصادي في رحلته أن ابن مرزوق الحفيد رحل رحلتين إلى الحج، الأولى كانت سنة ثنتين وتسعين وسبعمائة(792هـ)، التقى فيها بالإمام ابن عرفة بتونس وحضر مجالسه، ثم حجّ رفقته

---

[1] -نيل الابتهاج /312 ، نفح الطيب 431/5 .

[2] -تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن جيلالي 210/2، 211 .

[3] : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.

[4] : المجمع المؤسس: 514 (ملحق)، البستان:ابن مريم:209.

فلقي جمعا من العلماء من بينهم ابن صديق الذي روى عنه صحيح البخاري ، وابن الملقن والهيثمي، والنور النويري والدماميني وغيرهم.

والرحلة الثانية كانت عام (819هـ/1416م) التقى بعلماء أخذ عنهم وأخذوا عنه. وأجاز في هذه الرحلة عبد الرحمن الثعالبي واستجاز كل من لقي، وجلهم أو كلهم في طبقته منهم: ولي الدين العراقي وابن حجر وبدر الدين العيني، والبرزلي، وغيرهم.

قال ابن حجر ضمن ترجمته لابن مرزوق الجد- شمس الدين -(ت 781هـ): "و قدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفا بخط جده فأتحفته وسرّ به سرورا كثيرا ،ونعم الرجل هو معرفة بالعربية والفنون، وحسن الخط والخلق والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى[1]"، و قال أيضا في المجمع المؤسس:"..**سمع مني وسمعت منه...**" [2].

الفرع الثاني:شيوخ ابن مرزوق الحفيد، أقرانه، وتلاميذه:

من شيوخه:أخذ ابن مرزوق الحفيد العلم على يد علماء أجلاء نذكر منهم:

-ابن مرزوق الجد: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني، اشتهر بالخطيب والجد والرئيس، ولد بتلمسان) سنة 710هـ/1310) [3].

ومن شيوخه أيضا: سعيد العقباني(ت 811هـ)[4] وابراهيم المصمودي، والشريف التلمساني (ت792هـ) كما ذكر ذلك بن مرزوق الحفيد،و عبد الرحمن ابن خلدون، وابن عرفة الورغمي التونسي، والفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط (ت 817 هـ)[5] والحافظ العراقي.

ومن أقرانه، أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت847هـ)ـ وقاسم العقباني، والحافظ ابن حجر العسقلاني،الذي التقى به ابن مرزوق فسمعا من بعضهما، ومن بين ما شهد به ابن حجر لابن مرزوق قوله في معرض كلامه عن جده الخطيب:" وقدم علينا حفيده محمد بن أحمد بن أبي عبد الله

---

[1] : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.

[2] : المجمع المؤسس: 514 (ملحق)، البستان:ابن مريم:209.

[3] :قال ابن خلدون: ومولده فيما اخبرني سنة:ستة عشرة وسبعمائة: العبر: 472/7.

([4]): نيل الابتهاج : 125 ،كفاية المحتاج:138، البستان لابن مريم : 107 ، شجرة النور الزكية لابن مخلوف:250/1 ، لقط الفرائد: ابن القاضي: 236، تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي : 161/2، الأعلام للزركلي: 101/3، بغية الرواد، يحي بن خلدون:123.

[5] : نيل الابتهاج : 309 ،كفاية المحتاج: التنبكتي:396/ط1-2002/1422 دار ابن حزم.

بن مرزوق القاهرة وحج بعد العشرين وكان قد وقع لي شرح الشفاء بخط جده فأتحفته به، وسر به سرورا كثيرا، ونعم الرجل معرفة بالعربية والفنون وحسن الخط والخلق والوقار والمعرفة والأدب التام ورجع إلى بلاده بعد أن حدث وشغل وظهرت فضائله حفظه الله تعالى"[1] ومن أقرانه أيضا أبو يحي بن عقيبة القفصي[2]،والقلشاني[3].

ومن تلاميذ ابن مرزوق التلمساني الحفيد، نخصُّ بالذكر منهم :

-ابنه ابن مرزوق الذي يعرف بالكفيف (824-901 هـ).

- أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي من كبار علماء الجزائر.

-المجاري أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري[4](تـ862هـ) من آثاره : البرنامج الذي ذكر فيه رحلاته وشيوخه.

-القلصادي: أبو الحسن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي ، الفقيه المتفنن الأستاذ الراوية الرحال آخر من ألف التآليف العديدة من أهل الأندلس (تـ891هـ) بباجة[5] .

مآثر ابن مرزوق الحفيد وأقوال العلماء وثناؤهم عليه :

فمن مآثره:شهادة أبي الحسن القلصادي في رحلته عندما ذكر فضل تلمسان وأعلامها، حيث قدم ذكر الحفيد ابن مرزوق في قوله: "... وأولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا: سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي رضي الله عنه كنف العلم والعلماء وجل قدره في الجلة الفضلاء ، قطع الليالي ساهرا وقطف من العلم أزهارا فأثمر وأورق وغرب وشرق حتى توغل في فنون العلم واستغرق إلى أن طلع إلى الأبصار هلالا لأن المغرب مطلعه ،وسما في النفوس موضعه وموقعه و لله در القائل:

ألا إن أرض الغرب أفضل موطن تساق إليه الواخدات[6] النجائب [7]

---

[1] : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر: 3: 360-362.

[2] : ترجمته نيل الابتهاج: 206.

[3] : هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله الباجي(من ناحية تونس لا باجة الأندلس) التونسي، عرف بالقلشاني، الفقيه الصالح ، من آكابر علماء الأندلس.ذكر الونشريسي وفاته (ابن القلشاني) سنة 848هـ وكذا التنبكتي في الكفاية: 230)و السخاوي:137/6 لكن الذي حققه صاحب الحلل السندسية في606/1 أنه توفى سنة 847هـ، وذلك بعد مرض طويل.

[4] : برنامج المجاري تحقيق أبو الأجفان : 32-42 .الضوء اللامع : السخاوي :

[5] : ثبت أبي جعفر البلوي:104-105، نفح الطيب: 693/2 ،فهرس الفهارس: عبد الحي الكتاني:314/2 المطبعة الجديدة عدد:11 /1347 معجم مشاهير المغاربة:أبو عمران الشيخ: 441.

[6] :الواخدات: المسرعات من الإبل التي ترمي بقوائمها كالنعام.

[7] :النجائب:يقال نجب: جمع نجبة ونجيبة :الفاضل من كل حيوان.

ولو لم يكن في الغرب كل فضيلة لما حركت شوقا إليه الكواكب [1]

... وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعة ليلا ونهارا ... وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشـهودة وكان له بالعلم عناية..، ودراية تعضدها الرواية ونباهة تكسب النزاهة..."[2]

آثار ابن مرزوق الحفيد ومؤلفاته:

خلّف الإمام ابن مرزوق الحفيد ثروة علمية هائلة تتمثل:

أولا: في العلماء الفطاحل الذين أخذوا عنه ودرسوا عليه وأجازهم،وقد رحلوا إليه من الشرق والغرب والأندلس، وقد مرّ معنا ذكر بعضهم من تلامذته.

وثانيا: في الكتب التي صنَّفها في مختلف الفنون، العقيدة والفقه والحديث والتفسير وغيرها من الكتب التي ضاع أغلبها، وما بقي منها بعضه في المراكز العلمية والمكتبات العامة، وبعضه الآخر تحتكره بعض الأسر التي تمتلك خزائن للمخطوطات، ومن بين هذه الكتب نذكر:

كتاب عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد، وتفسـير الإخلاص والمائدة ومريم، وكتاب نور اليقين في شـرح حديث أولياء الله المتقين، والاعتراف في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصـراف [3]، وأنوار الدراري في مكررات البخاري ، والمتجر الربيح في شـرح الجامع الصـحيح- محل دراستنا في هذا المقال- والروضة والحديقة.

وألف كتابه الموسوم بـ : المنزع النبيل في شرح مختصر خليل ، ويعدُّ من أشهر مؤلفاته "و هو في غاية الإتقان ، والتحرير[4]، وإسماع الصـم في إثبات الشـرف من قبل الأم، واغتنام الفرصـة في محادثة عالم قفصة، وروضة الأريب ومنتهى أمل اللبيب في شرح التهذيب.

وإيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك[5] ، ورجز تلخيص المفتاح في المعاني والبيان.

---

[1] :رحلة القلصادي:97 والأبيات من البحر الطويل.

[2] :رحلة القلصادي: دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان: 94 ط2 78/7/14 تحت عدد:5078.

[3] : هدية العارفين : 191/6، الأعلام: الزركلي: 331/5، قال الزركلي: أن هذا الشرح لم يكمل، وكان منه كما يظهر في المنزع الوصل بين الطريقتين طريقة المصريين (خليل) وطريقة المغاربة (ابن عرفة) إذ كثيرا ما اعتمد في شرح كلام خليل على استظهارات ابن عرفة (ر: الأعلام:331/5).

[4] : غنية الواجد وبغية الطالب الماجد: الثعالبي: 13 ؛ نيل الابتهاج: 311،كفاية المحتاج:397، إصلاح المذهب: 469.

[5] :غنية الوافد وبغية الطالب الماجد: الثعالبي:13 (مخطوط) ؛ ثبت أبي جعفر البلوي:293، وفي الكفاية:إيضاح المسالك على ألفية بن مالك ، وصل فيه إلى اسم الإشارة أو الموصول، مجلد في غاية الإتقان(كفاية المحتاج:397).

والمفاتيح المرزوقية في اســـتخراج رموز الخزرجية في علمي العروض والقوافي،وهو عبارة عن شـــرح على الخزرجية لأبي الحسن الخزرجي المغربي، واسم الإشارة والموصول [1](عبارة عن مجلد وقف على أوله ابن مريم) وغيرها.

المبحث الثاني:منهج ابن مرزوق الحفيد في المتجر الربيح وموارده

المطلب الأول: منهج ابن مرزوق في كتابه"المتجر الربيح"

يمكن الوقوف على منهج ابن مرزوق الحفيد في كتابه"المتجر الربيح" من خلال مقدمته الجليلة ومن خلال الطريقة التي اتبعها في شرح صحيح البخاري، والأسلوب الذي تناول به شرح الأحاديث.

– ابتدأ ابن مرزوق كتابه "المتجر" بمقدمة تناول فيها بعد حمد الله المنعم والصلاة والسلام على أفضل الخلق محمد صـــلى الله عليه وســـلم ذكر المنهج الذي اتبعه في الشـــرح والســـبب الدافع والباعث إلى تأليفه، فقال: "وكنت في زمن الشـبيبة والكهولة قد منَّ الله عليَّ بالاشـتغال بصـحيح البخاري فرويته وروَّيته مدة ودرسته فيه مفهما، ومستنبطا ما تضمن من فوائده حتى ختمته في سنين عدَّة وكان يمرُّ بي في مجالس الرواية والإقراء ما أستحسنه بزعمي من الفوائد وما لم أره لغيري وأظنه من جميل الفوائد.

ولم أوفق حينئذ لتقييد تلك الزوائد الشـــوارد ليتجمل بها من أراد نظمها في ســـلك نفائس الدرر والقلائد فطلبتها بعد الشـــيخ فوجدتها قد توحشـــت ولحقت بالأوائل... ومنذ ذلك الحين تاقت النفس إلى تقييد ما كنت أتمناه... وحرصت على تلافي ما فاتها من ذلك...،"[(2)].

ثم تناول التعريف بالإمام البخاري– عليه رحمة الله – وبجامعه الصـــحيح، وإبراز قيمته، فقال: "ومما يتأكد تقديمه في مقدمات الشـــروح من الآداب، ما أمكن من التعريف بمصـــنِّف الكتاب، وإن كان مُصنِّف هذا الكتاب غنيًّا عن مثلي له من التعريف.." [(3)].

وبعد الترجمة لحياة البخاري الذاتية والعلمية ذكر ابن مرزوق الحفيد ســـبب تقديم المغاربة لصـــحيح مســـلم على صـــحيح البخاري فقال: "**وأما تفضـــيل بعض المغاربة لصـــحيح مســـلم عليه فلأمر غير الأصحية بل لأنه أسهل تناولا وأقرب إلى الضبط، لجمعه متون الباب في موضع واحد.... بلفظها لا مفرقة على الأبواب، ولا مقطعة فيها، ولا يروى بالمعنى، ولا يخلطه بقول صـحابي ولا قول عالم غيره،**

---

[1] : البستان : ابن مريم : 211، في الكفاية: 397: إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك وصل فيه إلى اسم الإشارة أو الموصول وهو في غاية الإتقان كما ذكر العلماء. .

([2]) المتجر:1/1-2 (المقدمة).

([3]) المتجر: 3/1.

وهذه الجهة أو الجهات من الأفضلية مقابلة بجهات في البخاري، وتبقى الأصحية له مسلّمة من إفادة الجمع بين علم الكتاب والسنة وأقوال الأئمة.."[1].

فتقديم المغاربة لصحيح مسلم ليس مطلقا وإنما عند بعضهم، وهذا لغير غير الأصحية.

لقد اجتهد ابن مرزوق الحفيد في شرح صحيح البخاري، وجاء بتحقيقات دقيقة وفوائد جليلة، تعد إضافة لم يسبق إليها كما قال رحمه الله " لم أرها لغيري" وقد صرّح بذلك في مقدمة المتجر وفي بعض المسائل التي ذكرها، قال في المقدمة: "... **ومن أهم ما لم يذكروه جمع مقاصد أبواب من كل كتاب من كتبه الكبيرة ككتاب الصلاة ونحوه، أو من أكثرها في معنى كأنه فصل من الكتاب، ثم ينتقل إلى أبواب أخر تشترك في معنى آخر من ذلك الكتاب كأنه فصل آخر منه، وتبيين المناسبة بين تلك الأبواب والفصول، ووجه الترتيب في تقديم بعضها على بعض، وغير ذلك من المحاسن التي نراها بعون الله ذي الجلال والإكرام..."** [2].

وقوله: "... **وفي تراجم البخاري من الدقائق والأسرار ما عجز كل من أتى بعده عن استيفاء مقاصده في ذلك، وسنبّينه في كل ترجمة على ما فتح الله به علينا، ومنَّ به من فضله، بقدر ما رزقنا من الطاقة مما لم يسبق إليه غيرنا وبالله نستعين"**[3].

وتكلَّم ابن مرزوق على تراجم البخاري وبيَّن أن البخاري في جامعه الصحيح جمع بين علم الكتاب والسنة وأقوال الأئمة حيث ضمَّ إلى الحديث الذي على شرطه ما يناسبه من القرآن أو تفسيره، أو حديث على غير شرطه، أو أثر صاحب، أو تابعي.

ثم ذكر ما اختص به جامع البخاري الصحيح وتفريقه الأحاديث وتكراره فقال: "فاختص عن الجوامع بالجمع بين علمي الكتاب والسنة، تصحيحا لما يورده من السنة، واستشهادا عليه، وتفريقه الحديث على الأبواب، لظهوره في بعضها وخفائه في بعضها لدلالته عليه بتضمن أو التزام أو قياس لاشتراك في معنى جامع أو رمز إلى خلاف أو إلى أن المقصود في بعض طرقه لا في اللفظ المذكور فلذا وشبهه يكرّر الأحاديث، ولكون الحديث قد يتضّمن أحكاما فيحتاج إلى اختصاره تارة وتعليقه أخرى لما في تكريره من تعليم، بالاستنباط منه عند وقوع الحادثة والحاجة إليه، وقد يظهر منه في كل مرَّة يكرر معنى لم يظهر في غيرها وما خفي أكثر مما ظهر لقصور إدراك البشر عما احتوى عليه كلام من

([1]) المصدر نفسه: 1/9-10.

([2]) مقدمة المتجر الربيح.

([3]) مقدمة المتجر: 1/10.

أوتي جوامع الكلم، فلو اقتصـــر على ذكر ما فيه من الفوائد مرَّة واحدة لكان فيه نوع من التحجير، وقد يقصر النظر في تلك المرّة عن أشياء كثيرة ويفتح في كل نظرة في معنى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".

وبيّن الحفيد أنه كما يحتاج البخاري إلى التكرار يحتاج إلى الاختصـــار والتعليق فقال: "وما احتيج إلى التكرار لهذا وغيره من الفوائد احتيج إلى الاختصـــار والتعليق والنقل بالمعنى إذ لو أتى بتمام المتن والإسناد في كل مرَّة لطال طولا يفوق الحصر، وقد كاد يفوته على ما هو عليه من الاختصار..".

ثم بيَّن أن تكراره في الحقيقة ليس تكرارا فقال: "إنَّه في تكراره يأتي بإســناد جديد فإن تعذَّر وتغاير الســـند لانفراد الراوي بالحديث ولزيادة أبواب الأحكام على الرواة علَّق واختصـــر، فهذا من فوائد التعليق والاختصـار... وقد ينشـط فيُسنِد ويطول وقد يملّ فيعلّق ويختصـر فإذا علمت أن ما ذكر من بعض فوائد تكراره علمت أنه في الحقيقة لا تكرار فيه لأن التكرار عادة ما ذكر لغير فائدة"[1].

وذكر ابن مرزوق في مقدمة الشـــرح ســـنده وطريقه إلى البخاري والرواة الذين روى عنهم سماعا وإجازة[2] قال: "**وأما روايتي هذا الكتاب الشـــريف فلي فيه طرق مذكورة في غير هذا، وأجلّها عندي أني قرأت جميعه بلفظي بحرم الله الشـريف تجاه الكعبة المشـرفة سـنة اثنتين وتسـعين وسـبع مائة على الشـيخ الصـالح برهان الدين أبي إسـحاق إبراهيم بن صـديق الدمشـقي بحق سماعه من "الحجّار" الشـهير الاسـم والسـند، ولم يبق في عصـر أبي اسـحاق – حين قراءتي المذكورة على ما قيل – من سمع جميع الكتاب على الحجَّار غيره.**

وأجازني جميعه إجازة عامة جدِّي – أبو أبي – محمد بن مرزوق رحمه الله ورضي عنه وإمام مقام المالكية بحرم مكة....

وممن حدَّثني بكثير منه إجازة صـــاحبنا العلَّامة آخر أئمة المحدثين في عصـــره بالديار المصـــرية شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر أبقى الله للمسلمين بركته وحرس ذاته المشرفة وحوزته.

وقد ذكرها في مقدمة شـرحه المسـمَّى "بفتح الباري في شـرح البخاري" وفي غيره فمن أرادها فلينظرها هناك..." [3].

([1]) مقدمة المتجر: 12/1-13.

([2]) مقدمة المتجر: 12/1-13، ثبت البلوي: 256.

([3]) مقدمة المتجر: 12/1، (المخطوط) نسخة مصورة.

وتكلَّم ابن مرزوق في مقدمة "المتجر" عن جهده واستفراغه الجهد في استنباط الحسن مما يمكن ثم قال:"ومن ثمّ كان رجاء إكمال هذا الشرح مع هذه الأوصاف وكبر جرم الكتاب من المستحيل عادة...." وذكر أيضا عنوان الكتاب، قال:وسميته بالمتجر الربيح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح والوجه الصبيح والخلق السميح في شرح الجامع الصحيح.

ثم ختمها بالتوجه إلى الله بالرغبة في نيل الأمل، وإخلاص النية لوجهه الكريم في القول والعمل، مع طلبه من الواقف على هذا الشرح إخلاص الدعاء بالختم له ولذريته وحاشيته وأحبائه بخاتمة السعداء.

وبعد هذه المقدمة التي بيَّن فيها ابن مرزوق منهجه شرع في شرح بدء الوحي، مُطبِّقًا منهجه المبني على تحليل النصوص وتوثيق النقول وعزو كل قول إلى صاحبه بذكر الكتاب وصاحبه مع وضع كلمة "انتهى" عند نهاية الاقتباس وكان لايفوته ذلك إلا نادرا.

كان رحمه الله يفكّك النص إلى قطع فيشرح ألفاظ الحديث معتمدا على مصادر اللغة مثل المحكم والصحاح للجوهري ، ثم يتعرَّض لمعاني الحروف حيث قال: "وإذا أَحَطْتَ عِلْمًا بهذا التحقيق والتنقيح فلنرجع إلى تنزيله على الحديث فنقول...."[1].

– اهتم ابن مرزوق بذكر المناسبة بين الترجمة والحديث، قال: "ففي مناسبة كتبه على الجملة وأنا أذكر مضمنه هنا على ما يظهر لي مجملا ثم أفصّله في مجاله بعون الله وفضله فأقول: بدأ بكيفية الوحي، لأن منه عرف الشرع جملة وتفصيلا، وأوّل مطلوب من المكلّف شرعا على رأي ولعلّه رأي البخاري، المعرفة بالله المعبود حقا وذلك هو الإيمان فذكر بعده ولما كانت المعرفة خفية اكتفى في الحكم بالاتصاف بها في ظاهر الشرع بالنطق باللسان" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، والإيمان المعتدّ به عند الله على رأي الأكثر ما كان من علم ونظر واستدلال ولا ينفع إيمان المقلّد، فاعلم أنه لا إله إلا الله ومن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ذكر بعده باب العلم الشامل للأصول والفروع، ثم تعرَّض للعمل وهو الصلاة وبدأ بالطهارة... ثم الصلاة.. ثم الزكاة... ثم الحج ...الخ.

استرسل "الحفيد" في ذكر المناسبة من هذه الأبواب على الجملة[2] ... إلى أن ختم بقوله: "ما أحسن افتتاحه واختتامه أحسن الله إليه، فإن معنى نية العمل إخلاصه لله، وهذا هو كمال التوحيد، وغاية ما يدركه أكثر المكلّفين من الاستفتاح بالحمد على ما ظن حتى اعتذر بالاكتفاء بالبسملة أو بمطلق ذكر الله. وختم بكلمات الحمد صريحا وضمنا، وأيضا لما ذكر الموازين الذي هو آخر الأمر وكان

([1]) المتجر: 29/1.

([2]) مقدمة المتجر: 13/1، وما بعدها.

آخر الدعاء من ثقل ميزانه الحمد لله ﴿**وآخِرُ دَعوَاهُم أَنِ الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين**﴾[1] ﴿**وَقَالُوا الحَمدُ لله الذي أذهَبَ عنَّا الحَزَنَ**﴾[2] فللّه درّه بدأ بالإخلاص وختم به..." [3].

اهتم ابن مرزوق الحفيد بشرح تراجم الأبواب مع بيان المناسبة التي بين الترجمة والحديث، كما في باب "علامة الإيمان حب الأنصار" فبعد أن ذكر ما قاله ابن بطال نقلا عن المهلب قال: قلت:" وفيه مناسبة عامة وهي أن قصده بهذه الأبواب كما تقدّم ذكر شعب الإيمان الدالة على تعدده وتركبه منها وأنه يزيد وينقص، بحسبها..."[4].

ونلخص منهجه في"المتجر الربيح" فيما يلي:

1- في الجانب المنهجي المتعلِّق بصناعة التأليف:

-الحرص على إخلاص النية لله تعالى في الأقوال والأفعال.

- تصدير كتاب "المتجر" بمقدمة جليلة ذكر فيها عنوان كتابه وسبب تأليفه، ومنهجه، مع ترجمة للإمام البخاري وجامعه الصحيح.

-إرشاد القارئ إلى المصادر التي اعتمد عليها، وإلى مواضع بسط بعض المباحث في المصنفات الأخرى أو مصنّفات جدِّه الخطيب.

-الأمانة العلمية ويظهر ذلك في توثيق نقوله وعزوها لأصحابها.

-التحقيق والتدقيق مع النقد والتمحيص، ومناقشة الأقوال بالدليل والبرهان، مع التزام الموضوعية وتحري الحق. وقد أثنى العلماء على ابن مرزوق الحفيد وعلى مصنفاته التي وصفوها بالإتقان والتحرير والتحقيق والإبداع والنفاسة.

- الصبر وطول النفس في الشرح وتتبع مفردات الحديث بالشرح اللغوي الدقيق لأنه قطب الرَّحى في فهم الحديث والأداة الأساسية لفتح مغاليقه، مع الوقوف على ما تتضمنه الأحاديث من إشارات بلاغية وبيانية، مما يبرز تضلعه في علم اللغة والمعاني.

- عدم التعصب المذهبي، والتزامه بأخلاق العلماء وبالتواضع والأدب التام مع المخالف.

2- الجانب المنهجي المتعلق بشرح الأحاديث

([1]) يونس: الأية: 10.

([2]) فاطر: جزء من الآية: 34.

([3]) المتجر: 1/17-19 (المخطوط).

([4]) ر: باب علامة الإيمان حب الأنصار: 312 من هذا الكتاب.

لقد سلك الحفيد في شرح الحديث طريقة الشرح بالمأثور من القرآن والسنة، والمعقول والمنطق، ولغة العرب، واستفاد من علم شيوخه والعلماء السابقين له،وكان كثيرا ما يناقشهم بالحجّة والبرهان.

وابن مرزوق عندما يبدأ في شرح حديث من صحيح البخاري، يذكر اسم الباب الذي يندرج تحته الحديث ثم يشرع في التحليل والشرح دون إيراد نص الحديث كاملا-لأنه ضابط للحديث ضبط فؤاد بحيث يستحضر متن الحديث في ذهنه ثم يشرحه ، مقتصرا على كتابة العبارات محل الشرح دون متن الحديث .

ثم يذكر العلاقة بين الباب والباب الذي قبله مع بيان مقصـــد الحديث، فابن مرزوق الحفيد اهتم كثيرا بالمقاصـد وأسـرار الأحكام كما يظهر ذلك في باب "علامة الإيمان حب الأنصـار" وغيره من الأبواب.

-تخريج الأحاديث معتمدا في ذلك على كتب الحديث مثل الموطأ والكتب الستة وغيرها.

-الترجمة لكثير من الصـــحابة، ورواة الحديث وبيان درجتهم، وأقوال علماء الجرح والتعديل. وهذا بالنسبة للتابعين ومن بعدهم.مع ذكر بعض اللطائف والفوائد الإسنادية.

- الاهتمام بشـرح وتحليل ألفاظ الحديث مع تتبع أقوال العلماء في ذلك مع المقارنة والترجيح. كما في باب "من قال: إنّ الإيمان هو العمل".

- تفكيك عبارة النص مع بيان منطوقها ومفهومها كما ذكر ذلك الحطاب، حيث كان رحمه الله يقسِّم النّص إلى جمل وفقرات قصد التحقيق في شرح الألفاظ ويضيف إلى هذه النصوص تكميلات، معتمدا في ذلك على الوجوه المنطقية، والقياس الفقهي، مخالفا في ذلك طريقة المتقدمين من مالكية المغرب مُتَّبِعًا في ذلك منهج أهل الرأي من الحنفية وعلماء المدرسة العراقية.

- الإشارة في الحديث المكَرَّر إلى موضع الشرح أو مكان بسط القول فيه.

- ذكر معنى الحديث وذلك بعد شـــرح ألفاظه من مختلف كتب اللغة مثل الصـــحاح والمحكم والمخصص والمشارق... كما في شرح حديث أبي اليمان من كتاب الإيمان.

-تقرير مذهب الإمام مالك والاسـتدلال له ،مع اهتمامه ببيان مشـهور مذهب مالك واختلاف أقواله في المسألة الواحدة واختلاف الرواة عنه واختلاف فقهاء المالكية من أهل الأمصار.

- اعتماده على المصـــادر المالكية مما يبرز مذهبه المالكي، وإن كان لا يســـتغني عن ذكر أقوال العلماء الآخرين كأبي حنيفة والشافعي وأحمد - عليهم رحمة الله -.

-الاستفادة من كتب الشروح التي سبقته كشرح الداودي والخطابي والمهلّب وابن التين وابن بطال وغيرها.وابن مرزوق لم يقتصر على شرح صحيح البخاري فقط إنما اعتمد على شروح الصحاح الأخرى والسنن، وكذا تفاسير القرآن الكريم.

- اعتماد المناقشة في كثير من المسائل فهو يكثر في شرحه المناقشة والمناظرة، ويكثر من الافتراض والاعتراض على أدلة الرأي الآخر حيث نجده يكثر من ذكر عبارتي: "**فإن قُلْتَ**"..."**قُلْتُ**" **ومثال ذلك في باب** حدثنا أبو اليمان[1]، قال بعد أن ذكر ما تضمَّنه الحديث من درء المفاسد **فإن قلت**: "نفى من الضروريات الخمس حفظ العقل لم يشر إليه في هذا الحديث."

قلت: "لما لم يصح امتثال شيء من هذه المنهيات إلا مع حفظه استغنى بها عنه أو أنّه من حفظ النفس لأن ذهاب العقل لا يكون إلا مع كمال صحة المزاج، وقد يقتل استعمال ما يذهبه أو لما فيه من الحد الذي يتلف النفس، أو يقال: إنه داخل في البهتان لقول علي رضي الله عنه:" إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى" وهذا أقرب.

ثم قال ابن مرزوق: **فإن قلت**: إن صحَّ في الحديث إشارة إلى الضروريات الخمس كما ذكرت، فهل فيه ما يدلُّ على منازلها في القوة في أصول الفقه؟ **قلت**: الظاهر لا، وإنما ذلك التنزيل من نظر المجتهدين...[2]

- توظيف علم المنطق الذي هو العلم بالقوانين التي يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة بالماهيات والحجج المفيدة للتصديقات.

ومثال ذلك ما جاء في باب علامة الإيمان حب الأنصار قال: "وإذا كان حبهم علامة صدق الإيمان كان بغضهم علامة ضده، وهو كذب الإيمان أو فساده، فالإيمان ملزوم حبهم والنفاق ملزوم بغضهم والتضادين الملزومين يستلزم التضادين اللازمين الخاصين وقد يعكس...[3].

- مناقشة الأقوال بالحجَّة كما في قوله في الباب الخامس: "فإن تابوا"[4] "... وقد بيَّنا اختلاف الوجهين معنىً كما هما لفظا لا كما توهم أبو حيان ولا حجة له في دعوى الإجماع على جواز الوجهين

([1]) ر: باب حدثنا أبو اليمان...

([2]) ر: باب حدثنا أبو اليمان...

([3]) ر: باب علامة الإيمان حب الأنصار.

([4]) المتجر: 62/2، باب "فإن تابوا".

إن ثبت لأنه إن صحّ يكون مرتبا على المقصدين لا على مقصد واحد.." ثم **قال**:".. **فتمسّك بهذا التحقيق وتأمله حق التأمل**"[1].

إن ابن مرزوق الحفيد –عليه رحمة الله– لايكتفي بنقل آراء العلماء بل يناقشها بالحجة والبرهان، فهو يناقش أقوال المهلب والخطابي وابن التين وابن بطال كما ناقش في هذا القول أبا حيان صاحب البحر، بل يناقش أيضا الإمام البخاري (المصنِّف)كما في قوله: "وعلى هذا المحمل لا حجة للبخاري في الحديث ولو أريد حقيقة الإيمان التصديقي لما اقتصر على رسوله وملائكته إلى آخر أركانه.." ثم قال: "وهذان التأويلان اللَّذان اخترناهما وجهان طريقان قويّان في الجمع بين مختلف أحاديث هذا النوع، جاريان على أصول علم المعاني فشدَّ عليهما يد الضنين واستغن بهما عن غيرهما مما ذكر في جمعها لما فيه من التعسف والتكلف والمنّة والفضل لله سبحانه وبه التوفيق"[2].

وفي قوله: "... **وكان حقّه أن يقول: وإن العلم ليطابق لفظ الحديث وتعبيره بالمعرفة إما لأنه يرى مرادفتها للعلمّ وتفنَّن في العبارة ليفيد التسميتين، وإما لأنه أراد المعرفة لغة، وهي تمييز الشيء أعم من كونه تصورا أو تصديقا، ولو قال: وان العلم لما أفاد أن التصور فعل القلب لأن حكم الأخص لا يتعدى إلى أخص آخر كما هو اصطلاح المنطقيين وبعض أهل الأصلين فإن عندهم المعرفة مخصوصة بما كان من العلوم تصورا...**"[3].

ثم قال: ".. **ويدلُّ على ضعف استدلاله بالآية على أن المعرفة فعل القلب إن قصد دلالتها عليها بالخصوصية ما ذكر المفسرون في معناها، ويقوى حينئذ احتمال كونه استدل بها على أن للقلب فعلا بالإطلاق، لأن الآية وردت فيما يؤخذ به من الإيمان، وما لا...**"[4].

– الاهتمام بالجانب اللغوي وإبراز ألوان البديع والبيان والمعاني والاستدلال بالأراء والأقوال التي ينسبها إلى أصحابها من مختلف المذاهب، وترجيح ما يراه راجحا، فقد شرح ألفاظ الحديث وبيَّن لغتها معتمدا على مصادر اللغة القويَّة مستعينا بما قاله أئمة اللغة مثل ابن سيده والجوهري وغيرهما مما جعل من هذا الشرح موسوعة لغوية يرجع إليها أيضا الباحث في اللغة والنحو والبلاغة والمعاني.

([1]) المصدر نفسه 62/2ر.

([2]) المتجر: 1/باب من باب إن الإيمان هو العمل.

([3]) باب فإن تابوا.

([4]) الباب السابق.

والإمام ابن مرزوق الحفيد كثيرا ما كان يخالف رأي أئمة اللغة ويناقشهم مستدلا لذلك كما في باب "فإن تابوا" قال "الحفيد": "واستشكل أبو حيان البدل من إله لأنه على تكرير العامل..... ثم قال: وقال أبو حيان ولا نعلم فيه خلافا انتهى مختصرا. **قلت**: ما قاله هذا البعض قد يرجع إلى ما قال ابن الحاجب لأنه إذا نصب كان فضلة، والمستثنى منه مقصود بالحكم معتمدا عليه..... وقد بيَّنا اختلاف الوجهين معنى كما هما لفظا، لا كما توهم أبو حيان، ولا حجَّة له في دعوى الإجماع على جواز الوجهين إن ثبت..."[1].

– الاعتناء ببيان مقصد الأبواب كما في باب قول النبي صلى لله عليه وسلم:" أنا أعلمكم بالله..." قال بعد أن بيّن ما دلَّ عليه الباب والمناسبة بينه وبين الأبواب التي قبله والمقصد من الباب: "... وكأنه قصد بالباب الرَّد على الكرامية... وبيان مقصده أن رسول الله أخبر أنه أعلم أمته بالله تعالى لأن ضمير أعلمكم وإن كان ظاهرا في خطاب من شافهه لكن حكمه عام لجميع الأمة، ولإن خص بالصحابة فغيرهم أحرى، لأن الصحابة أعلم بالله ممن بعدهم من الأمة، والأعلم من الأعلم أعلم والله تعالى أعلم"[2].

ثم قال: "والعلم بالله هو نفس الإيمان فإذا كان أعلمهم به كان إيمانه به زائدا على إيمانهم، ولما كان لقائل أن يقول: وهل هذه الأعلمية ترجع إلى زيادة الأعمال زاد وأن المعرفة فعل القلب لينفي هذا التوهم، وإن كان بعيدا لأن من المعلوم أن العلم محله القلب عند الأكثر بدليل **{لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا}**[3]، **{وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }**[4] ... وهو كثير وهذا ونحوه أولى من استدلال المصِّنف بأن كسب القلب أعمّ من أعلم لتناوله الحقد والغل والحب... ولا إشعار للأعم بأخص معيّن اللّهم إلا إن قصد أن يثبت أن للقلب عملا على الجملة فنعم، لكنه لا يمسه ما قصد من الاستدلال على ما ادعاه من أن محلّ العلم بالله هو القلب بل يكون أجنبيا لا مناسبة له"[5].

– ذكره لفقه الحديث والأحكام المستنبطة منه،حيث يذكر فقه الحديث ثم يضيف ما قاله العلماء الذين سبقوه، مع مناقشة الأقوال والترجيح،كما في "باب حدثنا أبو اليمان" قال: "وفي الحديث من

([1]) ر:باب فإن تابوا .

([2]) المتجر: 2/، باب "أنا أعلمكم بالله...".

([3]) الأعراف: جزء من الآية 179.

([4]) الحج: 46.

([5]) المتجر الربيح: 2/ باب أنا أعلمكم بالله.

الفقه: عقد الإمامة، ومبايعة الإمامة على إقامة الدين أصــوله وفروعه، وفيه شــرع وظيف النقابة لأنه أضبط لحال جماعات الجيوش...الخ[1].

جاء في باب "علامة الإيمان حب الأنصار" مناقشته وتضعيفه لقول ابن التين ،فبعد أن أورد كلام ابن التين قال: "...وهو ضعيف لأنه يكر على قاعدة أصل التخصيص بالإبطال، لأن تخصيصهم كما سبق لتفضيلهم من الوجه المتقدم..."[2].

وفي حديث "**إذا التقى المســلمان بســيفهما...**" نقل كلام عياض ثم قال: قلت: "وكلامه هذا معارض لما تأول هنا موافقا لقول الأكثر، وتأويله غيره الذي نقله ليس ببعيد كما ظن، لكن قول هذا المتأول لم يرد هذين بل العصبية.... ثم قال: "والظاهر أنه منها لأن سبب قتله سبه إياه، وهو نوع من ذلك...."[3].

– إيراد كثير من التحقيقات التي لم يســبق إليها كما في باب "فإن تابوا" قال: ..... **وهذا التحقيق الذي فتح الله فيه، ومنَّ به عليّ في هذه الكلمة التي هي كلمة التوحيد.....لم أره على التعيين لغيري، من متقدم ولا متأخر، وإن كان مأخوذا من أصولهم.... ومن حق هذا التحقيق أن يكون وحده نوعا من العلم حافلا وديوانا من التآليف كاملا...**"[4].

المطلب الثاني: موارد المتجر وأثره:

الفرع الأول:موارد ومصادر المتجر الربيح

لقد تنوعت موارد ابن مرزوق وتعددّت، حيث اعتمد على كتب اللغة والحديث والفقه والتفســير والأصــول فأخذ منها بنصــيب، وعلى رأس هذه المصــادر اعتمد على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، كما استعان بالمبادئ المنطقية والأقيسة العقلية.

كما تتبع ابن مرزوق شــروح صــحيح البخاري التي سـبقته، فخبر قوتها ونقصــها وحاول اسـتدراك ما فاتها، يظهر ذلك من خلال تحقيقاته التي أخبر أنها لم تكن لغيره فقد أكثر من ذكر"**ولم أره لغيري**" كما ذكر ابن مرزوق شرح الحافظ ابن حجر –رحمه الله– الموسوم "بفتح الباري" فدلّ ذلك على اطلاعه عليه.

([1]) باب علامة الإيمان حب الأنصار.

([2]) الباب نفسه.

([3]) راجع المسألة في باب حدثنا أبو اليمان ص.

([4]) راجع المسألة في باب فإن تابوا من هذا البحث.

كما دلَّ على أن شرح "المتجر" جاء بعد شرح ابن حجر "فتح الباري" أو في نفس الفترة ويؤكد ذلك قول ابن حجر في "المجمع المؤسس": إنه سمع من ابن مرزوق وهو بدوره سمع منه" وهذا ما يعرف في اصطلاح أهل الحديث بالتدبيج كما ذكر ابن حجر أن الحفيد ابن مرزوق أخذ عنه قطعة من شرحه "فتح الباري".

وإضافة إلى اعتماد ابن مرزوق على شروح البخاري التي سبقته أو تزامنت معه، فقد اعتمد على عدةّ كتب متنوعة في اللغة، والحديث والفقه وأصول الفقه والسيرة والتاريخ والسير، والمنطق، فجمع شتات مقاصدها، وضمّ إليها من غيرها نخب فوائدها، فاجتمع في كتابه ما تفرَّق في غيره، فجاء شرحه هذا آية في التحقيق والشرح حتى قال عنه مؤلفه:" إنه اجتمع فيه من التحقيقات ما لم أره لغيري"، وقال عنه غيره من العلماء: "إنه لم ير الراءون مثله"[1].

وهذه باختصار موارده في هذا الشرح:

اعتمد ابن مرزوق –عليه رحمة الله– على:

- القرآن الكريم

– المحكم لابن سيده في شرحه لألفاظ الحديث مما يبرز قدرته اللغوية وتمكنه منها والصحاح للجوهري، وعلى كتب الزمخشري، وعلى فصيح ثعلب وكتاب الاشتقاق للنحاس وشرح التسهيل لابن مالك، واستشهد بكثير من أقوال أهل اللغة مثل الفرّاء، وابن جنّي والخليل بن أحمد وابن درستويه وسيبويه وابن الأعرابي، والسكاكي، وابن دريد[2] وغيرهم.

واعتمد في الحديث وعلومه على الموطأ وعلى صحيح البخاري وصحيح مسلم، ومسند أبي يعلى و شرح الداودي، وشرح المنهاج للنووي، ، وشرح أعلام السنن ومعالم السنن للخطابي وعلى شرح ابن بطال وابن التين، وبدرالدين العيني، وشرح المهلب بن أبي صفرة، والشفا والإلماع للقاضي عياض، وعلى المعلم بفوائد مسلم للمازري، وإكمال المعلم و ومشارق الأنوار للقاضي عياض وعلى التمهيد والاستذكار لابن عبد البر...الخ

وفي التفسير على تفسير ابن عطية والزمخشري وابن العربي المالكي وتفسير أبي العالية وغيرها.

وفي الفقه اعتمد على: المدونة، والواضحة لابن حبيب ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح الأحكام لجدِّه الخطيب، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، كما في باب فإن تابوا، كما اعتمد على الجلاب والنوادر والموازية لابن المواز، والبيان والتحصيل لابن رشد، وطرر ابن عات. واستشهد بأقوال

([1]) ذكر هذا صاحب معلمة التراث بشير ضيف.

([2]) ذكره في ورقة 85 و94 ومن نسخة "ر".

المازري وأشهب وأصبغ، وابن حبيب وسحنون، وابن سحنون وابن الماجشون والباجي وابن القصار من شيوخ المالكية، كما ذكر أقوال بعض أصحابه دون أن يشير إلى أسمائهم، وأورد أقوال صاحب التحرير، وأقوال ابن بزيزة، وإمام الحرمين، وأقوال المزني، والحكم بن عُتيبة، وأقوال ابن الطيب، وابن الملقن وغيرهم.

وفي أصول الفقه: اعتمد على المحصول لابن أبي حاتم الرازي، وعلى ابن الحاجب الأصلي الذي له عليه تقييد والتنقيح للقرافي وغيرها.

وفي الأخبار والسيرة وتراجم الرواة اعتمد على تاريخ البخاري، وطبقات ابن سعد وعلى الواقدي وكتب التاريخ.

الفرع الثاني: أثر شرح ابن مرزوق "المتجر الربيح" في تلاميذه ومن جاء بعدهم

إنّ ابن مرزوق شرح صحيح البخاري شفاها بحيث أخذه عنه كثير من العلماء والطلاب، يشهد لذلك ما ذكره تلاميذه، وما جاء في مقدمة "المتجر" حيث قال: "رويته ورُوِّيتُه مدة ودرسته..". وعليه فشرح ابن مرزوق أخذه عنه كل من حضر دروسه في المسجد ودور العلم.

وممن استفاد منه قراءة ونقلا نذكر:

– ابن مرزوق الكفيف – ابنه – نقل ذلك "البلوي" عن شيخه ابن مرزوق الكفيف، عن والد شيخه ابن مرزوق "الحفيد"، وقد قرأ عليه أيضا أغلب كتبه في الحديث وغيره وأخذ عنه جزءا من شرح البخاري "المتجر الربيح".

قال البلوي: "... وشيخنا رضي الله عنه أي الكفيف يحمل عنه ذلك بحكم الإجازة العامة له، وأخبرني – رضي الله عنه – أنه قرأ عليه كثيرا منها، كالروضة، والحديقة ومنتهى الأماني، ومواهب الفتاح ومفتاح الجنة، وما شرح من الألفية وغير ذلك.. وحضر مواضع من تصحيح شرح البخاري المذكور، وعلى أبيه معتمد شيخنا هذا نفعنا الله به"[1].

وذكر الإمام القلصادي الكتب التي قرأها على شيخه ابن مرزوق الحفيد منها صحيح البخاري وإعرابه قال: فقرأت عليه كتابه في الفرائض وأواخر الإيضاح للفارسي وشيئا من شرح التسهيل لابن

(1) ثبت البلوي: 294.

مالك وحضرت عليه نحو الربع من إعراب القرآن وصحيح البخاري[1] والشاطبيتين والأكثر من ابن الحاجب الفرعي... وغير ذلك من الكتب"[2].

ومن الذين ذكروا "المتجر الربيح" الإمام القسطلاني في مقدمة شرحه إرشاد الساري إلا أنه لم يوفق إلى الاطلاع عليه[3].

ومن الذين اعتنوا بهذا الشرح واعتمدوا عليه كثيرا الإمام محمد بن يوسف السنوسي في شرحه على البخاري[4].

ويظهر ذلك من خلال النقولات المتكررة عند السنوسي، حيث نجده كثيرا ما يقول: "وقال الشيخ العلامة سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق.."[5]، وفي بعض الأحيان يقول: "وقال الشيخ رحمه الله ونفع به"[6].

والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو السبب في ندرة نسخ هذا الشرح وعدم انتشاره؟ !

لعلَّ السبب في عدم انتشاره يرجع إلى كونه أُلِّف في آخر حياته والمعروف أن رحلته الأخيرة إلى المشرق كانت سنة تسع عشرة وثمان مائة، وقد ألفه بعد هذا التاريخ.

وربما يرجع سبب ذلك إلى عدم تعريف ابن مرزوق الحفيد بهذا الشرح فلو عرَّف به مثلا وقدَّم له بمقدمة كما فعل الحافظ ابن حجر –عليه رحمة الله– الذي كتب مقدمة سماها "هدي الساري" بيَّن فيها جميع مقاصد الشرح فكانت تلك المقدمة سببا في شهرة فتح الباري – قبل أن يتمه – وتشوق القرّاء إلى اقتنائه والرغبة في تحصيله ممن اطلع على المقدمة[7].

([1]) ربما تضمنه قوله: "صحيح البخاري" لأنه قال: حضرت عليه صحيح البخاري" (رحلة القلصادي: 96).

([2]) المصدر نفسه: 97.

([3]) شرح القسطلاني: 41/1.

([4]) شرح السنوسي على البخاري، توجد نسخة منه في مكتبة الحامة بالجزائر تحت رقم 2726، والنسخة بها خروم، وهذا الشرح لم يكمله، وصل في شرحه إلى باب من استبرأ لدينه.

([5]) كما في كتاب بدء الوحي ورقة 17، وكذا ورقة 23، 36، 37، 40، 45، 65، 69، 70، 71، 78، 80، 82، 83، 89 من كتاب الإيمان، وغيرها من النقول التي كان في بعض الأحيان يناقش فيها ابن مرزوق كما في ورقة: 89 و. ر: شرح السنوسي: المخطوط رقم 2726 الحامة الجزائر.

([6]) كما في ورقة 70 ظ من المخطوط.

([7]) حوالات الحافظ ابن حجر في فتح الباري د.محمد زين العابدين 389–390 مقال نشر في مجلة السنة النبوية: عدد: 4.

وعن ندرة نسـخه ربما يعود السـبب في ذلك إلى ندرة ناسـخيه، فلو أقبلت طائفة من التلاميذ والعلماء على نسخه وكتابته كما هو الشأن في فتح الباري الذي اهتم النسَّاخ بنسخه، فكثرت بذلك نسخه –وهذه ميزة المشارقة –وربما يعود أيضا إلى التقصير في حق هذا العالم الجليل وغيره من علمائنا وصـدق "ابن مريم" عندما قال – مبيّنا الفرق بين المشـارقة والمغاربة في مدى اهتمامهم بعلمائهم – :"يرحم الله المشارقة ما أشدّ اعتناءهم بعلمائهم وبالصالحين منهم"[1] على خلاف المغاربة وخصوصا أهل بلدنا!

وعليه قد يكون سبب عدم انتشار"المتجر الربيح" وندرة نسخه إلى تقصير الأبناء وطلاب العلم في القيام بواجب المحافظة على هذا الشـرح القيّم، بالإضـافة إلى المسـتدمر الفرنسـي الذي أتلف خزائن بأسرها حرقا ونهبا والله أعلم[2].

أو قد يكون كتابه عزيز الوجود، ووقوعه في يد من يبخل ويضـن به كما ذكر ذلك الحطاب في مواهب الجليل عن كتاب "المنزع النبيل"للحفيد.

فهذه كما أرى من أهم الأسباب التي سبَّبت ندرة نسخه، وقلَّة تداوله والله أعلم.

خاتمة: لقد كان"ابن مرزوق الحفيد" إمام تلمسـان في عصـره وعالمها،[3] حامل لواء محاربة البدع، واتباع السـنة في الأقوال والأفعال، فقد كانت له محطات كثيرة في مختلف البلدان عالما ومتعلما ومؤلفا، وقد حلاه ابن غازي بالإمام، قطب المغرب، العلم العلامة الصـدر الأوحد،المحقق النظار، الحجة، العالم الرباني[4]، وقـال ابن مريم في البسـتـان :" إنـه كـان آيـة في تحقيق العلوم، والاطلاع المفرط على المنقول...الآخذ من كل فن بنصـيب" وبعد أن عدد محاسـنه وخصـاله قال: "وبالجملة فإن الوصـف يتقاصـر عن صـفاته، فهو شـيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصـره،وزمانه، شـهد بنشـر علومه العاكف والبادي، وارتوى من بحر تحقيقه الضمآن والصادي

حلف الزمان ليأتين بمثله * حنثت يمينك يا زمان فكفّر

([1]) البستان: ابن مريم: 7.

([2]) فهذا الشرح لو خدمه تلاميذ ابن مرزوق ونسخوه لكان آية في الحسن.

[3] : وقال تلميذه ابن العباس:".....كان شديد الشكيمة في أمور الشريعة ماضي العزيمة، كثير الحذر...متحريا فيم يتلقى ويلقى" الكفاية 394.

وقال ابن غازي نقلا عما حدثه شيخه الوريا‌جلي بأن ابن مرزوق كان شديدا على أهل البدع.

[4] :فهرس ابن غازي: 113

وإن هذه الأوصـــاف التي وصـــف بها فمما علم من حاله، فلا يحتاج في نســـبته إلى قائل معين،ومتى احتاجت شمس الضحى إلى دليل؟..."[1] ثم ختم ابن مريم متحسرا لعدم إيفائه حقه فقال:" يا له من عالم وإمام جمع العلوم بأسرها لكنه بخسته الدار فالله يرحمه ويرضى عنه، وينفعنا به"[2].

وكتابه "المتجر الربيح " من أجل الكتب التي تشـــهد بغزارة علمه وســـعة اطلاعه ودقة تحقيقاته كما تشهد بمدى اهتمام علماء المغرب بصحيح البخاري، وترد على الدعاوي الباطلة التي تقول إن علماء المغرب اهتموا بالفروع وتركوا الأصول، وقدموا صحيح البخاري على صحيح مسلم. والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

أدبيات الخط والتسفير في التراث العربي

أ/ لبسير سمراء ج المسيلة

ملخص البحث

التراث هو ذاكرة الأمة وهو أحد مقومات الحضارة فيها لذا وجب الاهتمام بهذا التراث وحفظه، ودراسة المخطوطات هي جزء من تراث الأمة سواء من حيث محتواها (النص ومضمونه) أو من حيث شكلها (الجانب المادي للمخطوط)، غير أن الواقع يشير إلى أن جل الدراسات الخاصة بالمخطوط العربي اليوم تركز وتعنى بالبحث في متون المخطوطات أي دراستها دراسة فيلولوجية مقتصرة على المضمون وما يقدمه من مادة علمية ,أما الجانب المادي لهذه المخططات باعتبارها وثيقة أثرية حضارية، لم يلق بعد ما يناسبه من عناية واهتمام بالرغم من أن الغرب قطعوا في هذا المجال أشواطا كبيرة منذ نشأة هذا العلم "الكوديكولوجيا" الذي يعنى بدراسة العناصر المادية للكتاب المخطوط ممثلة في الورق والحبر والمداد والتذهيب والتجليد نوعية الخط... الخ وكل أثر لا يرتبط بالنص الأساسي الذي كتبه المؤلف. والحقيقة أن هذا العلم وإن كان حديث النشأة عند الغرب (ظهر في فرنسا) خلال العقدين الثالث

[1] : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: ابن مريم:204-205.

[2] : المرجع نفسه:204.

والرابع من ق 15) فإن العرب كانوا على دراية به وبأهميته منذ القديم وتحديدا مع بداية تدوين القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان ق7م، لأن الحضارة الإسلامية ازدهرت في عهد لم تكن الطباعة معروفة وبالتالي اعتمد في ازدهارها على الخط والخطاطين وبدأ الاهتمام بالكتابة باعتبارها حاملة للنصوص المقدسة(قرآن، حديث) ولما أنتجه العقل العربي من مصنفات.

ولذلك عدها السلف الصالح من العلماء والمكفرين "صناعة" من أشرف الصناعات، وجعلوها في أعلى المراتب، وأفردوا في حقها كتبا ومجلدات كما هو الحال" في الصناعتين" لابن قتيبة ويعني بها:" الكتابة والشعر".

كما يذكر ابن خلدون في مقدمته بأن الخط من إعداد الصنائع الإنسانية فيقول:".... وهو صناعة شريفة، إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان، وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقضى الحاجات، وقد دفعت مؤونة المباشرة لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وماكتبوه في علومهم وأخبارهم فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع، وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم، وعلى قدر الإجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب لذلك، تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع"1, كما ينوه القلقشندي في مقدمة كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشاء إلى أهمية هذه الصنعة "الكتابة " وجعلها من أشرف الصنائع، وأفضل المآثر، لا سيما كتابة الإنشاء.

"تسر مجانيها إذا ما جنى الضما وتروي مجاريها إذا بخل القطر. وأعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتمدهامن وافر كرمه وافضاله فقال عز اسمه "إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم" مع ما يروي أن هذه الآية مفتتح الوحي وأول التنزيل على أشرف نبي وأكرم مرسل (ص) وفي ذلك من الإهتمام بشأنها، ورفعة محلها بالإخفاء فيها ثم يبين شرفها بأنوظف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلت قدرته " وإنا عليكم لحافظين كراما كاتبين"2 من هذا المنطلق كان توجه القدامى إلى العناية بصناعة المخطوطات وطريقة تسفيرها، فأشار إليها بعضهم في مؤلفاته، وخصها البعض الأخر، بكتب مستقلة.

وعليه يمكننا تقسيم، الأدبيات الخاصة بهذه الصناعة إلى قسمين، أدبيات عامة (وهي الأدبيات التي تتضمن إشارات وفصول في هذه الصنعة ,وأدبيات خاصة: (وهي الأدبيات المتخصصة في الحديث عن هذه الصنعة) .

فمن الأدبيات والمصادر العامة التي تناولت الحديث عن صناعة المخطوطات ما أورده ابن خلدون في مقدمته التي تضمنت فصلا كاملا(الفصل الثلاثون) في الحديث عن صناعة الوراقة.

يجعل ابن خلدون الكتابة والخط صناعة تابعة للعمران فيقول:" ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها، كما يحكي لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف [3]

ويضيف قائلا:"وقد كان الخط العربي بالغا مبالغة من الأحكام والإتقان والجودة في دولة التتابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري".[4]

ويستنكر ابن خلدون نسبة كمال الخط إلى قبيلة من القبائل ويجعله من جملة من الصنائع المدينة المعاشية" والعمال في الصنائع إضافي، وليس بكمال مطلق، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وإنما يعود على أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس" [5]

ويستشهد على ذلك بأن النبي (ص) كان أميا لا يكتب وأن الصحابة حين رسموا المصحف بخطوطهم كانت غير مستحكمة في الاجادة ,ثم "جاء الملك وحكمو الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واجتاحت الدولة إلى الكتابة واستعملوا الخط وطلبو صناعته ,وتعلموه ,وتداولوه فترقت الاجادة فيه,واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان إلا أنها كانت دون الغاية، والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد [6]

تم توالي التطور في الخطوط وترقيتها باتساع الممالك والأقطار الإسلامية من فتح إفريقية والأندلس فظهر الخط البغدادي، الخط الكوفي، الخط الإفريقي، والخط الاندلسي.

ويبدوا أن هذه الصناعة لم تقتصر على اهتمام الكتاب فحسب، بل عني بها الشعراء، فنظموا في حقها أحسن القصائد، وقد أورد لنا ابن خلدون قصيدة للأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن الباب يذكر فيها صناعة الخط [7]

يا من يريد إجادة التحـريــر *** ويروم حسن الخط والتصوير

أعدد من الأقلام كل مثقـف *** صلب يصوغ صناعة التحبير
وإذا عمدت لبريه فتوخـــه *** عند القياس بأوسط التقديـر
وألق دواتك بالدخان مـدبـرا *** بالخل أوبالحصرم المعصـور
وأصف إليه معرة قد صولـت *** مع أصفر الزرنيج والكافـور
حتى إذا خمرت فاعمد إلـــى *** الورق النقي الناعم المخبور
فاكسبه بعد القطع بالمعصار عني *** ينأى عن التشعيث والتغييـر
فاشكر إلهك واتبع رضوانـــه *** إن الإله يجيب كل شكور
وارغب لكفك أن تخط بنانهـا *** خيرا تخلفه بـدار غـرور
فجميع فعل المرء يلقاه غـــدا *** عند الشقاء كتابه المنشـــور

وينتقل ابن خلدون في الفصل الحادي والثلاثون إلى الحديث عن صناعة الوراقة فيقول:"كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات، في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط، ويرجع العامل في ذلك إلى ضخامة الدولة وتوابع الحضارة... فكثرت التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الأفاق والأمصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين لانتساخ والتجليد وسائر الأمور الكتبية "8, ويذكر ابن خلدون بأن الكتابة في بادئ الأمر (الصكوك والرسائل السلطانية) كانت على الرقوق المهيأة من الجلد وذلك لقلة ما كان يكتب في ذلك الوقت، ثم اتسع مجال التأليف، وكثر الترسل فضاق الرق عن ذلك، ولذلك أشار الفضل بن يحي بصناعة الكاغد لينتشر بعد ذلك في الناس والسلاطين وبلغ من الجودة في الصناعة امرا عظيما.

ثم يذكر لنا:" أن عناية أهل العلوم انتقلت بعد ذلك إلى ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها، وإسناد الأقوال إلى قائليها، وإسناد المتون إلى أصولها، وكان من ثمرة هذه العملة هي معرفة صحيح الأحاديث وحسنها من موضوعها، فظهرت بذلك تلك الأمهات الحديثة من كتب الفقه والحديث" ولهذا نجد الدواوين المنسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة منها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك، وأهل الأفاق يتناقلونها إلى الأن ويشدون عليها يد الصناعة "9

ويأتي كتاب " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" ،والذي يعدأضخم موسوعة وصلتنا في أدب الانشاء ومراسلات الملوك, تقع مطبوعته في زهاء تسعة آلاف صفحة في أربعة عشر مجلدا، طبع لأول مرة سنة 1910م أودع فيه القلقشندي القاهري (ت831هـ) أهم وثائق ديوان الإنشاء لمصر حيث

تولى رئاسة مصر في مطلع ق9 م، كما ضمنه العديد من رسائله الأدبية كرسالة المفاخرة بين العلوم في (ج14) وقسمه إضافة إلى المقدمة والخاتمة إلى عشرة مقالات، جعل المقالة الأولى في الكتابة وتاريخ ديوان الإنشاء ,المقالة الرابعة وهي أهم مقالات الكتاب وأضخمها إذ تضم مصطلحات المكاتبات الدائرة بين ملوك الشرق والغرب منذ بداية الإسلام مع فهرس معجمي لألقاب الملوك وأرباب المناصب، أما المقالة الثالثة فقد جعلها في ذكر الكنى والألقاب ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام، والبياض الذي يراعيه الكاتب كما تحدث في التاسعة عن قول الكتابة التي لها علاقة بالإنشاء (المقالات، الهزليات، الرسائل) وفي العاشرة عن فنون الكتابة التي لا علاقة بالإنشاء (كالبريد وتاريخه، الحمام الزاجل ومطاراته، الثلج وطرق حصله... إلخ

ينوه القلقشندي في مقدمة ج1 من الكتاب إلى أهمية صنعة الكتابة وعلو مرتبتها مستشهدا على ذلك بما ورد في الكتاب والسنة، وكلام العرب وأقوال السلف الصالح في مدح الكتابة والحث عليها، ولذلك أقسم الله عز وجل بها، كما أنها صنعة فضيلة حرص الملوك والسلاطين على تعلمها وإجادتها "قال الجاحظ "ومن أبين فضلها أن جعلت في علية الناس"[9]

كما يعظم من شأن أصحاب هذه الصنعة فيقول:" وإذا كانت الكتابة من بين سائر الصناعات بهذه الرتبة الشريفة، والذروة المنيقة، كان الكتاب كذلك" من بين سائر الناس، قال الزبير بن بكار: الكتاب ملوك، وسائر الناس سوقة"[10] ولقد خص القلقشندي الجزء الثاني من المقالة الأولى، فيما يحتاج إليه الكتاب من الأمور العلمية، وهو الخط وتوابعه ولواحقه، وفيه فصلان، الفصل الأول في ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله وما ينخرط في سلك ذلك وفيه ثلاث أطراف.

1-**الطرف الأول**: وقد جعله في الدواة وآلاتها، وقد أفاض في الحديث عن فضلها، وجعلها المقصودة بقوله تعالى في سورة القلم، على أن المراد بالنون في هذه الآية هي الدواة ,وهي أم ألات الكتابة، وسمطها الجامع لها، ولا يخفى ما يجب الإهتمام بأمرها والإحتفال بشأنها"[11]

أما بالنسبة لمواد صنعها فقد نصح بضرورة" أن يتخذ من أجود العيدان وأرفعها ثمنا كالآبنوس، والسياسم، والصندل، وهذا اعتمادا منه على ما مكان يعتاده أهل زمانه.... وقد غلب على الكتاب من أهل الإنشاء وكتاب الأموال اتخاذ الدوي من النحاس الأصفر، والفولاذ وتغالوا في أثمانها وبالغوا في تحسينها" [12]

وعموما كما يذكر الكاتب–فقد كانت الدوي المصنوعة من النحاس هي الأكثر استعمالا، أما الدوي المصنوعة من الخشب فقد تركت في زمان الكاتب ماعدا تلك الدوي المصنوعة من الآبنوس، والصندل الأحمر فإنه بقي مستخدم لدى القضاة خاصة .

ويطنب القلقشندي في وصف الدوي حتى أنه يذكر لنا تحليتها (الزخرفة–الزينة) وكيف ينبغي أن تكون طريقها، كما يصف لنا قدرها فيقول" سبيل الدواة أن تكون متوسطة في قدرها، لا بالقصيرة فتقصر أقلامها، وتقبح ولا بالكثيفة فيثقل محلها فتعجف، فلا بد لصاحبها أن يحملها ويضعها بين يدي ملكه أو أميره في أوقات مخصوصة... ويكون طولها بمقدار عظم الذراع، أو فويق ذلك بقليل[13] بل ويذكر لنا الكاتب هيئتها التي تنوعت بين التدوير، والتربيع، والإستطالة وما مدى مناسبة كل شكل من هاته الأشكال لبعض أنواع الكتابة دون غيرها ثم ينصح الكتاب بالإجتهاد في تحسين الدواة وتجويدها مستشهدا بقول الشاعر:

جود دواتك واجتهد في صونها *** إن الدوى خزائن الآداب

بل وكانت هذه الألة من الأمور التي شدت انتباه الشعراء فتغزلوا بجمالها، يقول أبو الطيب عبد الرحمن بن أحمد :

لم أر سوداء قبلها ملكت *** نواظر الخلق والقلوب معا

لا الطول أزرى بها ولا قصر *** لكن أتت للوصول مجتمعا

فوقك جنح من الظلام بها *** وبارق بائتلافها لمعـا

خذها لدر بها تنظمـه *** يروق في الحسن كلمن سمعا

كذلك يشير القلقشندي في معرض حديثه عن الدواة، إلى المحيرة التي كان يكتب بها القرآن الكريم والحديث والعلم وبأن هناك من استحسها لخفتها، وهناك من يستقبحها ويتشاءم منها، يمضي بعد ذلك في ذكر بعض الآلات التي تشتمل عليها وأولى تلك الآلات هو:"المزبر" وهو القلم أخذ له من قوله زبرت الكتاب، إذا أتقنت كتابته ومنه سميت الكتب زبرا، في قوله تعالى:"وإنه لفي زبر الأولين"16

وقد فصل في الحديث عن مكانته، وضرورته في الخلق لذلك أقسم به الله تعالى في سورة القلم:" نون والقلم وما يسطرون" وعن ابن عباس قال :" أول ما خلق الله اليراع، وهو القصب المثقب، فقال أكتب قضائي في خلقي إلى يوم القيامة"[17]

وإذا كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأعلامها رتبة، فإن القلم هو أشرف آلات هذه الصناعة، لأنه المباشر للكتابة دون غيره، من الآلات التي تعد بمثابة الأعوان له." ولله أبو الفتح البستي حيث يقول[18]

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم *** وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب عزا ورفعة *** مدى الدهر أن الله أقسم بالقلـم

ومن المصادر الخاصة في صناعة المخطوط والتي حفظها لنا التراث العربي في الحديث عن هذه الصناعة ,كتاب"عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب" وهو أحد أشهر المصادر التي اعتنت بتسفير المخطوط العربي، بمختلف أركانها وتفاصيلها ولذلك يعد من أهم مصادر الفن في الثقافة الإسلامية، وهو أحد المؤلفات القيمة في صناعة وتزويق الكتب في الحضارة الإسلامية لتضمنه حالات أقلام الخط، وترتيب وتجليد الكتب ومنه أخذ الأوربيون بعضا من خبراتهم في فن التجليد وقد وصفه صاحبه بما يلي:" وبعد فإني جمعت في هذا الكتاب المسمى: عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، مالا غنى للكتاب عنه مما لا بد منه مما يتعلق بالكتابة في الصنائع، وما يحتاج إليه الكاتب من البدائع والغرائب مما جربته وانتخبته وامتحنته مما لا يسع الكاتب تركه وإهماله، بل تكمل الكتابة بتعليمه وإتقانه، وقسمته إلى خمسة عشر بابا، كل باب يشمل على فصول وأنواع وطرائق ووجوه ونكتة عجيبة ونفيسة غريبة ، يسهل على طالب فن من الفنون استخراجه من بابه من غير تعب ولا مساس نصب ، والله تعالى الموفق وهو المسؤول لبلوغ المأمول[19]

ورغم اختلاف الباحثين في نسبة هذا الكتاب إلا أنهم رجحوه للمعز بن باديس وقد ذكر ابن خلكان الاسم الكامل للمؤلف بالشكل التالي : المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، وقال في حقه " وكان الحاكم صاحب مصر قد لقبه شرف الدولة، وسير له تشريفا وسجلا يتضمن اللقب المذكور وذلك في ذي الحجة سنة 407، وكان ملكا جليلا عالي الهمة، محبا لأهل العلم كثير العطاء ، وكان واسطة عقد بينه" [20]

لقد كام المعز بن باديس من الحكام الأدباء ومربيا فاضلا فعلى زمان حكمه كرم الشعراء والأدباء مما كان سببا في بروز شخصيات أدبية راقية المستوى من مثل أبن رشيق القيرواني في مؤلفه العمدة، والذي حظي بقسط وافر من اهتمام المعز ابن باديس قاضيا معه أغلب الأوقات.

ولد المعز بن باديس يوم الخميس من جمادي الأولى سنة 398 أو 399 هـ في المنصورة التابعة لإفريقيا، والتي اشتهرت قديما باسم (صبرة توفي في القيروان سنة 454 أو 455هـ، بمرض ألم بكبده، وقد رثاه ابن رشيق قائلا:[21]

لكل حي وإن طال المدى هلك *** لا عز مملكة يبقى ولا ملـــك
ولى المعز على أعقابه فرمى *** أو كاد ينهد من أركانه الفلـــك
مضى فقيدا وأبقى في خزائنــه *** هام الملوك وما أدراك ما ملكــوا
ما كان إلا حساما سله قـــدر *** على الذين بغوا في الارض وانهمكوا
كأنه لم يخض للموت بحر وغـي *** خضر البحار، إذا قيست به بــرك
ولم يجد بقناطير مقنطـــرة *** قد أرخت باسمه ابريزها السكــك
روح المعز وروع الشمس قد قبضا *** فانظر بأي ضياء يصعد الفلـــك

اعتنى المعز بن باديس بجميع ما يخص صناعة المخطوط، وذكر كل تفاصيلها كصفة انتخاب الأقلام الجيدة، واختيارها، واختلاف بريها على أجناس الخطوط، وصفة الدواة واختيار آلاتها في الرقة والغلظ والتبطين والطول والقصر، يقول" والأقلام إذا كانت مستوية جاء الخط قبيحا غيرمليح وإذا كانت محرفة جاء الخط ضعيفا ضاويا، فأحسنها وأجمعها اخصال الجودة المتوسط بين الطول والقصر، والرقة والغلظ، والتحريف والإستواء والمتبطن أشبه بخط الورق والدفاتر بالحبر، وأما غيرهما فلا يحتمل ذلك"[22]

ومن الكتب كذلك الرائدة في مجال صناعة المخطوط في تراثنا العربي كتاب " المخترع في فنون من الصنع " للملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت 694هـ/ 1294م) ، حيث يعتبر هذا الكتاب من أندر كتب الصناعات في التراث العربي الإسلامي وذلك لخوضه في جملة من الصناعات التي كانت متداولة في القديم ، اثبت مؤلفه أن العرب لم يهتموا فقط بالعلوم النظرية ولم يقصروا كل جهودهم عليها ، بل كان لهم اهتمام ودراية بالعلوم التطبيقية والتكنولوجيا ، يقع الكتاب في 280 صفحة ويتكون من عشرة فصول تناولت الفصول الستة الأولى وجزء من الفصل السابع الحديث عن " صناعة الكتاب " وما يتعلق بها من حيث نوعية الأقلام ، وجودتها ، وكيفية بريها ، ووسائل البري من السكاكين الخاصة ، كما عرض لطريقة صنع الحبر وما يتعلق به ، وكل أنواع الأصباغ

وطرق تحضيرها ،كما أبدع المصنف في شرح طريقة حل الذهب والفضة وكيفية لصقها على الكتاب كما تحدث عن مواد الكتابة السرية وعن المواد التي تستعمل في محو الكتابة وعن عملية تجليد الكتب.

ليتناول في الفصول المتبقية أنواعا من الصناعات التي كانت رائجة في زمانه وكان للعرب اهتمام بها كصناعة الأسلحة ، وهندسة أنواع المجانيق ، أو كصناعة الثياب والملابس وعرضه لكيفية تنظيفها بالبخار ، وقصرها وصبغها بالطرق المختلفة ، وكذلك تناول بعض الصناعات المنزلية ، وهنا تكمن أهمية وقيمة هذا المخطوط الذي حوى جزءا مهما من ذاكرة وتراث الأمة العربية في مختلف الصناعات.

وقد نسب جل المؤرخون هذا الكتاب " للملك المظفر " وهو يوسف بن عمر بن علي بن رسول من بني غسان (التركماني) ثاني ملوك الدولة الرسولية في اليمن تولى الملك بعد مقتل والده سنة (647هـ/ 1249م) ثار عليه أخوه المؤيد فقابل ثورته بالحزم مستعينا بالقبائل العربية حتى نجح في السيطرة على الجند وإخماد الفتن والاضطرابات التي عصفت بدولته ، حتى تمكن سنة 652 هـ/ 1254م من مد سيطرته إلى مكة ، ووصف بحسن السيرة والتعفف عن أموال الرعايا ، وكان يشبه بمعاوية بن أبي سفيان في حزمه وتدبيره .

كما كان شديد الاهتمام بالأماكن المقدسة حيث يروى أنه كان يعتني بكسوة الكعبة المكرمة، وجدد رخامها، وقد أثبت ذلك على الألواح الداخلية فسجل على لوح رخامي ما يلي: أمر بتجديد رخام هذا البيت المعظم العبد الفقير إلى رحمة ربه ، وأنعمه يوسف بن علي بن رسول، "اللهم أيده بعزيز نصرك، واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار " [23]

كما يذكر أغلب مؤرخوا العصر على اشتغال الملك المظفر بمختلف العلوم وبأنه كان يأخذ من كل علم بنصيب حتى عرف كذلك كطبيب، وكمحقق حيث يروي أنه كان دؤوبا على البحث شديد التحرير والاستقصاء فقد روي أنه اطلع على جزء من تفسير القرآن لفخر الدين الرازي فوجد فيه نقصا لم يطمئن اليه فأعاد مطالعة التفسير من أوله إلى آخره مطالعة محققة فرأى فيه نقصانا كبيرا فقابله على أربع نسخ كان يملكها تاج بن الأعز قاضي قضاة ديار المصرية بعد أن أرسل في استعارتها منه فرأى فيها النقص على حاله واعتقد المظفر بأن النقصان من الناسخ فأرسل قاصدا إلى خرسان[24]

كما ذكر بأنه اعتاد ابتعاث الرسل إلى خارج اليمن لتأتيه بكل نادرة في العلوم والفنون ويلاحظ بأن المؤلف قد اعتمد بشكل ملحوظ في كتابه هذا خاصة فيما يتعلق بصناعة الكتابة على كتاب المعز بن باديس" عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب " من ذلك قوله في صفة الأقلام الجيدة " والأقلام إذا

كانت مسنونة جاء الخط ضعيفا غير مليح، وإذا كانت محرفة جاء الخط ضعيفا ضاويا وأحسنها وأجملها لخصال الجودة المتوسطة بين الطول والقصر والرقة والغلظ والتحريف والاستواء والمحرف والمبطن أشبه بخط الورق والدفاتر بالحبر فأما غيرها فلا يحمل ذلك" [25] .وفي صفة سكين البري فيقول: "ينبغي أن تكون سكين البري من أجود ما يكون من الحديد وأحده وأعتقه، فائق الجودة، ويكون وسطها أرق من صدرها لأنها ان كانت على ما وصفت لك، تمكن باري القلم من بريه ونحته برقة"[26]

كما يطنب في وصف الأمدة، ومنها الكوفية ، ومنها الفارسية ومنها العراقية ولكل منها طريقة ومادة صنعها، بل وهناك من الأمدة ما يضع خصيصا للملوك، كذلك نجده يذكر لنا طرائق عديدة في حل الذهب منها قوله: " تأخذ من الذهب ما شئت وتلقي مثله مرتين زئبقا حيا وتسحقه سحقا ناعما، وتقربه من النار ، فهو يلزم بعضه بعضا حتى يكون جسما واحدا ثم تتركه يجف قرب النار، وبعد أن يجف تجعل عليه مثله مرتين زئبقا تسحقه سحقا ناعما حتى يكون الزبيق الجميع ، وترجعه على النار ثانية أيضا على نار ضعيفة لينة حتى يجف وتجعل عليه دستا لا زيادة وتسحقه حتى يكون مثل الذهب المداد الجاري ويكتب به والله الهادي "[27]

كما يذكر لنا حيلا في أسرار الكتابة كأن "يؤخذ الزاج الأبيض فيكتب به ثم يمسح عليه بماء العفص أو يكتب بماء العفص ويمسح عليه بشيء من الزاج ويذر الزاج أيضا وتظهر الكتابة ...أو تأخذ لبنا حليبا فتكتب به في قرطاس وابعث به إلى من تريد، فيذر عليه رماد القراطيس فتظهر الكتابة" 28 ومن المصادر الخاصة كذلك بصناعة التفسير كتاب" صناعة تسفير الكتب وحل الذهب" للفقيه أبي العباس أحمد بن محمد السفياني الذي يقول في معرض حديثه عن تأليف هذا الكتاب" هذا تقييد ما أطلعني الله عليه من عمل صناعة التسفير، وما كنت أكتمه عن من لا يمنع الانصاب ولا يدعي بتقصير، وكنت أتأمل في قول النبي (ص) حيث يقول:" من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة،..."[29]

يقع الكتاب في حوالي اثنان وعشرون بابا تطرق من خلالها إلى الحديث عن عملية تسفير الكتاب بداية من عمل الدفف، وفي كيفية حزم كراريس الكتاب وفي تتخيت الكتاب، وتنشية أصول الكراريس وفي كسوة الدفف بالجلد وفي تركيب السفر على الكتاب، كما تعرض لصفة حل الذهب في العسل وفي صفة الكتابة بالذهب المحلول وأورد عدة فوائد في شأن غراء الحوت وفي شأن غسل الجلد الذي زيته الدباغون، كما تحدث عن كيفية صنع الجلد بالألوان، كما أفرد بابا في عمل الترنجة، ليختم

كل ذلك باسداء نصائع للمتعلمين بخصوص هذه الصغة، ففي باب كيفية عمل الدفف يقول:" يعني بها ألواح من الكاغط الذين كانوا يكسوهم بالجلد على الكتاب وذلك بأن تأخذ الكاغط وتدهن الورقة بالنشا وتتركها عن يمينك، وتدهن ورقة ثانية، أعني التي تقابلها، وتنزل الوجه المدهون من الورقة على الوجه المدهون من الورقة الثانية، وتحط عليها بكفك وتقلبها للوجه الأسفل على الأعلى وتنظر هل فيه شيء من الرخوة فتمدده وتبسطه بكفيك حتى يمتدغاية الإمتداد ولا يبقى في الوجهين كماش، ولا رخو، فحينئذ تنزل الورقتين الملصقتين بعضهما ببعض.. [30]

ومن المصادر التراثية كذلك المتخصصة في هذه الصنعة كتاب التيسير في صناعة التسفير للشيخ بكر إبراهيم الإشبيلي وهو كتاب مخطوط صغير، يقع ضمن أربعة عشرة ورقة" والكتاب في وصفه ومادته، مرتب ترتيبا جيدا، فهو يبتدئ بمقدمة تتضمن الباعث على تأليفه، وفضيلة هذه الصناعة، وتسميته وينقسم إلى أبواب وكثير من أبوابه ينقسم إلى فصول بحسب الأغراض والمعاني التي نتناولها وهذا تعداد أبوابه وهي عشرون:1-باب الأداة 2-باب الأغرية 3-باب التحريم وحكمه 4- باب التقفية 5-باب التسوية 6- باب الحبك وحكمه 7-باب التبطين 8- باب البشر 9-باب تركيب الجلد 10-باب العمل في الأسفارالبوالي 11- باب طبخ البقم 12- باب النقش 13- باب نقش الضرس 14- باب الأمثلة 15-باب العمل في الأزرة والغرا16- باب العمل في أقربة المصاحف 17-بابر العمل في الأقربة المبنية 18-باب العمل في الجوامع 19-باب في النكت 20- باب في العيوب.

تبرز أهمية هذا الكتاب في تاريخ الصنائع والفنون عند العرب وتقييم الحضارة الإسلامية في المغرب بما وصلت إليه من التفوق في هذه الناحية الحضارية أضف إلى ذلك الثراء اللغوي من حيث الإصطلاحات الفنية وأسماء الأدوات التي تستعمل في هذه الصناعة، أما فيما يتعلق بترجمة المؤلف، فهذا كل ما ورد عنه" بكر بن إبراهيم بن المجاهد اللخمى من أهل إشبيلية، يكنى أبا عمرو، اديب شاعر له رواية سعد السعود بن غفير وأبي العباس أحمد بن جون، روى عنه جملة من شعره اجتمعت به بفاس، ثم رجع إلى إشبيلية فتوفي بها عام 628 أو 629هـ وكان يحترف بتسفير الكتب"32.

وهذا كل ما وصل إليه من معلومات مختصرة عن المؤلف ,وهي تفيد بأنه من أهل الأدب والشعر، يقول بكر الإشبيلي في شأن تأليف هذا الكتاب:" فهذه الصنعة الشريفة، والبعيدة الظريفة التي بوأها الله تعالى أعلى الرتب وخصها بأن تكون حجابا لكناية المنتخب ومع شرفها فلا يحملها إلا حاملا لكتابه الكريم أو من يشارك في شيء من التعاليم وقد سلكت بحمد الله تعالى وحسن عونه، منهج

الطريق، وأثبتت على كل معنى دقيق، وبوبت هذه الصنعة أبوابا، كل باب منها بفصوله كاملا يستوفي معاينه ليسهل ذلك على متعلمه- إن شاء الله- وسميته التسفير في صناعة التسفير"[33]

كما عثر مؤخراعلى مخطوط صغير الحجم(مورقات) كبير الفائدة تحت عنوان " زينة الكتبة" ترجع نسبته للعالم الكبير أبي بكر محمد بن زكرياء الرازي، الطبيب والكيميائي المعروف، المتوفي سنة 312هـ وقد أوردت بعض المصادر إسم " زينة الكتبة" كما جاء في " عيون الأنباء في عيوم الأطباء" لا بن أبي أصيبعة، وفي "هدية العارفين" للبغدادي ، ومن المرجح أن يكون هو نفسه كتاب " حيل الكتاب " الذي أورده البيروني في فهرسة لكتاب الرازي.

يقدم الرازي في هذه الرسالة للكتاب احتياجاتهم فيما يتعلق بهذه الصناعة من أحبار مختلفة فيذكر ما يصلح منها لأن يكون حاملا للكتابة وما لا يصلح ,وعن نوعية الأحبار المستخدمة للكتابة مباشرة وأخرى للحفظ الطويل، ورحلات السفر في حوالي 18 وصفة كما يقدم لهم 11 وصفة أخرى في صنع الأحبار السرية التي يبدو أنها كانت منتشرة في ذلك العهد ومنها حبر يظهر في الليل وآخر يختفي بعد مدة زمنية معينة، وعن طرق الكتابة بالدخان إلى جانب حيل أخرى.

ومن المخطوطات المتخصصة كذلك بهذه الصفة أرجوزة "تدبير السفير في صناعة التسفير" لأبن أبي حميدة، وهو نص منظوم تطرق فيه صاحبه لأهم مراحل هذه الصنعة، وهي مخطوطة جاءت من الناحية اللغوية في غاية الضعف، مليئة بالأخطاء ، مما يصعب عملية فهمها إضافة إلى عدم وضوح كثير من الكلمات وقد ورد إسم ناظمها في مقدمة أبيات هذه الأرجوزة.

التي يقول فيها :

يقول راجي رحمة المنان عبد الإله عابد الرحمان

ابن أبي حميدة الغريق في بحر إثم ما به طريق

كما يبدو أنه قد أفاد في نظمها من كتاب المدخل لمحمد بن الحاج العبدري حسب ما يقول :

وقدوة في مدخل بن الحاج كاف وكن منه على ابتهاج

خاتـــــمة

حوصلة لأهم النتائج :

- التراث المخطوط جزء من تراث الأنة ، ومقوم من مقوماتها لذا وجب المحافظة عليه ودراسته في جانبيه (النص ومضمونه ومحتواه العلمي واللغوي) ، وفي جانبه المادي الكوديكولوجي (العناصر المادية للكتاب من ورق ، حبر ، مداد ، تجليد ، تذهيب ...الخ) .

- الحضارة الإسلامية لم تقصر عنايتها على العلوم الدينية والمعارف العقلية ، بل امتدت لتشمل العلوم التطبيقية ،والصناعات اليومية ، كصناعة المخطوطات والاهتمام بتسفيرها .

- صنعة التسفير هي أحد أهم أركان صناعة المخطوط ، تجمع بين الجانبين الصناعي والفني ، وهي صناعة مهمة ، ازدهرت على عهد المدنية العربية ازدهارا كبيرا فلم تعد مجرد حلية خارجية لحفظ الكتب ، وإنما غدت فنا جميلا يدخل في عداد الفنون العربية كالأرابيسك ، بحيث يكون الكتاب متعة للنظر قبل الفكر ، وقيد للحس والعقل معا ، مبرزا معه رمزا من رموز الحضارة العربية المتميزة ، لأن التسفير العربي مختلف كثيرا عن التسفير الغربي في الكعب والقفا ، وفي الأطراف والخيط أو اللسان الذي يجعله القارئ فاصلا بين ما قرأ وما لم يقرأ .

- إن المدخل الرئيسي للفهم العلمي الصحيح لمعرفة المنهج الكوديكولوجي للمخطوط العربي ، ومعرفة كيف كانت العرب تصنع مخطوطاتها والمواد التي تستعملها في ذلك ، وطريقتها في الخط والنسخ ، وفي طريقة ترتيب الكتاب وتبويبه هو استجلاء لتلك التدوينات والمؤلفات التي ترجع إلى عصر المخطوط ، وصناعته وإلى المشتغلين بها ، إلى جانب الدراسات التاريخية والتطبيقية التي تدرس المخطوطات وتشتغل عليها .

- إن المؤلفات التي اهتمت بتسفير المخطوطات العربية وصناعتها يمكننا تقسيمها إلى قسمين :
– مصادر تراثية عامة ; وهي التي أوردت بعض التلميحات والإشارات الخاصة بهذه الصنعة ضمن أبوابها وفصولها ككتب الأدب والإنشاء ، كما هو الحال عند ابن خلدون في مقدمته ، وعند القلقشندي في كتابه صبح الأعشى – مصادر تراثية خاصة ; وهي التي اعتنت بصناعة المخطوط العربي بمختلف أركانها وتفاصيلها ، وأفردت لصنعة التجليد فصولا ومباحث كما هو الحال في عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب ، المخترع في فنون من الصنع ، تدبير السفير في صناعة فى التسفير ، التيسير في صناعة التسفير ، صناعة تسفير الكتب وحل الذهب ، زينة الكتبة .

هذا والله المستعان

التهميش:

1- ابن خلدون: مقدمة، تحقيق، د درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1423هـ/ 2002م ص: 386.
2- الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ/ 1922م، ج1، ص: 35.
3- ابن خلدون: المقدمة ص، 387.
4- ابن خلدون: المقدمة، ص:389.
5- ابن خلدون: المقدمة، ص: 389.
6- ابن خلدون: المقدمة، ص: 389.
7- ابن خلدون: المقدمة، ص: 391.
8- ابن خلدون: ص:352.
9- ابن خلدون: المقدمة،ص: 393.
9- القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص:37.
10- القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص:43.
11- القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص:430.
12- القلقشندي: صبح الأعشى،ج2، ص: 431.
13- القلقشندي: صبح الأعشى،ج2،ص: 433.
14- القلقشندي: ج2، ص:433.
15- القلقشندي:ج2، ص: 433.
16- القلقشندي:ج2،ص:444.
17- القلقشندي: ج2،ص:435.
18- القلقشندي:ج2،ص: 435.
19- المعز بن باديس التميمي الصنهاجي، عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، حققه وقدم له مجيب مايل الهروي، عصام مكتبة، نشر مجمع البحوث إيران، ذو القعدة، 1409هـ، مقدمة الكتاب ص20.
20- المعزبن باديس، عمدة الكتاب، ص:13.
21- عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، ص: 14.
22- عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب الصنهاجي، ص:28،27.
23- المخترع في فنون من الصنع: الملك المظفر، دراسة وتحقيق أ.د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط1، 1919م، ص: 23،22.
24- ينظر كتاب المخترع في فنون الصنع، ص: 23.
25- المخترع في فنون من الصنع: الملك المظفر، ص: 61.
26- المخترع في فنون من الصنع، ص: 64.
27- المخترع في فنون من الصنع، الملك المظفر، ص: 91.
28- المخترع: ص 93.
29- صناعة تسفير الكتب وحل الذهب، أبي العباس أحمد بن محمد السفياني ص: 3.

30- صناعة تسفير الكتب وحل الذهب، ص:05.
31- صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد 1959-1960، المجلد السابع والثامن، ص:04.
32- كتاب التيسير في صناعة التسفير، بكر الإشبيلي، ص:06.
33- كتاب التيسير في صناعة التسفير، ص: 10.

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم رواية ورش.
1-مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيقد. درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1423هـ- 2002م
2-صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1340هـ- 1922م، ج1، ج2.
3-عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب: المعز بن باديس التميمي الصنهاجي، نحقيق نجيب مايل الهروى، عصام مكية، نشر مجمع البحوث إيران، ذو القعدة 1409هـ.
4-المخترع في فنون من الصنع: المالك المظفر يوسف بن عمر بن علي رسول، تحقيق أد محمد عيسى صالحية، مؤسسة الشراع العربي الكويت، ط1، 1984.
5-صناعة تسفير الكتب وحل الذهب: أبي العباس أحمد بن محمد السفياني، د (ط، ت)
6-التيسير في صناعة التسفير: للشيخ بكر بن إبراهيم الإشبيلي، تحقيق عبد الله كنون الحسني 1959، 1960، نشر في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السابع والثامن.

الأسرة في ظل غزو الإلكترونيات
دراسة تحليلية

أ/ قجالي آمنة

قسم العلوم الإنسانية، جامعة أم البواقي- الجزائر

ملخص البحث

تستهدف هذه الورقة البحثية الكشف عن محددات العلاقة القائمة بين الأسرة والتكنولوجيات الحديثة للإعلام في مختلف الأبعاد من خلال التوضيح بالشواهد للتأثيرات النفسية والصحية والاجتماعية لتكنولوجيات الإعلام الحديثة على الأطفال والمراهقين، إشكاليات البث الفضائي وتلفزيون الواقع، الشباب والمرأة، العلاقات الاجتماعية والاتصالية الأسرية والانحراف في ظل الثورة الرقمية. صاغت الباحثة في إشكالية دراستها **تساؤلين محوريين** تمثلا في الآتي:

- ما هي التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال؟
- ما هي حدود تأثيراتها على العلاقات الاجتماعية والاتصالية داخل الأسرة ومن ثم تأجيج ظاهرة الانحراف الاجتماعي ؟

***الكلمات الدالة:** التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال، اللاتفاعل الأسري، الآثار الاجتماعية، الآثار النفسية.

***Résumé**

Ce document vise à révéler les déterminants de la relation entre la famille et les nouvelles technologies de l'information dans différentes dimensions en traitant leurs effets socio-psychologiques sur les enfants et les adolescents, la problématique des effets de chaînes satellite et télé-réalité sur les jeunes et la femme, les relations sociales et familiales communicatives et la révolution numérique. Le chercheur a formulé sa problématique étudiée en deux questions suivantes:

- Quelles sont NTIC?

- Quelles sont les limites de leurs effets sur les relations sociales et la communication au sein de la famille, puis est ce qu'elles alimentent le phénomène de la déviance sociale?

Mots clés : NTIC, La non-interaction familiale, Les effets sociaux, Les effets psychologiques.

مقدمة

تزداد أهمية الإنترنت على المستوى الدولي مع تنوع استعمالاتها، وازدياد عدد المستخدمين لها، ولا تنحصر أهمية الإنترنت في مجال تبادل المعلومات فقط، فهي تؤدي اليوم أدواراً سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية وثقافية بالغة التأثير في الأنساق الاجتماعية والأسرة بالذات باعتبارها الخلية الأساسية في هذه الأنساق ولها الدور الأولي في التنشئة الاجتماعية (Socialisation) الصائغة لنمط شخصية الفرد.

إن وجود الإنترنت والبث لفضائي المختلف الأبعاد والاتجاهات يمثل تحديا كبيرا للأسرة بصورة خاصة وللمجتمع كله بصورة أعم من خلال كيفية استخدامهما ، ومن يراقبهما وكيفية القيام بذلك وغيرها من الأسئلة المختلفة ذات الاتصال المباشر بموضوع حيوي تتحدد معالمه في معالجة ثنائية الأسرة والحداثة، وقد أُدرج هذا المصطلح؛ أي الحداثة لتفسير البُنى الجديدة والسلوكيات المكتسبة للأسرة في تكوينها وأدوارها والعلاقات داخلها ووظائف أفرادها. ورغم صعوبة تحديد معايير دقيقة للحداثة نظرا لاختلاف المرجعيات في بناء هذا المفهوم إلا أن المتفق عليه أن استعمال التكنولوجيات الحديثة للإعلام هو أولى مظاهر الحداثة.

ومن خلال ذلك ونظرا لأهمية هذا الموضوع في حياتنا اليوم ونتيجة لقلة إيلاء الاهتمام بهذا المجال وتداعياته على السلوك البشري بشكل جاد فقد ارتأت الباحثة أن تقدم صورة بانورامية عن مختلف أبعاد هذه الثنائية بالاستشهاد بنتائج دراسات عربية وغربية أجريت في ذات الصدد متطرقة إلى عدة نقاط هي:

1- الإطار النظري لمفاهيم الدراسة

2- التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال

3- التأثيرات النفسية والصحية والاجتماعية للتكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال على الأطفال والمراهقين

4-إشكاليات البث الفضائي وتلفزيون الواقع ، الشباب والمرأة

5-العلاقات الاجتماعية والاتصالية الأسرية والانحراف في ظل الثورة الرقمية.

الإطار النظري لمفاهيم الدراسة

ارتكزت البحوث العلمية حول التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال على نماذج ونظريات معاصرة منها:

أ- نموذج الحتمية التكنولوجية

وينطلق من قناعة بأن قوة التكنولوجيا هي وحدها المالكة لقوة التغيير في الواقع الاجتماعي، والنظرة التفاؤلية للتكنولوجيا تهلل لهذا التغيير، وتراه رمزا لتقدم البشرية، وعاملا لتجاوز إخفاقها في مجال الاتصال الديمقراطي والشامل الذي تتقاسمه البشرية. والنظرة التشاؤمية التي ترى التكنولوجيا وسيلة للهيمنة على الشعوب المستضعفة، والسيطرة على الفرد، فتقتحم حياته الشخصية وتفكك علاقاته الاجتماعية[1].

ب- نظرية المجال العام

صاغ الفيلسوف الألماني (جورجن هابرماس) (Habermas) نظرية المجال العام (Public sphere) عام (1962)، وهي تشرح وتصف نشأة وتكوّن الرأي العام وحالته، والمجال العام يتوسط في الواقع بين مجال السلطة العامة والحكومة، ونشأ في المجتمعات البرجوازية الأوروبية التي كانت تُمارَس فيها المناقشات حول السياسات الحكومية وفي رحابه تتبلور اتجاهات الرأي العام .

وعرّف هابرماس (Habermas) المناخ أو المجال العام بأنه مجتمع افتراضي أو خيالي ليس من الضروري التواجد في مكان معروف أو مميز (في أي فضاء)، فهو مكوَّن من مجموعة من الأفراد لهم سمات مشتركة مجتمعين مع بعضهم كجمهور، ويقومون بوضع وتحديد احتياجات المجتمع مع الدولة، فهو يبرز الآراء والاتجاهات من خلال السلوكيات والحوار، والتي تسعى للتأكيد على الشؤون العامة للدولة وهو شكل مثالي[2].

ويقسم هابرماس (Habermas) النظام المجتمعي إلى ثلاثة أنظمة فرعية هي: النظام السياسي ،أنظمة وظيفية كالتعليم والصحة والخدمات ،والمجتمع المدني.

وأشار هابرماس (Habermas) إلى أن نجاح المجال العام يعتمد على:

1– مدى الوصول والانتشار.

2– درجة الحكم الذاتي (المواطنون يجب أن يكونوا أحراراً، يتخلصون من السيطرة والهيمنة والإجبار).

3– رفض الإستراتيجية (كل فرد يشارك على قدم ومساواة).

4– الفهم والثقة والوضوح في المضمون الإعلامي.

5– وجود سياق اجتماعي ملائم[3].

وقد ساهمت الثورة الاتصالية الكبرى والتكنولوجيا الحديثة للإعلام وعلى رأسها الإنترنت في ظهور فضاء عام اجتماعي جديد يخضع لمثالية هابرماس(Habermas) .

ج– نظرية ثراء وسائل الإعلام

تدرس معايير الاختيار بين الوسائل الإعلامية التكنولوجية وفقاً لدرجة ثرائها المعلوماتي، وتوضح أن فعالية الاتصال يعتمد على القدر الذي تستخدم به الوسيلة. وتركز بشكل أكبر على الأشكال التفاعلية للاتصال في اتجاهين بين القائم بالاتصال والجمهور المستقبل للرسالة، وطبقاً للنظرية فإن الوسائل الإعلامية التي توفر رجع صدى تكون أكثر ثراء، فكلما قل الغموض كلما كان الاتصال الفعال أكثر حدوثاً، فثراء المعلومات يقوم بتخفيض درجة الغموض وإيجاد مساحة من المعاني المشتركة باستخدام وسيلة اتصالية معينة [4].

التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال

مع التطور الحادث في تكنولوجيا الاتصالات تطور مفهوم الاتصال ، ويمكن أن نعرفه بأنه عملية تفاعلية تشاركية لنقل وتبادل المعلومات، والآراء، والأفكار، والمشاعر، والأحاسيس بين طرفين أو عدة أطراف، سواء كان ذلك بشكل متزامن أم غير متزامن.

بينما تعرف التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال بأنها: التقنيات البصرية والمسموعة الهائلة القدرة على نقل كم هائل من المعلومات والبرامج الثقافية والتعليمية من خلال حيز إرسالي واسع؛ مما يزيد اهتمام المتلقي وتفهمه للحقائق والمعلومات ومشاركته في الاتصال(5).

وتعرف تكنولوجيا الاتصالات أيضا بأنها:القنوات الجديدة التي يمكن من خلالها نقل وبث الثورة المعلوماتية من مكان لآخر.

ويعرفها محمد عبد الحميد* بأنها العملية الاجتماعية التي يتم فيها الاتصال من بعد، بين أطراف يتبادلون الأدوار في بث الرسائل الاتصالية المتنوعة واستقبالها، من خلال النظم الرقمية ووسائلها من إنترنت،بث فضائي وهاتف محمول لتحقيق أهداف معينة(6) .

وتعرف الباحثة التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال بأنها: منظومة تضم الأجهزة الإلكترونية الرقمية، وبرمجيات تشغيلها، والإجراءات المستخدمة في معالجة المعلومات اللفظية وغير اللفظية، وما تتضمنه من معارف، ومهارات، وآراء، وأفكار، ومشاعر، وأحاسيس، وتخزينها ونقلها من مكان إلى آخر، كما تيسر الاتصال والتفاعل المتزامن وغير المتزامن بين طرفين أو أكثر في أي وقت ومن أي مكان.

وتنقسم التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال إلى فئتين رئيستين هما:

أ. تكنولوجيا الاتصال التزامني (Synchronous communication technology):وهي الوسائط التي تسمح بالاتصال والتفاعل المتزامن بين طرفين أو أكثر في نفس الوقت مثل: التخاطب الكتابي، والتخاطب الصوتي، والمؤتمرات المرئية، والهواتف الجوالة، والسبورة الإلكترونية(7).

ب. تكنولوجيا الاتصال اللاتزامني (Asynchronous technology communication): وهي الوسائط التي تسمح بالاتصال والتفاعل غير المتزامن بين طرفين أو أكثر في أوقات مختلفة مثل: البريد الإلكتروني، والقوائم البريدية، مجموعات الأخبار، والمنتديات، والمدونات الشخصية، ونقل الملفات إضافة إلى البث الفضائي.

وقد مرت تكنولوجيا الإعلام والاتصال بمراحل تاريخية متعددة. ففي البداية، استخدمت في النطاق العسكري ثم انتقلت إلى الحقل الأكاديمي في الجامعات والمؤسسات العلمية إلى أن امتدت إلى بداية التسعينيات والتي تضمنت تزايدا في أعداد غير الأكاديميين من الشباب والمراهقين والهواة، الأمر الذي دعا البعض بأن يسمي سنة 1995 بعام الإنترنت نتيجة للأعداد الكبيرة التي دخلت هذا المجال لأغراض متعددة . فمستخدمو الإنترنت في العصر الحالي يمكن تقسيمهم إلى فئتين أساسيتين:

مستخدمو الشبكة لأغراض ولأهداف واضحة ومحددة، سواء أكانت هذه الأهداف أهدافا أكاديمية، علمية، تجارية، أو إدارية أو غيرها؛ ومستخدمو الشبكة لأغراض ترفيهية، ولشغل وقت الفراغ ما أسفر عن تأثيرات خطيرة لها على السلوك الإنساني.

لتأثيرات النفسية والصحية والاجتماعية للتكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال على الأطفال والمراهقين

تلعب تكنولوجيا الإعلام دورا هاما في تغيير وتقويم السلوك الإنساني وذلك بتغيير المعارف والقيم عن طريق المناقشة والعلم، كما أنه تلعب دورا كبيرا في عملية التنشئة الاجتماعية في العصر الحالي كونها المنبع الأساسي الذي يكتسب الأفراد منه القيم الاجتماعية والعادات والاتجاهات والأنماط السلوكية الإيجابية والسلبية. وعلى الرغم من الاعتقاد بأن وسائل الإعلام بشكل عام تمثل أداة من أهم أدوات التنشئة الاجتماعية، توجد نزعة فكرية تقول أن وسائل الإعلام تمارس عملية تشويش على عملية التنشئة الاجتماعية وهو مايعرف بظاهرة اللاتنشئة (anti-socialization) .

وفيما يلي سنعرض أهم تأثيرات هذه التكنولوجيا على فئتي الأطفال والمراهقين:

أ. هيكلة الحياة النفسية والاجتماعية لدى الأطفال

من خلال عرضه ومراجعته لعدة أدبيات متعلقة بالتكنولوجيا وتأثيرها على سلوك الأفراد، ذهب باجان (Bajan) (1998) إلى أن التكنولوجيا والتقنيات الحديثة مثل الإنترنت، والهاتف المحمول، والوسائل الصوتية والبصرية المتحركة وغيرها من هذه التقنيات الحديثة قد أثرت بشكل كبير على حياة الإنسان وسلوكه وطريقة اتصاله بالآخرين، والتي أشارت أيضا إلى ارتباطها بالمعايير الاجتماعية والسلوك الاجتماعي.

وفي دراسة أخرى لـ سينجر (singer) (1998) أبرز من خلالها تأثير التلفاز النفسي والاجتماعي على الأطفال. فلقد خلص إلى أن مشاهدة التلفاز بشكل كبير، وقضاء ساعات طويلة أمام الشاشة، يؤدى إلى كثير من المشكلات النفسية المتعددة مثل السلوك العدواني، القلق، وكذلك الاكتئاب[8].

كما توصل الباحث الأسترالي (Erik Peper) إلى أن التلفزيون ينمي السلبية لدى الأطفال ويجعل ردود أفعالهم تجاه الطوارئ بطيئة [9].

أما عن تأثير استخدام الإنترنت وألعاب الفيديو على الأطفال ، فيرى الباحثون أن هذا الأمر يقود الى اضطراب وتغيير عادات النوم لدى الأطفال ناهيك عن المشكلات الدراسية وتدني المستوى التحصيلي لدى الأطفال ،كما أن الاستغراق في الإنترنت يؤدي إلى توقف الأطفال عن ممارسة الهوايات والأنشطة الأخرى المحببة لديهم ، في حين يمتنع أطفال آخرون عن التنزه والخروج إلى الحفلات ومقابلة الأصدقاء والتجوال في الأسواق ،كما يصاب بعض الأطفال بنوبات غضب وعنف عند محاولة وضع حدود وضوابط لاستخدام الشبكة أو ألعاب الفيديو من قبل الوالدين أو يتحايل بعضهم للدخول إلى الشبكة أو تشغيل ألعاب الفيديو من دون علماً الوالدين أو تحدياً لهم[10].

ب.الأساليب السلبية لتعامل المراهقين مع التدفق الإعلامي

يتضح من خلال نتائج دراسة أجرتها الدكتورة بن فليس خديجة من قسم علم النفس في جامعة باتنة في بحث[11] قدمته خلال الملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الإجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري في جامعة ورقلة ، أن المراهقين يميلون في غالبيتهم إلى استخدام أسلوب التقليد في التعامل مع الكم الإعلامي الهائل الموجه لهم . وقد يعود ذلك إلى مجموعة من العوامل من بينها شعور الشباب بالحرمان وفقدان الأمن النفسي والاجتماعي بالنسبة للحاضر والمستقبل والنظرة التشاؤمية للمستقبل ناهيك عن الشعور بالفراغ والفشل والدونية وعدم تقدير الذات النابع عن عدم إشباع حاجاتهم التربوية والثقافية والمهنية وغيرها، كما يمكن تفسير استخدامهم لهذا الأسلوب بنوع من الهروب من الواقع المعاش ومشكلاته إلى عالم افتراضي وهمي يشبع فيه حاجاته ولو بصورة غير مباشرة، فتحصل تغيرات في التنظيم الدينامي داخل الشاب المراهق، في الصفات الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية والخلقية له ، ولما كانت لشخصية هي الجانب الفردي من الثقافة فإن التأثيرات و التغيرات تنسحب أيضا على المعايير والقيم والعادات وهذا ما يلاحظ في أوساط أغلبية المراهقين فنجدهم يميلون إما إلى الانحلال والتفسخ وإما إلى التطرف والتشدد وكل ذلك من قبيل التقليد.

كما أسفرت هذه الدراسة عن أسلوب آخر هو الإدمان على استخدام الإنترنت وأشرطة (DVD) ومتابعة كل جديد في هذا المجال وهذا ما يتضح من خلال الإقبال الشديد على مقاهي الإنترنت وهذا يعكس ما سبق ذكره وهو معاناة المراهقين من الفراغ وبحثه عن وسيلة للتعويض.

ومنه توصلت الباحثة إلى كون التدفق الإعلامي زاد من تخبط المراهقين في أزمة تشكل الهوية لديهم.

ت.التلفزيون التجاري والإعلان بين التضليل وخلق الحاجة واستمالة الخوف

تقول دونا و. كروس (Donna W. Cross) الحقيقة هي أن الإعلان هو كذب مؤسسي، الكذبات مسامحة، بل تلقى التشجيع. لأنها تخدم حاجات الشركات. بل الحكومة منغمسة فيها لفائدتها ولمصلحتها الخاصة، وحتى الآن فإن كذب معظم الإعلانات التجارية التلفزيونية سواء مباشرة أو غير مباشرة هي حقيقة موثقة. يرى ويتقبل معظم الناس الإعلانات على أنها ليست حقيقية، ومع ذلك لأنهم لا يفهمون الطرق التي يتأثرون بها فإنها ما زالت مقبولة [12].

إن ذلك ما يخلق حاجة ملحة تغذي الثقافة الاستهلاكية والتضليل ما ساهم في تشويه بعضا من تقاليده وأعرافه فانتشار الأزياء والمنتجات الأمريكية والأوروبية جعلت الكل يلبس على الموضة الغربية، وظهور اللغة الفرنسية و الإنجليزية المطبوعة على ملابس الأطفال والمراهقين والشباب والتي تحمل أحيانا ألفاظا وجملا جنسية مثيرة للشهوة**، وتمس المشاعر والأخلاق الإسلامية العربية وتروج للإباحية في العلاقات بين الرجل والمرأة وتساهم في نشر ثقافة العنف أيضا.

من مظاهر شيوع الثقافة الاستهلاكية في أوساط الشباب الجزائري كذلك، تأثره بأنماط استهلاكية معينة في المأكل والملبس؛ ففي المأكل، طغت عليه ثقافة الأكل ومأكولاتها الشهيرة الهامبورغر(Humburger)، الأكل السريع (Fast Food)، بيبسي كولا (Pepsi Cola)، كوكا كولا (Coca Cola).... وغيرها من السلع والمنتجات الغربية الصنع. وفي الملبس، انتشار الملابس القصيرة والضيقة والشفافة، وإظهار السرة لدى البنات، ولبس الجينز (Jeans) لدى الأولاد خاصة، إضافة إلى صباغة الشعر لدى الجنسين، واتخاذ تصفيفات حلاقة مميزة تقليدا لشخصيات عالمية [13].

ث.الآثار الصحية

تتمثل أبرز الآثار الصحية لاستخدام التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال في الإصابة بضعف النظر نتيجة التعرض لمجالات الأشعة الكهرومغناطيسية قصيرة التردد المنبعثة من شاشات التلفزيون والكمبيوتر التي يجلس أمامها الفرد ساعات طويلة أثناء التعرض. أيضًا أنه من بين الأخطار الصحية على الطفل ظهور مجموعة من الإصابات بالجهاز العضلي والعظمي، حيث اشتكى العديد من الأفراد من آلام الرقبة [14].

وإصابة بسوء التغذية، فالفرد لا يشارك الأسرة في وجبات الغذاء والعشاء؛ بسبب انشغاله بالتعرض للوسيلة فيتعود على الأكل غير الصحي في أوقات غير مناسبة.

إشكاليات البث الفضائي وتلفزيون الواقع ، الشباب والمرأة

أصبحت تقنيات الاتصال ونقل المعلومات رافداً أساسياً، وركناً مهماً في بناء منظومة الإنسان الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، في ظل التحولات والتطورات المعرفية في هذا العصر. فمن المعلوم أنَّ العصور تطورت من خلال طفرات، الأولى منها الزراعية، ثم الصناعية، والآن المعلوماتية، أو ما يتصف بعصر المجتمع ما بعد الصناعي "The Post Industrial Society"، حيث شهدت المجتمعات الإنسانية خلال العقد الأخير من القرن الماضي، تطورات متسارعة ومتلاحقة لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، مما ساهمت في تسهيل إمكانية التواصل الإنساني والحضاري، ولعل أهمها يتمثل في البث الفضائي والأقمار الصناعية.

والإعلام التلفزيوني الفضائي العربي تطور في السنوات الأخيرة بخطوات سريعة وجريئة، أدّت إلى تغيير كمّي وكيفي ملحوظ . هذا التغيير أدى إلى توسيع إمكانيات المشاهد لاختيار القناة والبرنامج المرغوب به. هذا التنوع عزّز مبدأ التعرض الانتقائي للبرامج التلفزيونية بما يتماشى مع الاحتياجات والرغبات المختلفة لجمهور المستهلكين العرب.

وأثبتت العديد من الدراسات جملة من التأثيرات السلبية للبث الفضائي على فئتين رئيسيتين هما الشباب والمرأة ، والتي سنعرض أهم أبعادها كالآتي :

أ. أنماط إعلامية معولمة قلبت موازين القيم الثقافية والدينية

للتلفزيون طبيعة جاذبة يتميز بها على بقية وسائل الاتصال الجماهيري، فاستخدام الصورة الملونة، والخدع

الفنية، والإضاءة، وغيرها من وسائل الجذب والإغراء، تجعل المادة التي يحملها هذا الجهاز تحرك العواطف، وتلهب النفوس، وتغير التفكير، فتؤثر على ثقافة الإنسان، وبنيته الاجتماعية، ومعتقداته، بقدر ما تحمل من موجهات، وما تحوي من معاني، سلباً أو إيجاباً.

ومما يقوي أثر التلفزيون كوسيلة اتصال جماهيري ما يسمى بالأثر التراكمي أي أن تكرار المواد بنفسه بقالبها أو بقوالب مختلفة، يؤدي إلى ترسيخ تلك المواد، وزيادة نسبة تذكرها لدى المشاهد، وهذا يؤدي إلى أن يصبح التأثير عميقاً وقوياً ويزيد الأثر التراكمي في القنوات الفضائية بسبب اتساع وقت

البث التلفزيوني، حيث بلغت مدة البث في بعض القنوات أربعاً وعشرين ساعة خلال اليوم والليلة، مما يضطر معظم القنوات لإعادة بث برامجها . كما أن التقنية التي تستخدمها القنوات الفضائية في الإخراج التلفزيوني، وما يلازم ذلك من العوامل الفنية كالمونتاج، والإضاءة، وغير ذلك، يساعد على تقديم المضمون الإعلامي بشتى القوالب والأشكال التي تعمل على جذب المشاهد ولفت انتباهه، ومن ثم إرضاء ذوقه ثم حمله على المتابعة، ثم التأثير عليه .

إن بث البرامج الإعلامية الغربية عن طريق القنوات الفضائية ، كالأخبار والأفلام والموسيقى ، وغيرها من البرامج التلفزيونية ، يراد بها تشكيل النسق القيمي للجمهور الذي يستقبل تلك القنوات في الدول النامية، إذ إن هناك الكثير من الشواهد التي تبرهن على ذلك ، ومن هذه الشواهد نستعرض ما يلي:

تتحكم الولايات المتحدة الأمريكية على ٦٥ % من وسائل الاتصال السمعية والبصرية على مستوى العالم،ومن منطلق هذا التحكم تسعى لنشر قيمها ومبادئها.

صدر للرئيس الأمريكي نيكسون أثناء ولايته كتاب بعنوان (١٩٩٩ م)(نصر بدون حرب) أشار فيه إلى ضرورة بث القيم الأمريكية إذا ما أرادت أمريكا أن تكون زعيمة للعالم.

أخذت الشركات الإعلامية الغربية تبث رسائل إقناعية تروج لأيدولوجية النظام الرأسمالي ، وإشاعة أنماط استهلاكية ، وتحاول إضعاف الأعراف والثقافات الأخرى ، وهذا يمكِّن من تشكيل نسق قيمي على غرار ما هو موجود في الغرب.

في عام ١٩٨٨ م أصدرت السوق الأوربية المشتركة بياناً تحذر فيه من التهميش الذي تتعرض له الثقافات الأوربية من خلال الصور والرسائل الأمريكية ، علماً بأن هذه الصور والرسائل تتعرض لها أيضاً الدول العربية وبقية البلدان النامية [15].

وأثبتت عديد الدراسات العربية والجزائرية ذلك من أمثلة:

– دراسة د. علي عبد الله أبو سنينة في المملكة العربية السعودية بعنوان "تأثير القنوات الفضائية على القيم العربية والإسلامية لدى الشباب والأطفال"[16].

– دراسة د. عيسى شماس في سوريا بعنوان "تأثير الفضائيات التلفزيونية الأجنبية في الشباب"[17] .

– دراسة د. محمد خليل الرفاعي في سوريا بعنوان "دور الإعلام الرقمي في تشكيل قيم الأسرة العربية دراسة تحليلية"[18].

– دراسة د. محمد المسفر في قطر بعنوان " تحليل الرسالة الإعلامية تأثير الفضائيات العربية على الشباب العربي" [19].

– دراسة د. رحيمة الطيب عيساني في الجزائر بعنوان " تأثير الفضائيات على القيم الاجتماعية للشباب الشباب الجزائري نموذجا" [20] ، توصلت فيها الباحثة إلى أن الفضائيات أثرت سلباً على قيمة الالتزام في زرع قيمة العلاقات قبل الزواج.

– دراسة أ. سلطان بلغيث في الجزائر بعنوان "تمظهرات أزمة الهوية لدى الشباب الجزائري"[21]، توصل فيها الباحث إلى أن الإعلام عزز من ضياع الهوية لدى الشباب وعلى رأسه البث الفضائي .

– دراسة أ. جفال سامية في الجزائر بعنوان "التحديات الإعلامية العربية في عصر العولمة" [22]، توصلت فيها الباحثة إلى ضرورة صياغة أطر قانونية حامية للمواطن العربي من الغزو الثقافي عبر البث الفضائي.

ب. المسلسلات المدبلجة أدلجة للمفاهيم والقيم

لقد تجاوز عدد الفضائيات الناطقة باللغة العربية 260 قناة فضائية تعمل على مدار الساعة في سماوات مفتوحة، وتنقل الغث والسمين من البرامج والمسلسلات والمنوعات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، حتى أصبح المشاهد في سيل متلاطم من الرسائل الإعلامية والاتصالية التي تفرض وجودها وتأثيرها عبر أساليب ووسائل مختلفة.

واستحوذت هذه الفضائيات التي غزت معظم البيوت ببرامجها ومسلسلاتها المستوردة من خارج البيئة العربية على اهتمامات الكثير من المشاهدين وأضحت الشغل الشاغل لأعداد لا يستهان بها من الفتيان والفتيات. واتخذت الأسر وقادة الرأي موقف اللامبالاة إزاء ما تتضمنه البرامج والمسلسلات التي تبث من القنوات الفضائية العربية، وما تحمله من قيم ومفاهيم وعادات وتقاليد لا تمت بصلة إلى المنظومة القيمية والاجتماعية للأمة. إن نجاح هذه المسلسلات والبرامج في كسب الجمهور وتحقيق أهدافها يشكل خسارة كبيرة لمصالح الأمة وطموحاتها في بناء مستقبلها وتعزيز قيمها الأصيلة في مجالات الحياة المختلفة.

والتسويق الإعلامي للمفاهيم والعادات والتقاليد الوافدة يترك أثرا بارزا في البنى النفسية والفكرية والسلوكية للفرد العربي، في ظل تزايد المشاكل والمعوقات الثقافية والاجتماعية وحالة الانكسار النفسي والوجداني التي يعاني منها بسبب الإحباطات الكبيرة التي تعرض لها المجتمع العربي بفعل ترويض العقل

العربي للقبول بالأمر الواقع، وتعميق حالة التناقض بين طموحاته والإنجازات المتحققة في واقعه المعاش الذي يدفع إلى زيادة الإحباط والتردي الذي طال الفرد والجماعة.

وتشكل العديد من الفضائيات العربية اليوم قنوات لعبور الكثير من المفاهيم والقيم والعادات والتقاليد الغريبة عن مجتمعنا (الاختلاط، العلاقات غير الشرعية، أبناء الزنا، هوس الموضة...الخ) عبر سلسلة من الأعمال الدرامية المدبلجة من أمريكا الجنوبية والوسطى، إلى آسيا الشرقية وانتهى المطاف بالحمى التركية، ويشاركها في ذلك كم لا يستهان به من الإنتاج الإعلامي العربي الذي لم يرق إلى مستوى مسؤولياته الوطنية والقومية في مواجهة الوافد من الإنتاج التلفزيوني الأجنبي، وظل متخلفا فنيا وتقنيا إلا في بعض من إنتاجه المتميز كما هو حاصل في عدد بسيط من المسلسلات السورية والمصرية[23]

ت.تلفزيون الواقع : تحد للمرأة والشباب

تزامن ظهور "تلفزيون الواقع" مع بداية الألفية الثالثة عندما بثت قنوات فضائية عمومية وخاصة برامج لاقت نجاحا جماهيريا كبيرا من نوع "ستار أكاديمي (Star Academy) "و "(Loft Story)" و"سوبر ستار" و"الأخ الأكبر (Big Brother) " وهي برامج أصبح فيها المتفرج فاعلا أساسيا يدرب على العيش في المجموعة، يمر بفترات امتحان وتجريب تكلل إما بالنجاح أو الفشل. فهو امتحان صعب نحو الظفر بالشهرة والنجومية، كما تقدم هذه النوعية من البرامج نمط تنشئة غير مألوف يزاحم التنشئة المألوفة في المؤسسة العائلية والمؤسسة المدرسية، فضلا عن اعتمادها مبدأ التجسس أو التلصص (voyeurisme)على الحياة الخاصة وعلى الاختلاط بين شبان وشابات من كلا الجنسين في فضاء ضيق وعلى امتداد كامل فترات النهار وفي الليل في قيامهم وحتى في نومهم .

وينتمي برنامج "ستار أكاديمي" أو "سوبر ستار" في صيغته العربية إلى فئة برامج تلفزيون الواقع العالمية من طائفة (Big Brother) و(Loft Story) التي صممها الرأسمالي الهولندي صاحب (Endemol).

ويفسر نجاح "ستار أكاديمي" و"سوبر ستار" لدى الشباب بأن هذين البرنامجين نجحا في تفويضهما عن عناصر فقدت أو تضاءلت في واقعهم المعيش كتألق وضمان المستقبل ووجود القدوة. وعند الكهول، ربما نجحت هذه النوعية من البرامج في تحقيق التسلية، وعند المرأة جعلتها هذه البرامج تملأ كل وقت فراغها، وتوصل أحد الذين شاركوا في سجال فكري وقع على أعمدة الصحف العربية

حول تلفزيون الواقع، "وحدة عربية" في ظرف تأزم وإحباط وإهانة يعيشها العرب في الآونة الأخيرة بعد الأحداث المرعبة والدرامية التي وقعت والواقعة في العراق وفلسطين [24] .

أجمع المثقفون العرب على اعتبار أن هذه النوعية من البرامج لـ" تلفزيون الواقع المستوردة من الخارج تكرس أهداف الإمبريالية الثقافية التي تقوم على:

- إضعاف الانتماء وتفكيك بنية منظومة قيمنا الاجتماعية.
- تسوية الهوية وفصل الحدود بين الحياة الخاصة والحياة العامة بطريقة تستفز المرجعيات المألوفة في الاختلاط بين الجنسين وتقويض الذاكرة الجماعية، فوقع نعتها بالفاحشة والمنكر وبالاعتداء والاغتصاب.
- إهمال ربات البيوت لشؤون منازلهن تتبعا لكل تفاصيل حياة المشاركين في هذه البرامج 24/24 ساعة.

وتعالت أصوات إيقاف البرنامج ونجح في هذا الصدد البرلمان البحريني في إيقاف برنامج "سوبر ستار"، كما اضطر وزير الإعلام الكويتي للاستقالة من منصبه على إثر احتجاجات صدرت من الرأي العام حول برنامج "ستار أكاديمي" ومن بين هؤلاء الذين كتبوا عن الظاهرة في الصحافة العربية نجد من اختار منحى الأسلوب الساخر وفن الدعابة، أو من اختار إبراز الخلفيات السياسية والإيديولوجية والاقتصادية لتلفزيون الواقع. كما تحدث آخرون عن أرباح" خيالية" حققتها قناة LBCمن الإشهار والاستشهار وبعث الرسائل الخلوية والمشاركة في التصويت عبر الموزع الصوتي[25] .

العلاقات الاجتماعية والاتصالية الأسرية والانحراف في ظل الثورة الرقمية

أ. **انخفاض معدلات التفاعل الأسري**

إن مستخدمي تكنولوجيا الإعلام والاتصال قد سجلوا انخفاضاً في معدلات التفاعل الأسري، والدائرة الاجتماعية المحيطة مع علاقة مباشرة في معدل الوقت الذي يقضونه باستخدام الإنترنت. فإذا تم قضاء كل اليوم، على سبيل المثال، في استخدام الإنترنت، فإن النتيجة الحتمية لذلك هو تقلص الدائرة الاجتماعية للفرد والإصابة بالوحدة والتعاسة، والبقاء دون أصدقاء . فالإفراط في استخدام هذه التقنية سوف ينعكس على السلوك الإنساني وعلاقاته الاجتماعية، والذي يؤثر بشكل كبير على الأسرة التي ينتمي إليها الفرد [26].

ب.تدعيم الاغتراب والعزلة الاجتماعية

قد تناولت كثير من هذه الدراسات الغربية تأثير الإنترنت على مفهوم ما يسمى بالعزلة الاجتماعية كأحد التأثيرات السلوكية على سوء استخدام الإنترنت. ففي دراسة زمنية تتبعية، قام بها كراوت وزملاءه (Kraut et. al,)(1998) عن استخدامات الإنترنت لمائة وتسعة وستون فردا من 73 أسرة في مدينة بيتسبرج الأمريكية، وضح من خلالها الباحثون بعض التأثيرات الاجتماعية والنفسية لمستخدمي هذه التقنية خلال السنة الأولى والثانية من الاستخدام. فقد حاولت الدراسة تسليط الضوء على تأثير استخدام الإنترنت على مفهوم المشاركة الاجتماعية، والصحة النفسية للفرد[27] .

ولقد وضحت الدراسة إلى إن استخدام الإنترنت المطرد يرتبط مع انخفاض الاتصال بالمشاركة مع أفراد الأسرة داخل المنزل، وكذلك يسهم في التقليل من حجم الدائرة الاجتماعية التي ينتموا لها. فقلد أوضحت الدراسة على العلاقة بين كثرة استخدام الإنترنت وقضاء ساعات طويلة في استخدام الحاسب الآلي من جهة وبين زيادة معدل الاكتئاب، ومعدل الوحدة لدى الشخص من جهة أخرى. فكثرة استخدام الإنترنت وقضاء ساعات طويلة أمام الجهاز ارتبطت بالاكتئاب والوحدة الاجتماعية، واللذان يعتبران جانبين اجتماعيين نفسيين مهمين يؤثران على الصحة الخاصة بالفرد.

وفي الولايات المتحدة، جرت دراسة مسحية كبيرة قامت بها جامعة ستانفورد الأمريكية. فلقد وضح ناي واربينج (Nie and Erbing)(2000)- القائمين على الدراسة- على نتيجة أساسية تفيد بأنه كلما زاد متوسط عدد ساعات استخدام الإنسان للإنترنت، قل الوقت الذي يقضيه مع أناس حقيقيين وتكوين علاقات اجتماعية مباشرة معهم. فيحذر العالمان الأمريكيان بان الإنترنت سوف يخلق موجه كبيرة من العزلة الاجتماعية في الولايات المتحدة، وأن العالم من الممكن أن يتحول إلى عالم ذرات دون وجود دورا للعاطفة فيه. ويرى الباحثان بأنه قد اصبح لدى الكثير من مستخدمي الإنترنت أشخاصا بدلاء لتكوين العلاقات الشخصية معهم، وهؤلاء الأشخاص هم في الواقع موجودين عبر الشبكة ولا توجد حاجة للتفاعل وجهاً لوجهه معهم، والذي على أثره يضعف من الاتصال والعلاقة الاجتماعية المباشرة مع الأصدقاء والأقارب.

ولقد أشار ما يقارب من 14% من حجم العينة التي تتكون من 4113 شخصاً، بأنهم يقضون أكثر من 10 ساعات أسبوعيا باستخدام الإنترنت بينما أشار 30% منهم بأنهم يقضون من

5 ساعات فأكثر. ولقد أوضحت الدراسة أيضا إلى أن 34% من حجم العينة يقضون وقتاً أقل في قراءة الصحف والمجلات، فيما كان 59% منهم يقضون وقتاً اقل في مشاهدة التلفاز. وهذه إشارة إلى تأثير استخدام الإنترنت على انخفاض معدلات القراءة ومشاهدة التلفاز والنشاطات الأخرى (28).

هكذا خلصت هذه الدراسات إلى ارتباط استخدام الإنترنت بمفهوم العزلة والوحدة لدى الشباب والأطفال والمراهقين.

ت. آثار خطيرة للإدمان

دراسة كمبرلي – يونج (Young) (1996م) "إدمان الإنترنت"، وتوصلت الدراسة إلى أن إدمان الإنترنت يرتبط بكثير من الآثار السلبية، مثل: الانسحاب والتقوقع حول الذات، وقطع اتصاله بمجتمعه حتى أسرته، مع جفاف المشاعر، ويؤدي إلى الاغتراب والعزلة الاجتماعية، وبينت الدراسة بأنَّ طلبة الجامعات هم الأكثر تأثراً وتعلقاً بالإنترنت، مما يؤثر على مستواهم الدراسي، وإلى تغيبهم عن الدراسة، والكذب على الأهل، والانسحاب من البيئة الاجتماعية (29) .

دراسة كروات وآخرين (2004) حول "استخدام الإنترنت وعلاقاته مع الحياة الاجتماعية والنفسية"، وأشارت نتائجها إلى أن هناك دلائل يمكن الاعتماد عليها ضمن دراسات إحصائية، وهي أن مستخدمي الإنترنت يصبح لديهم تقلص في الدعم الاجتماعي وفي السعادة، ويزداد لديهم الشعور بالإحباط والابتعاد عن الأنشطة الاجتماعية المحيطة بهم.

ث. انتشار العنف، المخدرات والجريمة

ففي دراسة نشرتها مجلة طب الأطفال الأمريكية عام 1994 أجراها روبرت سيج ووليام ديتز (Dietz William & Robert Sege) حول تأثير مشاهدة العنف التلفزيوني على الأطفال قدّما توصيفاً لنمو الطفل وعلاقته بمشاهدة التلفزيون. وقد رأى الباحثان أن الطفل يكون في سنوات طفولته الأولى حساساً ومنفتحاً لأي حافز في بيئته، بحيث يسمح ذلك فيما بعد لنضج حواسه، ولكنه غير قادر على غربلتها كما يفعل الراشدون، أي انطباعات حسية يختبرها الطفل فإنها ستنبني في أنظمة حواسها (30). فترك الرضيع لينام أمام التلفزيون أو الطفل ذو العامين ليشاهد الصور المتدفقة عبر الشاشة الإلكترونية فإنها ستنفذ إلى أعماقه. ومن المهم أن يتعلم الرضيع والطفل

كيف يستخدم حاسة البصر، وكيف يتفوه الكلمات وذلك بالتفاعل مع استجابات الناس من حوله وهذا ما لا يحققه التلفزيون.

إذا كانت الأفلام التي تصنع لتعالج قضية المخدرات هدفها تحذير الشباب من هذا المنزلق , فإنها وبلا شك ساعدت على انتشار هذا الخطر بتعليم الشباب كيفية الشم وكيفية تعاطي هذه المخدرات بالاعتماد على النفس كضرب الإبر . وأكدت مفهوماً آخر وهو أن التجارة في هذه السموم هو أقرب الطرق للكسب ولتحقيق الرفاهية، أضف إلى ذلك أنها أكسبت تجار تلك السموم الطرق المختلفة التي يتم بها توزيع وتهريب المخدرات. وصارت المجتمعات تفيق كل مرة على جرائم هوليودية أو هندية أو آسياوية في بيئات اجتماعية مغايرة القيم والعادات والتقاليد.

ومن جهة أخرى تعمل القنوات بما تبثه من مسلسلات وأفلام على نمو الجريمة في المجتمع والمتفحص في الأفلام يجد أنها تتضمن أساليب خطيرة تنفذ بتقنية عالية جداً من خلالها يتعلم الأشخاص الذين لديهم استعداد لارتكاب الجريمة كيفية التنفيذ وذلك من خلال مضمون هذه الأفلام.

أوضحت إحدى الدراسات أن الطفل الذي يشاهد القنوات 27 ساعة في الأسبوع سيشاهد (100) ألف عمل من أعمال العنف من سن الثالثة حتى العاشرة [31].

وعلى سبيل المثال أجريت عدة دراسات حول تأثير برامج العنف والجريمة عقب انتشار القنوات التلفزيونية الخاصة وأشارت معظم هذه الدراسات على أن هذه البرامج أسهمت بصورة مؤثرة في زيادة الميل إلى الجريمة خاصة بين أوساط الأطفال والشباب.

***خاتمة**

خلصت الباحثة في النهاية إلى أن تطور وسائل الإعلام تلقائي ومحتوم ولا مفر منه، إلا أن غير التلقائي واللامحتوم هو التنامي الملحوظ لظاهرة خطيرة الآثار؛ وهي اللاتفاعل الأسري الناجم أساسا عن عادات وأنماط استهلاك الأفراد لتكنولوجيات الإعلام، والمحارب للانسجام والتواصل الأسري الطبيعيين بما يزيد بشكل حتمي من الانحرافات الاجتماعية. وإن أولويات النسق الاجتماعي هي التدخل الفوري بإعادة الاهتمام بالتربية داخل الأسرة، رعاية الشباب وهيكلة مؤسسات جمعوية ترعى نموه ونشاطه السليم.

وفي ذات المجال تقترح مجموعة توصيات منها:

1- إنشاء نوادي للفيديو والأقراص المدمجة في المدارس والنوادي والجمعيات تشرف عليها وزارتا تكنولوجيا الاتصال والتعليم، بحيث تكون مكتبات علمية وثقافية وفنية تعود الأطفال على مشاهدة المادة المفيدة، وتسهل لهم الاستفادة منها.

2- توجيه أنظار أولياء الأمور إلى خطورة استخدام الأطفال للفيديو والإنترنت دون رقابة منهم.

3- تشجيع وضع معايير وتصنيفات للبرامج التي يتم عرضها للأطفال والمراهقين متناسبة مع قيم مجتمعاتنا، وبحيث يتم إرشاد أولياء الأمور إلى مدى ملائمة هذه البرامج لمختلف الأعمار وهذا أمر معروف في الغرب.

4- وضع برامج تكوين متكاملة في كافة الأطوار التعليمية تهدف إلى تنشئة أفراد قادرين على التعامل المسؤول مع تقنيات الإعلام الحديثة، وتمكينهم من الاستخدام الواعي الناقد للمضامين الإعلامية.

5-تأسيس الجمعيات الوطنية لحماية المستمعين والمشاهدين من التلوث الإعلامي، والتي تكون مهمتها رقابية وناقدة لوسائل الإعلام، وموجهة لوسائل الإعلام المرئية والمسموعة، وتكون جمعيات شعبية، تتكون من المهتمين بتطوير خدمات الإذاعة والتلفزيون وتحمل مسؤولياتها الاجتماعية.

6-تشجيع البحوث والدراسات بين فرق مشتركة، على مستوى وطني وقومي وإسلامي ، من الباحثين في مجالات التربية وعلم النفس والاجتماع والإعلام لدراسة تأثيرات التلفزيون الإيجابية والسلبية على الأطفال والمراهقين والشباب في البيئة العربية .

***قائمة هوامش الدراسة**

(1) بشرى جميل الراوي، **دور مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير مدخل نظري**، www.philadelphia.edu.jo ، (تاريخ الزيارة: 2012/10/05).

(2) المرجع نفسه .

(3) Peter Dahlgren, **The Internet, Public Spheres, and Political Communication: Dispersion and Deliberation**, p149, http://www.cblt.soton.ac.uk , 01/10/2012

(4) أولجاجوديس بيلي ، بيلي كاميرتس ، نيكوكاربنتيير، **فهم الإعلام البديل** ، تر علا أحمد إصلاح ، مجموعة النيل العربية، القاهرة ،مصر ، 2009، ص 71

(5) عبد القادر صالح،عبد المنعم، **توظيف التقنيات الحديثة في تقنية الاتصالات والمعلومات لزيادة فعالية الوسائل السمعية البصرية المتاحة في التعليم**، بحث مقدم للمؤتمر العلمي السنوي الثامن (المدرسة الإلكترونية)، القاهرة، مصر، 29-31 أكتوبر 2001.

* أستاذ جامعي، دكتور، وباحث مصري شهير ، ترأس العديد من الهيئات العلمية، عمل معظم مسيرته بجامعة حلوان.

(6) محمد عبد الحميد، **الاتصال والإعلام على شبكة الإنترنت** ، عالم الكتب، القاهرة ، مصر، 2007، ص 26.

(7) المرجع نفسه، ص 30-31.

(8) حمود فهد القشعان، **مدى تلبية التكنولوجيا الإلكترونية لحاجة المراهقين** ، ورقة مقدمة لندوة مستجدات الفكر الإسلامي التاسعة: تحت عنوان الإعلام القيمي بين الفكر والتجربة ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، www.wasatiaonline.net/news/details.php?data_id=1128، (تاريخ الزيارة: 2013/02/14).

(9) صالح خليل أبو أصبع، **التلفزيون وتأثيره في حياتهم وثقافتهم**، www.isesco.org.ma/pub/ARABIC/.htm ، ص 37.

(10) المرجع نفسه، ص 10.

(11) خديجة بن فليس، **أساليب تعامل المراهقين مع التدفق الإعلامي وأثرها على تشكل الهوية لديهم** ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 27-28 فيفري 2011، ص 65-70.

** أمثلة هذه العبارات : قبلني kiss me ، أحبك i love you ، إلمسني وسأقتلك touch me and i'll kill you...

(12) صالح خليل أبو أصبع، مرجع سبق ذكره، ص 32.

(13) آمنة ياسين بلقاسمي، مزيان محمد ، **العولمة الثقافية وتأثيراتها على هوية الشباب والمراهقين الجزائريين دراسة تحليلية** ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، ع 08 ،جامعة قاصدي مرباح ورقلة، جوان 2012 ، ص 53.

(14) معصومة سهيل عبد الله المطيري، **أثر الإعلام العربي في تنشئة الطفل**، www. faculty.ksu.edu.sa/doc ، (تاريخ الزيارة: 2013/02/28).

(15) مجذوب بخيت محمد توم، **طرق التأثير في القيم الثقافية والدينية في التلفزيون العربي**، مجلة العلوم والبحوث الإسلامية، ع 02، فيفري 2011 ، www.slamicjournal.sustech.edu/content_details.pdf ، (تاريخ الزيارة: 2013/03/03).

(16) علي عيب الله أبو سنينة ، **تأثير القنوات الفضائية على القيم العربية والإسلامية لدى الشباب والأطفال**، www. faculty.ksu.edu.sa ، (تاريخ الزيارة : 2013/03/21) .

(17)عيسى شماس، **تأثير الفضائيات التلفزيونية الأجنبية في الشباب**، مجلة جامعة دمشق، ع02، مجلد 21، 2005، ص ص 12-44، *www.damascusuniversity.edu.sy.pdf* ،(تاريخ الزيارة: 2013/03/22).

(18) محمد خليل الرفاعي، **دور الإعلام الرقمي في تشكيل قيم الأسرة العربية دراسة تحليلية**، مجلة جامعة دمشق، ع 01+02، مجلد 27 ، 2001، *www.damascusuniversity.edu.sy.pdf* ، (تاريخ الزيارة: 2013/03/22).

(19) محمد المسفر، **تحليل الرسالة الإعلامية تأثير الفضائيات العربية على الشباب العربي**، مجلة المفكر، ع 03، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص ص 32-61.

(20) رحيمة الطيب عيساني ، **تأثير الفضائيات على القيم الاجتماعية للشباب الشباب الجزائري نموذجا**، بحث مقدم لمؤتمر تقنيات الاتصال والتغير الاجتماعي، جامعة الملك سعود ، قسم الإعلام، الرياض، المملكة العربية السعودية، 15-2009/03/17.

(21) سلطان بلغيث ، **تمظهرات أزمة الهوية لدى الشباب الجزائري**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 27-28 فيفري 2011، ص ص 348-363.

(22) جفال سامية ، **التحديات الإعلامية العربية في عصر العولمة**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 06، جامعة محمد خيضر بسكرة، جانفي 2010.

(23) زهير حسين ضيف، **المسلسلات المدبلجة تسويق إعلامي للمفاهيم والقيم** ، مقال تحليلي لرئيس قسم الصحافة في جامعة البحرين الأهلية، www.aljazeera.net ، (تاريخ الزيارة: 2013/03/21).

(24) أحمد خواجة، **تلفزيون الواقع بين الواقع واللاواقع مساءلات لروابط الصورة التلفزيونية بالتنشئة العائلية والمدرسية**، مقال تحليلي ، 2005 ، www.afkaronline.org/arabic/archives/mar-avr2005/khweja.html ، (تاريخ الزيارة : 2013/03/23).

(25) المرجع نفسه .

(26) حمود فهد القشعان، مرجع سبق ذكره.

(27) المرجع نفسه.

(28) المرجع نفسه.

(29) فايز المجالي، **استخدام الإنترنت وتأثيره على العلاقات الاجتماعية لدى الشباب الجامعي دراسة ميدانية**، مجلة المنارة، ع 07 ، مجلد 17 ، 2007، ص 169-170. /web2.aabu.edu.jo www.manar/suportFile/1374.doc ، (تاريخ الزيارة: 2013/03/24).

(30) صالح خليل أبو أصبع ، مرجع سبق ذكره ، ص 33.

(31) معصومة سهيل عبد الله المطيري، مرجع سبق ذكره.

العلاقات التجارية بين الجزائر وإسبانيا بين 1786–1830

د/عبد القادر فكاير

أستاذ التاريخ الحديث ومعاصر

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية /جامعة خميس مليانة

مقدمة:

رغم أن العلاقات بين الجزائر وإسبانيا خلال العصر الحديث في المجال العسكري تعود إلى بداية القرن السادس ، إلا أن العلاقات الاقتصادية بينهما والتجارية منها على الخصوص ترجع إلى تاريخ متأخر خلال الفترة العثمانية ، أي أواخر القرن الثامن عشر ، وبالتحديد إلى سنة 1786، وهو تاريخ إبرام أول معاهدة صلح بين البلدين، بعدما كانت العلاقات بينهما علاقات حربية منذ احتلال الإسبان للمرسى الكبير سنة 1505، وما تبعه من سلسلة الهجمات على السواحل الجزائرية ، واحتلال بعض من المدن الواقعة في النطاق الساحلي كوهران وبجاية. وقد فتحت المعاهدة المجال للبلدين نطاق التبادل التجاري ، بعد ما التحق العديد من القناصل الإسبان بمدينة الجزائر ووهران وعنابة ، مثل "مانويل دي لاس هيراس" (Manuel de las Heras) "مانويل أسبرير إيخانير" Manuel Asprer y (Janer) "ميغويل لاريا سالسيدو" (Miguel Larrea Salcedo) "خوسي ألونسو أورتيز" (José Alonso Ortiz) ، بعدما كان الوجود القنصلي الإسباني بالجزائر منعدما من قبل نظرا لحالة الحرب التي كانت سائدة بين البلدين . وقد زادت معاهدة سنة 1792 التي أبرمت بينهما إثر تحرير وهران النهائي من الوجود الإسباني، من وتيرة العلاقات التجارية . حيث أقامت العديد من الشركات التجارية الإسبانية مراكز لها في الجزائر مثل شركة "كامبانيا" (Campana) وشركة "غاريغو" (Garrigo). أما من الجانب الجزائري فقد تولت شركة بكري وبوجناح نشاطها مع بعض المدن الساحلية الإسبانية مثل قرطاجنة وأليكانتي. سنتعرف في هذا البحث على أهم السلع المتبادلة بين البلدين بين سنتي 1786 و1830 وأهم المدن الساحلية التي كانت تصدر وتستقبل السلع.

طبيعة العلاقات التجارية بين البلدين وتطورها:

كانت العلاقات التجارية للجزائر مع الخارج في الربع الأخير من القرن الثامن عشـــر تتم مع أوربا بواسـطة الأجانب ، الذين أقاموا مراكز لهم في الموانئ الجزائرية مثل الشـركة الملكية الإفريقية ، ثم الوكالة الإفريقية التي خلفتها سنة 1794 . إلى جانب ذلك كانت المراكب الجزائرية تقوم بدور لا يستهان به في عملية نقل البضـائع من ميناء الجزائر وإليه ، من أشـهرها شـركة بكري وبوشـناق التي زاد نشـاطها أثناء حروب الثورة الفرنسية ، لتزويد فرنسا وإيطاليا وكذلك أسبانيا بمختلف أنواع الحبوب، وذلك على متن بواخر دول أخرى . وقد سـعى التجار الجزائريون أن يكونوا أسـطولا تجاريا خاصـا بهم لتسـويق بضـائعهم ، لكن الغرفة التجارية لمدينة مارسيليا عرقلت نشـاطهم ، كما أنهم لم يتمكنوا منافسة التجار اليهود الليفورنيين الذين هم متفوقون في تســـويق حتى البضـــائع الرديئة ، كما أن يهود الجزائر كانوا يضـغطون على الداي كي يطلب من السـلطات الفرنسية أن تمنع هؤلاء التجار من فتح محلات تجارية في موانئها . وقد أدى احتكار الأجانب للتجارة الخارجية الجزائرية إلى تدنى أســـعار المواد المصـــدرة وارتفاع أسـعار المواد المسـتوردة[1]. ومن ناحية أخرى يلاحظ هيمنة مرسـيليا على النشـاط التجاري للموانئ الجزائرية ويتجلى ذلك في ذكر نموذج ميناء الجزائر، من حيث نسـبة السـفن التي قدمت من مرســيليا إلى الجزائر أو التي عادت من هذه الأخيرة في اتجاه مرســيليا والتي بلغت 86% ، واحتل ميناء ليفورن الإيطالي المرتبة الثانية بنسـبة10% ، وميناء جنوة 0,5% ، واحتلت الموانئ الأسـبانية مجتمعة نسـبة 2% [2]. وقد ورد في أحد المؤلفات الأوربية تشـكيلة الأسـطول التجاري الجزائري من حيث عدد وأنواع السفن خلال الفترة ما بين 1808-1810، نوضحه في الجدول التالي[3]:

السفينة	العدد
Brigantine	2
Xebeck	3
Corvette	1
Felucca	2
Shooner	3
Pink	3
Polacca	6

Sereau	1
Tartan	1
Vessel	2
المجموع	24

هذه هي وضـــعية التجارة الخارجية للجزائر مع الأمم الأوربية عشـــية انتعاش العلاقات التجارية للجزائر مع أسبانيا والتي انطلقت بعد توقيع الطرفين لمعاهدة الصلح سنة 1786.

كانت أسـبانيا تعاني خلال النصـف الأول من القرن 18 من الجفاف من حين لآخر، وهذا ما جعلها تلجأ إلى استيراد القمح والشعير من أجل تغطية حاجتها من هذه المحاصيل الزراعية . كما أن طرق الزارعة المتبعة والوسائل المستعملة تسببت في محصول زراعي ضعيف بصفة مستمرة . وفي النصف الثاني من القرن شـهدت الزراعة انتعاشـا لم تشـهده من قبل . فقد كان للتأثير الفرنسـي دوره ، حيث أدى إلى إنشـاء شـركة أصـدقاء البلاد (Société d'amis du pays) التي سـاهمت بشـكل خاص إلى تحسين التقنيات الزراعية . كما سعت الحكومة الأسبانية من خلال سياستها الزراعية إلى إطلاق أعمال كبرى للري ، والتي استمرت إلى نهاية القرن المذكور.

وفي المقابل كانت الجزائر في هذه الفترة يعتمد اقتصادها على الفلاحة بالدرجة الأولى ، نظرا لتوفرها على مساحات فسيحة من السهول مثل سهل عنابة في الشرق وسهل متيجة في الوسط وسهل غريس بمعسكر في الغرب . والتي كانت تزرع فيها الحبوب بأنواعها المختلفة خاصة القمح والشعير . بالإضافة إلى طبيعة مناخها الذي يسمح بقيام زراعة تعتمد على الري الطبيعي . كما كانت تحتوي على مراعي تزخر بأنواع مختلفة من الحيوانات مثل الأغنام والأبقار والمعز[4]. وكانت هذه الحيوانات مصدرا لمحاصيل اقتصادية أخرى مثل الجلود الصوف والشحم التي كان طلب الأسواق الخارجية عليها شديدا ، منها الأسواق الأسبانية التي اهتمت بشراء المحاصيل الجزائرية بعد توصل البلدان إلى إبرام معاهدة الصلح بينهما في سنة 1786.

وجاء هذا التحول في العلاقات بين البلدين في نهاية القرن الثامن عشـر إثر انتقال أسـبانيا من العمل العسـكري العدائي ضـد الجزائر ، وخروجها عن صـورتها التي كانت عليها في السـابق ، وعن تقليدها العســكري القديم الذي يمتد إلى عدة قرون، وبالتحديد منذ عهد إيزابيلا الكاثوليكية إلى

الأسلوب الديبلوماسي السلمي، الذي سمح بربط علاقات اقتصادية على غرار العلاقات السياسية . وقد نجم عن هذه الحالة استقرار العديد من الأسبان في الجزائر . بل إلى استقرار مؤسسات تجارية أسبانية تولت نقل مختلف البضائع الجزائرية إلى العديد من الموانئ الأسبانية.

ورغم تلك الخلفية التاريخية العسكرية بين البلدين فقد توصل البلدان إلى إبرام معاهدة سنة 1786. والتي حددت طبيعة العلاقات بينهما ، ووضعت إطارا للتجارة، كما نصت المادة السابعة من المعاهدة المذكورة[5]

ولتنشيط الحركة التجارية مع الجزائر وخاصة من أجل استيراد القمح تأسست في أسبانيا شركة غوبينتش[6] ، وكانت هذه الشركة في بداية الأمر تقوم بإعطاء الضمانات الضرورية ، ومراقبة سوق الحبوب لدى حكومة فلوريدا لانكا . وفي نهاية سنة 1790 تمكنت الشركة من احتكار جميع مشتريات القمح من مدينة الجزائر وأرزيو[7]. وقد أصبحت الزبون الثاني من الجزائر بعد الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية التي تتركز أساسا في بايلك قسنطينة.

ونظرا لأهمية التجارة مع إيالة الجزائر طلب القنصل الأسباني في الجزائر لاس إيراس (Las Heras) إرسال مندوبي الشركة إلى الجزائر من أجل اقتناء البضائع وتقديم الهدايا . واقترح عليها تنصيب مندوب عنها في مدينة الجزائر وآخر في أرزيو . غير أن التأخر في دفع ديونها للجزائر جعلت الداي يعلن عن استيائه لهذا الأمر . وهذا ما ساهم في عدم تأسيس غرفة تجارية أسبانية في الجزائر من قبل الحكومة الأسبانية[8] . وظلت الأمور على حالها إلى غاية توقيع اتفاقية سنة 1791 .

وقد أعطت هذه الاتفاقية وجها جديدا للعلاقات الاقتصادية بين البلدين . حيث أصبحت السلطات الجزائرية تسمح للتجار الأسبان بشراء القمح، ليس فقط من الموانئ الغربية للجزائر ، بل سمحت لهم بشراء هذه المادة من المناطق الشرقية مثل عنابة والقالة التي كانت تهيمن عليها الشركة الملكية الفرنسية . حيث جاء في إحدى الوثائق : << لقد علمنا أن الأسبانيين قدموا إلى عنابة وحصلوا على إذن لشراء الحبوب ، وأنهم يتبايعون مع الباي مباشرة ، وأن بواخرهم المتعددة تحمل ما يباع إليهم ، ونتيجة لذلك لم نحصل على المقدار النصوص عليه في الاتفاق المبرم في الجزائر >>[9]

مؤسسات التبادل التجاري:

لقد سمحت معاهدة سنة 1791 بتوسيع النشاط التجاري بين البلدين ، أما من جهة الأسبان فإن تجارهم قد فتح لهم المجال ، فتقاطروا على الجزائر أكثر من أي وقت مضى ، وأكثر من هذا فقد تغلغلت عدة شركات تجارية أسبانية في الجزائر ، ومن الجانب الجزائري فقد ساهمت شركة بكري

وبوجناح في نقل السلع من الموانئ الجزائرية إلى بعض الموانئ الأوربية ومنها الأسبانية ، وفيما يلي ذكر لهذه المؤسسات:

1 . شركة كامبانيا (Campana)[10]:

استقرت هذه الشركة في مدينة الجزائر في بداية سنة 1792 ، وتمكنت من مد نشاطها إلى وهران ، حيث فتحت مكتبا لها مماثل لمكتبها في الدار البيضاء بالمغرب . وعند شروعها في نشاطها بالجزائر استقبل مبعوث الملك الأسباني من قبل الباي محمد الكبير ومعه بعض الهدايا باسم ملك أسبانيا. وتمكن من الحصول على مقر للشركة الذي كان عبارة عن مستودع عسكري قديم . وكان اهتمام هذه الشركة منصبا على الخصوص بمادتين أساسيتين هما الحبوب والمواشي . واتفق الباي مع مندوب الشركة على تحديد أسعار السلع التي يتم بيعها لمكتب الشركة . وهي على الشكل التالي : البقرة بـ 130 ريال ، الخروف بـ36 ، الجلود بين 7-15 ريال ، الشمع بـ 600 ريال للقنطار ، القطن بـ 140 ريال ، الشعير بـ 15 ريال ، القمح بـ 30 ريال . وذلك لمدة سنة كاملة [11]. ولما كانت العملة الأسبانية البياستر القوي[12].هي المسيطرة على الأسواق الجزائرية ، وكذلك في سائر أسواق البحر المتوسط . فقد أثر هذا على الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية ، خاصة بعد تجريدها من صيد المرجان إثر خلافها مع الجزائر[13] ، وقد اضطر المنتجون أن ينقلوا حبوبهم إلى العاصمة أو إلى أسواق الغرب الجزائري ليبيعونها للأسبان . وقد استغل الأسبان هذا الوضع ومدوا نشاطهم إلى الشرق الجزائري[14] .

وهناك اتفاق آخر ذا أهمية يمكن تشبيهه بما يعرف اليوم بمصطلح الشراكة ، فقد اتفق الباي مع الشركة المذكورة على إقامة مبنى مناصفة من حيث التكاليف لإقامة مصنع للصابون . وبعد مرور ثمانية أشهر بالجزائر أنشأت الشركة غرفة للتجارة بوهران ، وقبل عودة مندوب الملك إلى بلاده عين على رأس المكتب بوهران دومينغو رومان(Domingo Roman) يساعده عشرة موظفين. وقد تعزز نشاط هذه الغرفة مع مرور السنوات وتطورت مقادير نفقاتها حتى بلغت الملايين من الريالات[15] .

إلى جانب ما ذكرناه أدخلت الشركة إلى الجزائر أصحاب المهن التي كان الباي في حاجة إليهم ، حيث وصل إلى وهران أكثر من 60 رجل من مختلف المهن ، أغلبهم مختصين في البناء ، يذكر أن الباي استفاد من خبراتهم في بناء المدينة المدمرة بفعل الزلزال[16] . كما سعى محمد الكبير بمساعدة هؤلاء الحرفيين على تطوير بعض الصناعات المحلية ، فقد حاول الحصول على مدافع مصنوعة من

المعادن المحلية ، فقد اشترك مع اثنين منهما خوان رويث (Juan Ruiz) يوليان بيلاريال (Julien Villareal) لكن هذه التجربة لم تعط النتائج المنتظرة[17] .

لم يدم مكتب وهران التابع للشركة طويلا ، إذ أن امتياز نشاطها التجاري قد توقف في نهاية سنة 1793، وذلك يعود تصرفات القنصل الأسباني ، الذي اشتكاه الداي لدى الملك عن بعض التصرفات الغير اللائقة من قبل القنصل التي أزعجت السلطات الجزائرية ، منها عدم احترامه لقرار باي الغرب (وهران) عند منعه التجار الأسبان من شراء القمح، لما رفضوا دفع ألف سكين الشهري المتفق عليه. وقد أعلم الداي الملك بأنه قرر إلغاء البند المتعلق باحتكار الأسبان للتجارة بوهران ، وأن كل الناس أحرار في البيع والشراء [18].

وقد أدت تداعيات الخلاف إلى تصفية مكتب الشركة في وهران ، ففي ديسمبر 1794 تلقى "بيدرو سيكابايق"(Pedro Sicabaig) أمرا من بلاده بمغادرة وهران مع آخر الموظفين للمكتب . وقد توقف المكتب نهائيا في شهر مارس من سنة 1795 بعد ثلاث سنوات من النشاط[19] .

2 . شركة صيد المرجان:

لقد سبق لهذه الشركة أن استغلت صيد المرجان في سواحل طرابلس ، بعدما توصلت أسبانيا إلى إبرام معاهدة مع ليبيا في سنة 1784. في وقت كانت الجزائر لم تتوصل بعد إلى إبرام معاهدة مع أسبانيا ، نظرا لحالة الحرب التي كانت بين البلدين، وفقد كان محمد الكبير يمنع الأسبان من الرسو على سواحل البايلك . ولم يتوصل البلدان إلى اتفاق في هذا الشأن إلا في أواخر سنة 1791 على خلفية المعاهدة التي أبرمت بين البلدين ، حيث حصل الأسبان على حق الصيد بحرية في السواحل الجزائرية ، وخاصة في السواحل الغربية . غير أن الصيادين الأسبان لم يحترموا في بعض الأحيان النطاق الذي حدد لهم من قبل السلطات الجزائرية ، فكانوا يتجاوزنه إلى مناطق أخرى[20] . ففي 3 أوت 1792 جاء أحد الصيادين من قطالونيا ومعه طاقم يتكون من ثمانية أشخاص قبالة مدينة الجزائر لصيد المرجان ، وبأمر من الداي طلب منهم مغادرة المكان والذهاب إلى السواحل الوهرانية . وقد مارست الشركة نشاطها في السواحل الوهرانية خلال شهري سبتمبر وأكتوبر 1792، وتمكنت خلال النصف الأول من شهر سبتمبر من جمع كميات معتبرة من المرجان . بينما عرفت الفترة الموالية تراجعا في الإنتاج ، مما أدى بالصيادين إلى الانسحاب . وكانت الاتفاقية تنص على أن الجزائر تنال ثلث الكمية من المرجان التي يتم جمعها في الفترة الثانية ، أي في شهر أكتوبر. وعلى هذا الأساس فإن

الصـــيادين تركوا في وهران 60 طن قشـــتالي من المرجان ، وأخذوا معهم إلى بارشـــلونة 404 طن قشتالي[21].

3 . شركة غاريغو (Garrigo) :

يعود دخول هذه المؤسسة إلى الجزائر عندما منح لصحبها خوان غاريغو (Juan Garrigo)[22]. حق شراء الجلود والصوف والشمع ، وبذلك أصبح نشاطه في بادئ الأمر ضمن شركة من مجموعة من التجار القطالونيين غاريغو(Garrigo) ، ساغارا (Sagarra)، ثيا (Cia) ، استقرت في الجزائر في نفس السنة التي دخلت فيها شركة كامبانيا إلى وهران . فكان لها مثل شركة كامبانيا رخصة شراء مجموعة متنوعة من المنتوجات لغرض تصديرها . غير أن الذي يميز مؤسسة غاريغو عن نظيرتها كامبانيا ، هو أن هذه الأخيرة كانت مرتبطة بالملك مباشر أي أن مديرها كان يعتبر الممثل الرسمي الملك الأسباني ، وهذا ما يلزمها القيام ببعض الإجراءات ، مثل تقديم الهدايا لبعض أعضاء الحكومة في الجزائر . أما شركة غاريغو فهي شركة خاصة كما يعبر عنه اليوم ، فهي لا تمثل إلا نفسها .

كان مسموح للشركة بشراء الحبوب والمواشي والجلود والصوف ، ساوت قيمتها أو تجاوزت قيمة مشتريات الشركة الملكية الإفريقية الفرنسية ، وهذا راجع إلى علاقات غاريغو مع الداي ، فقد سمحت له هذه العلاقة إلى شراء السلع مع تأخير في الدفع لعدة سنوات[23] .

وقد أشار دي بارادي (de Paradis)أن متوسط الصادرات من مدينة الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر بلغت ثمانية آلاف قنطار جزائري من الصوف ، وما بين عشرين ألف وخمسة وعشرون ألف من الشمع. وما بين عشرين ألف وخمسة وعشرون ألف قنطار من الجلود ، ووثلاثمائة أو أربعمائة قنطار من الشمع [24] . فلا شك أن كمية معتبرة كانت تخص شركة غاريغو . ونظرا لهذه المكانة كان غاريغو في بعض الأحيان يخلف نائب القنصل الأسباني لدى الداي. وكانت شركة غاريغو إلى جانب شركة كامبانيا مسموح لهما بتصدير إلى الجزائر عملة البياستر (Piastre) الأسبانية من أجل شراء السلع من الجزائر[25] .

وهكذا أدت المـــعاهدات التي أبرمت مـــع أسبانيـــا وخاصة المعاهدة الأخيرة (1791) التي جعلت الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر تعرف انتعاشا تجاريا بعد دخول الشركات الأسبانية في هذه الحركة ، مما جعلها تتعرض إلى الضغوط من طرف القوى الكبرى لاحتكار السلع التي كانوا في حاجة إليها ، وخاصة خلال الأزمات التي عاشتها هذه الدول فيما بينها ، ابتداء من أحداث الثورة الفرنسية إلى غاية مؤتمر فيينا سنة 1815.

4 . شركة بكري وبوجناح :

تشير الدلائل أن تاريخ إنشاء هذه الشركة كان في سنة 1793 ، عندما طلبت منهما فرنسا أن يزودوها بالحبوب لمدة خمس سنوات[26]. وقد جاء في أحد الملفات الفرنسية أنه في سنة 1794 حصلت حكومة الإدارة (Directoire) الفرنسية على قرض مالي يبلغ خمسة ملايين من الفرنكات في عهد الداي حسن دون فوائد ، وقد تولت شركة يهودية كان يسيرها بوشناق (Bousnac) وبكري (Bacri) الوساطة في المباحثات ، وكذلك في أمر تزويد فرنسا بالقمح[27] .

ولقد كان تأسيس هذه الشركة التجارية في الجزائر بعد فترة قصيرة من توقيع الجزائر الاتفاق مع أسبانيا في نهاية عام 1791 ، الذي فتح المجال لإقامة العلاقات التجارية بين البلدين. وقد ساهمت بدور هام في التبادل التجاري مع أسبانيا، وتسهيل مهام التجار الأسبان للقيام بنشاطهم في الجزائر[28] .

عندما استعادت الجزائر وهران فقد سكان ماهون ما كانوا يحصلون عليه من الغرب الجزائري من الحبوب وغيرها من السلع الزراعية . فلجئوا إلى البحث عن احتياجاتهم من مناطق أخرى ، وخاصة إلى موانئ إقليم قسنطينة في الجهة الشرقية من الجزائر حيث كانت الأسعار مناسبة لهم ، إلا أنهم وجدوا الوكالة الإفريقية[29] تقف في وجههم وتمنعهم من الدخول إلى موانئ الشرق الجزائري التي لها فيها مصالح تجارية كبيرة. لكن تجار ماهون استعانوا بشركة بكري وبوشناق للاتصال بأهالي هذه المنطقة ، والحصول على احتياجاتهم الضرورية . وأهم منطقة وصلوا إليها ميناء سطورة (Stora)[30] ، الموجود في مكان بعيدا عن مراقبة الفرنسيين الذي كان وجودهم يتركز في عنابة . وصاروا يقصدونه لشحن البضائع التي استطاعوا شراءها من الأهالي . وعندما علم الفرنسيون بنشاط الأسبان في هذه المنطقة ، كانوا كثيرا ما إلى يشتكون إلى السلطات التابعة لباي قسنطينة للقيام بالإجراءات اللازمة من أجل منعهم ، غير أن تدخلات بكري حالت دون تنفيذ مبتغاهم . هذا التجاهل من قبل السلطات الجزائرية تجاه هؤلاء التجار الأسبان ورد في رسالة بعثها من غيبار (Guibert) إلى القنصل الفرنسي في الجزائر فيليب فالبير (Phillipe Vallière) مؤرخة في 18 من شهر نيفوس(Nivose) السنة الثالثة[31] جاء فيها : << علمنا أن الماهونيين بدأوا البارحة يشحنون القمح التي بيعت لهم ، وهم الآن يعملون على شراء غيرها ، وأن الباي لا يقول لهم >>[32].

ووسع آل بكري أنشطتهم إلى موانئ متوسطية أخرى فقد شحن جوزيف كوهين بكري بتاريخ 17 جويلية 1790 من الجزائر في اتجاه قرطاجنة الأسبانية إلى وكيله هناك (Thomas Sabicla)

على وجه الأمانة 4500 كيلة من القمح و 310 كيلة من الشعيرَ. كما شحنت دار بكري في اتجاه أليكانتي للأسبان أيضا بتاريخ 19 سبتمبر 1792 ، 998 كيلة من القمح[33] .

إلى جانب النشاط الإقتصادي كان لهذه الشركة دورا سياسيا لعبته في تحسين العلاقات بين البلدين، فعندما توترت العلاقات بين البلدين في سنة 1803، وأعلن وزير البحرية في حكومة الداي مصطفى باشا[34] في نفس السنة أنه يعتبر أسبانيا بلدا عدوا ، لجأ القنصل الأسباني إلى مساعي بوشناق للتوسط لديها . وبالفعل فقد حصل على نتيجة باهرة . فإن الوزير لم يكتف بقبول مصالحة أسبانيا ، بل أنه قام بالمبادرة باستدعاء قنصلها إلى قصره واستقبله في 27 ديسمبر 1807 وأجرى الصلح معه بمحضر بوشناق كما أكد له حسن نيات الجزائر نحو أسبانيا[35].

الصادرات الجزائرية نحو إسبانيا :

أهم الصادرات الجزائرية نحو أسبانيا تتمثل في المواد التالية :

1 . الحبوب :

قبل توقيع اتفاق الصلح مع أسبانيا سنة 1786 كانت الجزائر تصدر بعض كميات من القمح لبعض التجار الأسبان ، وإثر دخول الشركات الأسبانية إلى الجزائر بعد الاتفاق المذكور ، كانت الجزائر تصدر إليهم كميات قليلة جدا ، وذلك يعود إلى بقاء التوتر مع أسبانيا لاستمرار وجودهم بوهران والمرسى الكبير[36].

وبعد سنة 1791 أصبحت معظم المباحثات التي كانت تتم بين السلطات الجزائرية والتجار الأسبان تدور حول شراء الحبوب وخاصة القمح . كما نصت معاهدة 1791 على تخصيص هذه المادة بالإسم(Grano) ، في المادة الخامسة وكذلك في المادة السادسة[37].

وكانت أسبانيا في حاجة ماسة إلى القمح ، نظرا لقلة إنتاجها ، ومن أجل تزويد جيشها الذي كان يطرح مشكلة لدى الحكومة . وكانت مستعمراتها في السواحل الإفريقية تعتمد على القمح من خارج المنطقة . فكانت الشركات الأسبانية حريصة على شراء هذه المادة من الجزائر ، حيث تمكنت شركة غويينتشي (Goyenche) ابتداء من عام 1792 من إبرام مع باي وهران صفقة لشراء كمية 100 ألف كيلة تم تسليمها خلال العامين المواليين[38] . وفي المناطق الوهرانية عرفت الأسعار التي كانت الشركات الإسبانية تشتري بها القمح تطورا إلي ما يثرب ثلاث مرات ما بين 1792 و

1811، ويوضح الجدول التالب تطور أسعار القمح التي نباع للأسان خلال الفترة ما بين 1789، 1792[39].

السنوات	الأسعار بالقرش الأسباني للفنيقة الواحدة
1792-1789	1.50
1793	2.40
1794	2.40
1809	2.50
1811	4.00

ففي سبتمبر 1793 بلغ سعر القمح في عنابة 40 قرشا للقفيز[40] ، وقد دفع الإسبان مسبقا ثمن 2000 قفيز . والباي له التزامات بلغت الآن 11000 قفيز ، وهو يشتريه من عنابة بـ16 قرشا للقفيز. ولكي يفي بالتزاماته يجب عليه أن يرفع سعر مشترياته ما بين 20 و 24 قرشا[41] .

وصدرت الجزائر إلى شركة كامبانيا الأسبانية التي كانت تتخذ من وهران مقرا لها في خلال ثلاث سنوات كمية 42239 كيلة من القمح و4540 كيلة من الشعير. ونشير إلى أن هذه الفترة كان القمح الجزائري مرغوبا فيه من طرف دول أوربية أخرى على غرار أسبانيا ، وخاصة فرنسا التي كانت تعيش أحداثا سياسية غير مستقرة ، وهذا ما أثر على كمية مشتريات أسبانيا . فابتداء من سنة 1794 احتكرت فرنسا شراء القمح الجزائري .

ونشطت عملية تصدير القمح الجزائري إلى إسبانيا ابتداء من سنة 1809 إلى جانب الدول الأوربية الأخرى وخاصة من موانئ وهران وأرزيو . وخلال الثلاث سنوات الأولى من العقد الثاني من القرن التاسع عشر صدرت الجزائر إلى إسبانيا الكميات التالية من الحبوب :

1811 50.000 فنيق (fanègues)

1812 30.000

1813 5.000 [42]

غير أن بعد هذا التاريخ تناقصت كميات القمح المصدر إلى أسبانيا ، وذلك يعود بشكل رئيسي إلى تأزم الوضع بين الجزائر وأسبانيا بسبب تأخرها عن تسديد الديون التى كانت عليها للجزائر ابتداء من سنة 1814[43].

أما فيما يتعلق بموضوع الأسعار فإن اتفاقية سنة 1791 قد حددته بما هو في السوق[44] ، وبناء على هذا فإنها لم تشهد استقرارا . وحسب ما جاء في بعض التقارير الأسبانية أن الشركات التي دخلت إلى الجزائر قد دخلت في مساومات مع السلطات الجزائر من أجل تخفيض السعر . فقد كان السعر قبل دخول هذه الشركات أقل من 30 ريال للكيلة من القمح ، و15 ريال للكيلة من الشعير . ولما دخلت هذه الشركات التجارية تحصلت إحداها على شحنة من القمح بسعر 18 ريالا .

أما بعد سنة 1792 بدأت الأسعار في الارتفاع . ففي وهران رفع الباي الأسعار، حيث أبرم عقدا مع شركة كامبانيا بسعر 30 ريال للكيلة من القمح ، و15 ريالا للكيلة من الشعير لمدة سنة ، وفي حالة نقل الباي البضاعة إلى المخازن بوهران يرتفع إلى 40 ريالا للكيلة الواحد . وفيما يلي جدول العقد الذي أبرمه باي وهران مع شركة كامبانيا سنة 1792 والمتضمن كميات وأسعار للمحاصيل الزراعية ورؤوس الماشية المتفق على بيعها للشركة المذكورة [45]:

المادة	الوحدة	السعر
القمح	فينق(Fanègue)	**1 قرش و10 ريالات**
الشعير	//	**15 ريال**
ذرة بيضاء	//	**18 ريال**
ذرة	//	**15 ريال**
الأرز	القنطار	**3 قروش Piastres**
الأبقار	//	**6 قروش و 10 ريالات**
الأغنام	//	**قرش واحد و16 ريال**
جلود الأبقار	//	**15 ريال**
الوبر (شعر الجمال)	//	**32 قرش**
الشمع	//	**30 قرش**

الصوف	//	**30 قرش**
الشحم (Suif)	//	**7 قروش**

وفي سنة 1793 ارتفعت الأسعار ، وكان هناك اختلاف بين الأسعار في وهران بـــ 36 ريال ، ومدينة الجزائر بـ 31 ريال ، لكنه فيما بعد أصبح الداي يطالب بـ 50 ريال .

وفي سنة 1794 تطلع الفرنسيون إلى استيراد القمح من الجزائر مما ساعد على رفع سعره . فقد تمكن القنصل الأسباني لاريا من استيراد 26 ألف كيلة بسعر 48 ريال للوحدة ، على الرغم من أن السعر الذي منحته فرنسا بـــ 72 ريال . وفي وهران فقدت شركة كامبانيا الصفة التي كانت عليها من قبل والمتمثلة احتكار شراء هذه المادة . ولما فقدت الشركة هذه الصفة أصبح على مندوبها دومينغو روما (Domingo Roma) شراء القمح عن طريق المزايدة ، حيث وصل السعر إلى 50 ريال للكيلة الواحدة[46] .

إن مراسلات القناصل التي تعطي الكثير من المعلومات المتعلقة بشؤون هذا التعامل تبقى غير واضحة فيما يتعلق بشراء القمح بعد سنة 1795. وقد دامت هذه الحالة إلى غاية سنة 1809 التي شهدت استئناف الصادرات . ذلك أن سعر الشعير بلغ في وهران 25 ريال ، أما القمح فبلغ الضعف . وبعد سنتين (سنة 1811) ارتفع السعر من جديد في مدينة الجزائر حيث وصل إلى 80 ريال . وبعد سنة 1813 انخفض الإنتاج مما أدى إلى انخفاض الصادرات من هذه المادة . غير أن الذي يمكن قوله في ختام الحديث عن القمح ، أن الجزائر كانت هي المزود الرئيسي للقمح بعد تحسن العلاقات بين البلدين خاصة بعد سنة 1792 [47].

2 . المواشي :

إلى جانب الحبوب اشتهرت الجزائر خلال هذه الفترة بتصدير المواشي إلى الكثير من الدول الأوربية من بينها أسبانيا . وقد اهتمت شركة كامبانيا باستيراد الماشية من أجل تزويد بعض المناطق الأسبانية مثل برشلونة وجزر الباليار. إلا أن عملية الشراء من قبل هذه الشركة كانت تتم عن طريق تجار أسبان مختصين في هذه المهنة . حيث صدرت الجزائر لشركة كامبانيا عبر وسيطين أسبانيين هما فرانسيسكو سيغوي(Francisco Seguy) وخوسي سييراس (José Selleras) 4240 خروف و457 بقرة ، وتم إرسالهم إلى بالما(Palma) وجزيرة إبيزا(Ibiza).

وفي سنة 1792كان الإسبان يشترون من المناطق الوهرانية بالجملة ثيران المجزرة على اختلاف أوزانها بسعر 6.50 قرش للثور ، والغنم بسعر 1.80 للخروف[48].

وفي سنة 1793 صدرت الجزائر إلى مؤسسة لا خونتاس دي أباستوس La Juntas de) Abastos (من مدينة بارشلونة 2851 خروف و 696 بقرة . وكانت مدينة وهران قد خرج منها كثير من الأنعام الجزائرية نحو المدن الأسبانية الساحلية، نذكر منها على الخصوص مدينتي ألميرة (Almeria)وأليكانتي (Alicante). حيث استفادت الأولى من 315 بقرة و 1020رأس غنم ، وكانت حصة المدينة الثانية 1191 بقرة و 5225 رأس غنم . وتلقت مدينة مالقة بضعة أعشار من الرؤوس[49].

ومن حيث الأسعار فقد حددتها الوثائق المتعلقة بشركة كامبانيا الأسبانية ، أنها دفعت 130 ريال للبقرة ، و36 ريال للرأس من الغنم ، وتراوح بيعها في أسبانيا ما بين 150-220 ريال للبقرة ، وبين 33-45 ريال للرأس من الغنم .

وفي بداية القرن التاسع عشر سعت أسبانيا لشراء من الجزائر الأحصنة ، فقد خرجت أول شحنة من وهران في 14 فيفري 1809، تتألف من 16 حصانا ، و4 بغال ، بلغت تكاليفها 47363 ريال جزائري ، وهو ما يعادل 2368 بيزوس قوي (Pesos fuerte) [50] .

وقد جاء في أحد الوثائق الأرشيفية أن الجزائر صدرت 175 حصان خلال سنة 1809، ، مقابل مبلغ مالي قدره 18739.19 بيزوس قوي ، وبينت نفس الوثيقة سعر الحصان الواحد ، الذي كان مختلفا من شهر إلى آخر . إذ تراوح ما بين 93 بيزوس قوي في شهر جوان ، و131 بيزوس قوي في شهر فيفيري من السنة المذكورة [51].

وخلال سنتي 1809-1810 صدرت الجزائر لهذا البلد أكثر من 200 حصان، وذلك لاستعمالها على ما يبدو في الجيش ، نظرا للأوضاع السياسية الجديدة التي أصبحت تعيشها أسبانيا بعد تعرضها للغزو الفرنسي بقيادة نابليون في سنة 1808. غير أن أسبانيا عدلت عن شرائها في السنوات الموالية بسبب ارتفاع أسعارها وموت بعضها أثناء نقلها إلى أسبانيا .

وظلت أسبانيا حريصة على استيراد المواشي من مينائي وهران وأرزيو نظرا لحاجتها إليها من أجل تقديمها للجنود الأسبان والإنكليز الذين كانوا يقاتلون الفرنسيين، فقد خرجت من ميناء وهران سبع شحنات في سنة 1810 ، وكذلك في السنة الموالية (1811). وكان قد تردد على الجزائر العديد من التجار لاقتناء الأبقار والأغنام قدر عددها 19 مرة . وفي سنة 1812 حلت بمدنتي وهران أرزيو 37

وفد تجاري . وفي الأخير نقول أن الجزائر قد صـــدرت لشـــركة كامبانيا ما مجموعه 20000 رأس من الماشية ما بين 1810-1812.

3 . الجلود ، الصوف ، والشمع :

لقد اشتهرت الجزائر بتصديرها لمواد تجارية أخرى مثل الجلود والصوف والشموع وغيرها من البضائع إلى دول أوربية عديدة ومنها أسبانيا ، ولهذا فإن المعاهدة التي أبرمت بين البلـــدين سنة 1791 قد حرص الأســـبان فيها على تأمين حصولهم على هذه المواد ، وهو ما ورد في المادة الرابعة[52] والتي سمحت للقطالوني غاريغو الحصـــول على نفس الامتياز الذي كان لدى الفرنســـيين . وبناء على هذا الاتفاق فإن الجزائر صدرت إلى أسبانيا ما يقرب من ثلثي احتياجاتها من الجلود في نهاية القرن الثامن عشر[53] .

وفي خلال بضعة سنوات صدرت الجزائر إلى شركة كامبانيا من ميناء وهران 12150 قطعة من جلود البقر، و5190 قطعة من الجلود المدبوغة ، وأكثر من 3000 قطعة من الجلود ذات النوعية الرديئة . وقد حصـــلت الجزائر مقابل ذلك مبلغ مالي قدره 12 ألف بياســـتر قوي (Piastres forte) . ومما يجدر ذكره أنه مع بداية القرن التاسع عشر دخلت شركة أخرى ميدان شراء الجلود من الجزائر اسمها باترون (Patron) بحكم أن صاحبها[54] كان على دراية بالوضع التجاري في الجزائر .

أما في مدينة الجزائر فإن شركة غاريغو التي كانت تتولى شراء الجلود والصوف ، وذلك لمدة أربع سنوات ، بسعر 14 ريال للقطعة الواحدة . فذكر دي بارادي (De Paradis) أنه كان يخرج من ميناء المدينة ما بين 20000 و 25000 قطعة من الجلود سنويا[55]. ومن دون شك أن نسبة كبيرة من هذا الرقم كان يخص أسبانيا عن طريق شركة غريغو.

وبداية من سنة 1805 احتكرت شركة أسبانية أخرى شراء الجلود ، وهي شركة باترون . فقد تمكنت في نهاية هذه السنة أن تنقل إلى برشلونة شحنتين تحملان 16700 قطعة من الجلود . وفي السنة الموالية قررت الشركة المذكورة تحويل بيع إنتاجها من أسبانيا إلى ميناء مارسيليا بفرنسا ، وذلك لعدم الإقبال على الجلود في أسبانيا في هذا الوقت ، وخاصة خلال الاضطرابات التي شهدتها أسبانيا ابتداء من سنة 1808. ورغم الوضع السائد ؛ ظلت الجزائر تصدر هذه المادة إلى هذه الشركة ، ففي سنة 1810 بلغت الكمية التي باعتها إليها 18300 قطعة من الجلود[56].

وكان تصدير الجلود في الجزائر مرتبط كثيرا بمنتوجي الصوف والشمع لكون مصدرهم واحد وهو المواشي . ولذلك نجد الشركات التجارية الأسبانية تهتم باستيراد هذه المواد مع بعضها . ففي وهران أين كان شركة كامبانيا مستقرة حيث كانت تحصل على هذه المواد منذ سنة 1791 .

وفيما يتعلق بالصوف فقد صدرت الجزائر لشركة كامبانيا خلال سنتي 1792 و1793 شحنتين تتكون إحداهما من 392 طرد (Balle) ، والأخرى من 88 طرد . وفي نفس السنة صدرت لهذه الشركة كمية من الشمع بسعر يتراوح ما بين 32 و36 بياستر (piastre)، أما في سنة 1794 صدرت لها 261 قنطارا بسعر 30 قرش للقنطار. ومما تجدر ملاحظته أن بايلك الغرب قد صدر كمية قدرت بـــ 461 قنطار من الشمع ، وكانت هذه المادة تباع في أسبانيا بسعر يبلغ 60 قرش للقنطار الواحد.

أما في مدينة الجزائر فإن تصدير الصوف والشمع أكثر أهمية ، حيث كانت أغلب الكميات تأتي من بايلك التيطري ، ولم تكن الكمية التي تم تصديرها إلى الشركة الأسبانية غاريغو من هذا الميناء معروفة . ولكن دي بارادي قد ذكر أنه كان يخرج من ميناء الجزائر سنويا إلى البلدان المسيحية ما بين 7000 و 8000 قنطار من الصوف[57]. ومن دون أن هناك نسبة تخص شركة غاريغو التي كانت لا تزال تنشط في الجزائر العاصمة ، خاصة وأن هذه الشركة قد حصلت في سنة 1794 على رخصة تحويل 10000 قرش إلى الجزائر من أجل دفع الديون .

وفي سنة 1805 حصلت شركة باترون على امتياز شراء الجلود والصوف والشمع . وقد استطاعت حتى نهاية السنة من تحصيل زيادة على الجلود ، مقدار 500 قنطار من الصوف و600 قنطار من الشمع .

ومن باب المقارنة يمكننا أن نذكر أن كميات الجلود والصوف والشمع التي كانت تستوردها فرنسا من الجزائر عبر الشركة الملكية الإفريقية قد بلغت ما بين 1785 و 1789 ، 102062 قطعة ، أي بمعدل 20 ألف قطعة من الجلود سنويا . وفي المقابل فإن شركة غاريغو بحكم وجودها في مدينة الجزائر فإنها حصلت 6000 قطعة. وبالنسبة لواردات الشركة الملكية الفرنسية من الصوف فيما بين 1754 و 1759 بلغت 78286 قنطار ، ثم انخفضت إلى 4584 قنطار خلال الست سنوات الموالية. وهي الفترة التي لم يحصل فيها بعد التصالح مع أسبانيا [58].

وبالنسبة لمادة الشمع فإن الكميات التي صدرتها إلى الشركة المذكورة كانت قليلة ، سواء في مدينة الجزائر أو وهران ، حيث تحصلت الشركة على بضعة مئات من القناطير . أما فيما يخص أسبانيا فيمكن أن نقول أنها قد تحصلت على نفس الكمية من الجلود الصوف والشمع ، أو قد تجاوزتها.

4 . التبغ :

وقد بلغت قيمة المداخيل الإسبانية بالريال من التبغ التي دخلت من وهران خلال سنتي 1790 و 1791، حيث بلغت القيمة 45.356,80 ريال في نوفمبر 1790 ، أما في نوفمبر من السنة الموالية (1791) فقد بلغت: 44.475,10 [59]. وما يلاحظ أن هناك تراجع في قيمة الدخل بين السنتين المذكورتين بنقص بلغ 88170 ريال، وهذا راجع الظروف التي مرت بها المدينة خلال هاته الفترة وخاصة السنة الثانية (1791) .

5 . بضائع أخرى :

إلى جانب السلع السابقة التي اشتهرت الجزائر بتصديرها إلى أسبانيا وغيرها من الدول الأوربية الأخرى ، فإنها قد اختصت بتصدير مواد أخرى ولكنها كانت بكميات قليلة إذا ما قورنت بالحبوب والجلود . ففي وهران أبرم الباي مع شركة كامبانيا عقدا من أجل تزويدها بالزيت . حيث تحصل هذه الشركة على 880 وحدة من الزيت من النوع الجيد بسعر 60 ريال ، كما تحصل مندوب الشركة د. رومان (D.Roman) على 541 وحدة أخرى من الزيت ، من أجل استعمالها في صناعة الصابون، حيث كان في وهران مقرا لصناعة هذا المنتوج إلى غاية سنة 1794[60]..

كما باعت الجزائر لنفس الشركة كميات من شحم الأبقار والأغنام بسعر 7 قروش للقنطار . إلى جانب ذلك صدرت الجزائر إلى أسبانيا كميات من الوبر والفول . وإلى شركة كامبانيا صدر باي الغرب 5000 قنطار من النخالة (Grenailles) . ويذكر أن باي الغرب قد صدر لمحل شركة كامبانيا بوهران حديد القنابل التي رميت خلال الحصار الذي ضرب على وهران خلال سنة 1791. وابتداء من سنة 1810 اهتمت شركة باترون(Patron) بشراء سلع أخرى من الجزائر مثل الكبريت والفلفل وتفاح السرو(Pommes de cypres)[61] .

وفي ختام عرض الصادرات الجزائرية نحو أسبانيا ندرج الجدول التالي الذي يبين أنواع وكميات البضائع الجزائرية التي صدرت إلى أسبانيا في سنة 1810 [62].

البضاعة	الكمية	الوحدة
القمح	2300	الفينق(Fanègue)
الشعير	8300	//
الكبريت	530	قنطار
القطن	16	//
الفلفل	31	//
التفاح	24	//
قطع خشبية لصناعة البراميل	50000	.
قماش هندي	389	.
مناديل	137	.
قطع من القماش الرقيق	80	.
القماش	587	.
Livres de canelle	474	.
خيوط الخياطة	350	.

الواردات الجزائرية من أسبانيا :

كان الحكام الأتراك يقدمون طلباتهم مباشرة إلى الشركات الأسبانية ، أو الحكومة الأسبانية عن طريق القنصل الأسباني في الجزائر . وذلك ما تبينه إحدى الرسائل مؤرخة في 8 جمادي الأولى هـ1201 الموافق لأواخر عام 1786م بعثها أحد الموظفين الكبار لدى الداى يدعى يزيد إلى قنصل أسبانيا يدعوه تسليمه بعض السلع ، جاء فيها : ((من عبد ربه يزيد إلى قونصل اصبنيول الذي بالجزائر ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فنامرك أن تبعث لنا الملف والفينة لحريرية تكون جيدة خارجة والملف يكون جيد خارج واتاي وسكار الذي يناسب وادفعهم لصاحبنا حامل الكتب))[63] إن حسابات شركة كامبانيا تكشف عن أذواق ورغبات الباي وحاشيته ، ويمكن أن نميز ثلاث مجموعات من السلع التي كانت تستوردها الجزائر من أسبانيا ، هي الأسلحة ، الأدوات المصنوعة والمواد الغذائية .

1 ـــ أما الأسلحة فكانت السلعة التي أعطاها الحكام أولوية ، نظرا لعلاقات البلاد مع الخارج وخاصة مع أوربا الغير مطمئنة . ولهذا فكانت تستورد الأسلحة من أسبانيا عبر شركاتها العاملة في البلاد . وكانت هذه الشركات تسهل طلبات الجزائر من احتياجاتها من الأسلحة من أجل الحصول على السلع التي ترغب في شرائها من الجزائر.

ففي بداية القرن التاسع عشر وافقت أسبانيا على تسليم الجزائر بواسطة شركة باترون ثمانية عشر مدفعا . وبعد سنوات تم تصنيع ألف مسورة بندقية (Canon de fusil) في بارشلونة من أجل الجنود. وسلم كامبانيا بنفسه خمسة وعشرون مدفعا[64]. وكانت مهمة الشقمامجية في صناعة الأسلحة وتركيب المدافع تحتاج جلب مواد صناعتها من أسبانيا إلى جانب دول أخرى مثل إيطاليا وانكلترا[65]

2 ـ وطلب باي الغرب أيضا بعض الحلي وساعات وأدوات مصنوعة أخرى. فقد أرسلت شركة كامبانيا إلى وهران عدة شحنات من الحرير والأغطية وأقمشة فاخرة . وتبين حسابات هذه الشركة أن الأقمشة ذات النوعية الجيدة كانت على أنواع عديدة . ولم تكن الجزائر تستورد هذه السلعة من أسبانيا فقط ، ففي سنة 1794 استقبلت مدينة الجزائر عدة شحنات من الحرير[66].

3 ـــ كانت الجزائر تستورد كذلك بعض المواد الغذائية مثل الشاي الذي كان استهلاكه في تزايد في أوربا ، وكذلك في الجزائر . كما أنها كانت تستورد السكر الذي كان مطلوبا بشكل كبير . وهناك بضائع أخرى التي كان عامة الناس في حاجة إليها ، من أهمها الأدوات المتعقلة بالسفن ونشاط البحرية، وكذلك الملح الذي كانت تتولى شركة غاريغو نقل شحنات منه بصورة نظامية ، تلتها بعد ذلك شركة باترون. وكانت الجزائر تستورد بعض البضائع المصنوعة في دول أوربية أخرى من السوق الأسبانية . فقد بلغ حجم مواد الحرير والفلفل والسكر والقهوة المجلوبة من المصانع الألمانية والبريطانية 300 ألف دولار أسباني في سنة 1822[67] .

وكان ممثلو الشركات الأسبانية القائمة في الجزائر يستجيبون لطلبات أعلى الموظفين في الدولة ، من أجل الحصول في المقابل على صداقتهم ، وفي بعض الأحيان على امتيازات تجارية . إن كشوف حسابات الشركات الأسبانية تحتوي على قوائم من السلع المتنوعة التي كانت ترسل إلى الموانئ الجزائرية وخاصة إلى وهران . وكانت السفن الأخرى غير التابعة لتلك الشركات التي تقبل على ميناء الجزائر للبحث عن الحبوب ؛ تحمل معها في بعض الأحيان شحنات من البضائع المختلفة . وكان كثير من الصناع يحتاجون إلى كميات من المواد الخام والآلات الضرورية لأشغالهم لا تتوفر لديهم ، فكانوا يستوردونها من الخارج ، نذكر على سبيل المثال النجارين[68] .

موانئ التبادل التجاري بين البلدين

إن أهم الموانئ التي كانت تصدر الجزائر منها هذه البضائع وغيرها من السلع الأخرى هي وهران وأرزيو والجزائر وعنابة . غير أن كمية البضائع المصدرة من هذه الموانئ كانت متفاوتة من حيث الحجم . فأغلب البضائع المصدرة إلى أسبانيا كانت من الموانئ الغربية للجزائر كوهران وأرزيو، بحكم القرب الجغرافي بينها وبين السواحل الأسبانية، وبحكم دراية الأسبان بالمنطقة أكثر من غيرها من المناطق الجزائرية الأخرى، واطلاعهم على طبيعة المنتجات التي تتميز بإنتاجها. ويمكن أن نضيف عاملا آخر هو قلة الوجود الأوربي وخاصة الفرنسي الذي كان يتركز على الخصوص في الجهة الشرقية من البلاد، وهذا ما جعل التجار الأسبان يقلون في هذه الجهة وبالتالي انخفضت معها نسبة السلع التي كانوا يحصلون عليها. أما ميناء مدينة الجزائر فقد حظيت الشركات التجارية الأسبانية بوجود مقرات لها فيه مثل غاريغو ثم باترون، كما سمحت العلاقات بين البلدين بتقاطر التجار الأسبان عليه. ولذلك كانت البضائع المصدرة من هذا الميناء بلغت كميات معتبرة تتراوح نسبتها ما بين 37 و50 في المائة. وفيما يلي جدول يوضح نسب الصادرات الجزائرية من هذه الموانئ خلال ثلاث مراحل تمتد من سنة 1786 إلى سنة 1830[69].

الميناء	1786– 1791	1792– 1796	1797– 1830	النسبة العامة
وهران وأرزيو	43%	62%	58%	61%
الجزائر	50%	37%	42%	37%
وهران	7%	1%	0%	2%

وفي المقابل فإن الموانئ الأسبانية التي كانت تخرج منها البضائع الأسبانية، أو تستقبل البضائع من الجزائر فهي عديدة ، من أهمها ميناء قادش ، الذي كان يستقبل ويصدر معظم البضائع إلى الجزائر ، حيث أشرفت قيمة الواردات الجزائرية منه على أربعة مليون ريال ، أما قيمة الصادرات إليه تجاوزت 3.5 ملوين ريال. ويأتي في المرتبة الثانية ميناء برشلونة ، الذي فاقت قيمة الواردات منه 700 ألف ريال ، بينما قيمة الصادرات إليه تجاوزت 150 ألف ريال . ثم يليه ميناء مالقة . إلى جانب هذه

الموانئ الثلاثة الرئيســـية ؛ هناك موانئ أخرى ، وهي بالما دي مايوركا قرطاخنة أليكانتي وبويرتو دي سانتا ماريا[70] .

وإذا أردنا أن نجري مقارنة بين قيمة الصادرات مع قيمة الواردات الجزائرية مع أسبانيا ، وبلغة اقتصادية الكشف عن الميزان التجاري، فإن الأرقام التي وضعتها مصادر أسبانية تبين أن قيمة الواردات الجزائرية كانت أكثر من قيمة الصادرات ، وذلك حسب الحصيلة التجارية بين البلدين لسنة 1796 . وفيما يلي جدول يوضح قيمة الصادرات الجزائرية والواردات لهذه السنة مع أهم الموانئ الأسبانية[71] .

الموانـئ الأسبانية	الصادرات(بالريال)	الواردات(بالريال)
أليكانت	**3.060**	**94.997**
برشلونة	158.267	708.839
قادش	3.548.571	3.953.531
قرطاخنة	-	261.996
مالقة	**94.800**	**484.378**
بالما دي مايوركا	29.594	200.236
بويرتو دي سانتا ماريا	-	26.110
المجموع	**3.831.292**	**5.730.087**

الخاتمة :

لقد ظلت العلاقات السياسية بين البلدين متوترة وفي حالة حرب إلى غاية سنة 1786 حينما توصلا إلى إبرام معاهدة صلح فتحت مجال التحسن في العلاقات السياسية والتبادل التجاري . غير أن هذا الاتفاق لم يضع حدا نهائيا للخلاف بين البلدين ما دامت أسبانيا تحتل وهران والمرسى الكبير . ولهذا استمر الحصار حول المدينة إلى غاية سنة 1791 حيث رضي فيها الأسبان على قبول السلم مع الجزائر مع الجلاء عن المدينتين . فتحت هذه المعاهدة مجال العلاقات السياسية والاقتصادية بين البلدين .

غير أن هذه العلاقات التي امتدت إلى غاية سنة 1830 قد تأثرت في كثير من الأحيان بالقوتين المتنافستين في أوربا والبحر المتوسط وهما فرنسا وبريطانيا ، مما جعلها في بعض الأحيان تتوتر وأحيانا أخرى تتحسن . إلى جانب هذا كانت هناك عدة مسائل كثيرا ما أثارت الجدل بين البلدين ، وهي مسألة تفسير أو تطبيق المعاهدتين المبرمتين بينهما ، والصدام البحري بين السفن ، وقضايا الديون التي كانت في ذمة بعض التجار أو القناصل الأسبان . ولهذا فإن فكرة العداء الأسباني ظلت موجودة في نفوس الساسة الأسبان ، وهذا ما يبينه قبولهم تقديم التسهيلات للفرنسيين حين أغاروا على الجزائر سنة 1830 ، بخلاف ما فعلته الجزائر من قبل، حين وقفت على الحياد عندما كانت أسبانيا تحت الاحتلال الفرنسي ما بين 1808-1814.

أما في مجال العلاقات الاقتصادية ، فإن هذا الجانب كان انعكاسا للعلاقات السياسية ، حيث فتحت معاهدة 1786 ، ثم معاهدة 1791 مجال التبادل التجاري ، فسمحت للتجار الأسبان ارتياد الموانئ الجزائرية ، كما دخلت شركات تجارية أسبانية وأقامت لها مراكز في وهران والجزائر العاصمة ، وسمح للأسبان بصيد المرجان من السواحل الغربية للجزائر . وأهم مؤسسة جزائرية ساهمت في التجارة مع أسبانيا هي شركة بكري وبوشناق .

من أهم الصادرات الجزائرية إلى أسبانيا هي الحبوب والمواشي والجلود والصوف والشموع ، وأهم الواردات منها هي الأسلحة وأدوات النشاط البحري والمواد الغذائية مثل الشاي والسكر والبن والأقمشة . وأهم الموانئ الجزائرية التي كانت تصدر وتستقبل السلع من أسبانيا هي وهران أرزيو والجزائر وعنابة.

الهوامش:

(1)محمد العربي الزبيري : التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط.2، الجزائر ، 1984، ص.84.

(2) محمد أمين : حدود استغلال الأرشيف الفرنسي في كتابة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للجزائر خلال القرن 18، أرشيف ما وراء البحار بإكس والغرفة التجارية نموذجا ، المديرية العامة للأرشيف الوطني ، الندوة الدولية حول الأرشيف الخاص بتاريخ الجزائر والمحفوظ بالخارج ، 16-19 فبراير 1998 ، مطبوعات الأرشيف الوطني ، رقم 10 ، ص.34.

(3)Daniel Panzac: Barbary corsairs the end of legend 1800-1820, Brill Academic Publishers, 2004, p.194.

(4) Boutin: Op.cit., p.171-172.

(5) وتجار اسبانية إذا قدموا إذا قدموا البلد جزاير ومراسيم على خاطر البيع وشراكيف ما يعطو تجار جزاير من العوايد والكمرك هكذا يعطو ولا يؤخذ منهم الزيادة بالظلم هكذا يكون لتجار جزاير في بر اسبانية وإن كان تجار جهتين ينزلوا امتعتهم ويردوا مرة أخرى إلى مركبهم لا يمنعهم أحد ولا يؤخذ منهم العوايد . A.H.N.: Estado, leg.3617.

(6) سميت على اسم صاحبها الكونت غاثادو غوبينتش (Comte Gazado Goyenche).

(7)Gara del Aguilla (Luis) : Les espagnoles en Afrique , Les relations politique et commerciale avec la Régence d'Alger de 1786-1830, Sind , thèse doc. 3ºsycle Bordeaux, 1974.,p.40.

(8) Ibid.: p.44.

(9) Mémoire sur les concessions d'Afrique , lettre de la Cie Royale au Prefet des Bouches-du-Rhone en date du 3 janvier 1792 . عن الزبيري : التجارة الخارجية ..، صص.92-93

(10) صـــاحبها الدون مانويل ألفاريث كامبانيا(Don Manuel Alvarez Campana) كان مقرها مدينة قادش بأسبانيا ، تمكنت من إقامة علاقات تجارية مع المغرب منذ سنة 1780 ، قامت ببيع القمح إلى المغرب الذي كانت في حاجة إليه ي وهران .

(11) Gara :op.cit., p.69.

(12) يساوي 5.6 فرنكات فرنسية ، أو 5 ريالات جزائرية.

(13) يعود سبب الخلاف إلى أن صهر القنصل الفرنسي في الجزائر مايفرن (Meifrun) الذي كان صديقا للداي بابا حسن ، اتهمته سـلطات بلاده بالخيانة العظمى لتعامله مع بريطانيا، وقد أمر الباي حســن من قسـنطينة بألا يتعامل مع ممثلي الشـركة إلا عندما يعلن العفو عن مايفرن .

(14) الزبيري : التجارة الخارجية ، صص.207-208.

(15) Gara: p.70.

(16) Ibid., pp.69-70.

(17) Ibid. : pp. 70.

(18) أنظر رسالة الاحتجاج من حسن باشا إلى ملك أسبانيا كارلوس الرابع مؤرخة في 28 سيتمبر 1793 ، بوعزيز : المراسلات ، صص .174-179.

(19) Gara: p.120.

(20) Ibid.:p.80.

(21) Ibid., p.82.

(22) يذكر أنه كان أسيرا في الجزائر.

(23) Gara : p.87.

(24)Venture de Paradis: Alger au XVIII e siècle , R.A., t.40,1895,p. 282-284 .

(25) لقد سـاعد على العملات الأسـبانية على الجزائر ، منها عملة (البياسـتر) ، نظرا لمادة صـنعها من الذهب ، مما أدى إلى الإقبال عليها من قبل التجار الجزائريين . أنظر الفصـل المتعلق بالآثار الاقتصـادية من كتاب : الغزو الإسـباني للسـواحل الجزائرية وآثاره ، للمؤلف .

(26) الزبيري: التجارة الخارجية..، ص.263 .

(27) Rozet et Carette : Algérie, éditions Bouslama, 2ème édition, , Tunis, 1980 p.253.

(28) Archivo General, Ministerio de Asuntos Exteriores y de Cooperacion, H.2311.

(29) ظهرت في فرنسا إثر زوال الشركة الملكية الإفريقية التي كانت تحتكر التجارة مع الجزائر حلت محلها بمقتضى قرار أصدرته لجنة السلامة العامة في 7 فيفري سنة 1794 .

(30) إلى الشرق من مدينة سكيكدة الحالية.

(31) وهو الشهر الرابع من التوقيم الجمهوري في عهد الثورة الفرنسية ، الذي يوافق ما بين 21 أو 22 ديسمبر و 20 أو 21 جانفي ، أما السنة الثالثة فهي توافق سنة 1795.

(32) عن الزبيري : التجارة الخارجية..، الهامش رقم 2 ، ص.139.

(33) محمد أمين : يهود ليفورنيون بالجزائر في أواخر العهد العثماني ، عائلتا بكري وبوشناق نموذجا ، في العثمانيون والعالم المتوسطي مقاربة جديدة ، تنسيق عبد الرحمن المؤذن – عبد الرحيم بنحادة ، منشورات كلية الآداب ن الرباط ، كطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2003. ص. 305 .

(34) (حكم ما بين 1798-1805) شهد عهده توترات مع دول أوربية أخرى مثل فرنسا وانكلترا ، وكان لبكري وبوشناق في عهده نفوذا كبيرا.

(35) اسماعيل العربي ، دور اليهود في الديبلوماسية الجزائرية في أواخر عهد الدايات ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، ديسمبر 1974 ، العدد 11، ص.52.

(36) من سنة 1787 إلى سنة 1789 نقلت 32 شحنة من الجزائر كمية 73548 كيلة من القمح و42165 من الشعير.

(37) El Baxa nuesto senior por lo que hace a las diez mil medidos de grano. Articlo 5 ; El Baxa nuestro senior les consede la facultad de comprar cada ano diez mil medidas de grano, Articlo 6 , A.H.N., Estado, leg.3579.

(38) Gara : op.cit., p.256.(39) المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة السعار والمداخيل، الجزء الأول، دار القصبة للنشر، الجزائر ، 2009 ، ص. 174.

(40) وهو مكيال إسلامي يستعمل في الوزن والكيل أثناء العصور الإسلامية.، يساوي 24.048 كيلوغرام)

(41) نفسه ، ص. 254.

(42) Gara : op.cit., p.258.

(43) قنان : العلاقات ، مرجع سابق ، صص.341-342.

(44) (…Al precio que corre en el mercadodel pais y no se exigira ancorage de todos aquellos bastimentos que vangara a cargar esta cantidad de grano, articulo : 6 , A.H.N., leg.3579.

(45) Gara : op.cit., P.264.

(46) Ibid., P.264.

(47) حيث ازداد حجم المبادلات التجارية من حيث الكمية ومن حيث أنواع السلع وخاصة الزراعية التي كانت أسبانيا في حاجة إليها .

(48)المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة السعار والمداخيل، الجزء الأول، دار القصبة للنشر، الجزائر ، 2009، ص. 211.

(49) Gara : pp.270-271.

(59) A.H.N., Estado, leg.6152/2.

(51) Ibid., leg.6152/2.

(52) (Los comerciantes Espanoles podran comprar…otras cosas como cera , cueros y lanas)) , Articulo 4º, A.H.N., Estado, leg.3579.

(53)Gara : pp. 275.

(54) هو بينيتو باترون (Benito Patron) كان شريكا لكامبانيا.

(55) Paradis: Op.cit. p.284.

(56) Gara :Op.cit., pp. 278.

(57) Paradis : p.282.

(58)Gara : p.282 .

(59) Miguel Ángel Melón Jiménez, Unos límites que traspasar y una fiscalidad que eludir,p.43.

(60) إلى جانب وهران اختصت مدن جزائرية أخرى بصناعة هذه المادة كقلعة بني راشد ، وبوسعادة وتلمسان . وقد اختصت سكان منطقة جرجرة بصنع نوع من الصابون الأسود الذي يصنعونه من بقايا الزيتون . ناصر الدين سعيدوني ، الجزائر في التاريخ: مرجع سابق ص. 68.

(61) Gara : op.cit., p.282 .

(62) Ibid. : p.286-287.

(63) A.H.N.,Estado, leg.3617.

(64) Gara : pp.290-291.

(65) الزبيري : التجارة الخارجية ، ص.111.

(66) Gara : p.292.

(67) شالر : مذكرات ، ص.102.

(68) الزبيري التجارة الخارجية ، ص.111.

(69) Gara : pp.310-312.

(70) يقع ميناء بويرتو دي سانتا ماريا في الساحل الغربي لأسبانيا يطل على الخليج الذي تقع عليه موانئ عديدة أخرى يتصدرها ميناء قادش الذي يقع في نهاية رأس بري . يبعد هذا الميناء عن قادش بحوالي 11كلم من مياه الخليج.

(71) Juan BTA.Villar, Ramon Lourido, Relaciones entre Espana y el Maghreb siglos XVII y XVIII, Editorial Mapfre, Madrid, 1994, p.164.

أثر الإعلان التلفزيوني على قيم وسلوكيات الشباب الجزائري.

الأستاذ: محمد الفاتح حمدي.

جامعة الأغواط/ الجزائر.

الملخص.

تناول هذا المقال العلمي بالدراسة والتحليل أثر الإعلانات التلفزيونية التي تبثها القنوات الفضائية العربية على سلوك وقيم الشباب الجزائري. وهذا من خلال إجراء دراسة ميدانية على عينة من الشباب الجامعي الجزائري.

وقد ركزنا أثناء الدراسة الميدانية على معرفة عادات وأنماط مشاهدة الشباب الجزائري لبرامج القنوات الفضائية العربية، وأيضا الفترات المفضلة لمشاهدة ذلك، ثم عرجنا على اتجاهات المبحوثين نحو مضامين الإعلانات التلفزيونية، واختتمنا الدراسة بمعرفة مدى أثر المشاهدة اليومية للإعلانات التلفزيونية على قيم وسلوك الشباب الجزائري.

وقد خلُصت الدراسة إلى نتائج دقيقة أبرزها، أنَّ كثرة الإعلانات التلفزيونية عبر القنوات الفضائية العربية لم تشكل خطراً كبيراً على قيّم وسلوك الشباب الجزائري وهذا راجع إلى الأسباب الآتية:

01-أنَّ الشباب الجزائري مزود بميكانيزمات نفسية واجتماعية وثقافية تجعلهم يستعملون وسائل الإعلام بصفة انتقائية.

02-عدم تعرض أغلبية الشباب إلى المواد الإعلانية التي تتعارض مع أخلاقهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم.

03-رفض أغلبية الشباب مشاهدة المواد الإعلامية والإعلانية التي تشكل له حرجاً مع أفراد عائلته، وهذا يعد حماية وضبط لسلوك المشاهدة.

Summary.

This article addressed scientific study and analysis of the impact of television advertising provided by Arab satellite channels a about the behavior and values of Algerian youth . This is by conducting a field study on a sample of young Algerian university.

We have focused on the results of the field study to find out a lot of aspects related to this subject, most notably the diagnosis of habits and patterns View Algerian youth programs for Arab satellite channels , as well as periods favorite to watch it, the attitudes of respondents about the contents of advertisements

broadcast by the satellite channels, concluded the study knowing the extent of the impact of daily viewing of TV commercials on the values and behavior of young Algerians.

The study culminates into accurate results notably , that large number of television ads used in the Arab satellite channels did not constitute a major threat to the values and behaviors of young Algerians. This is due to the following factors:

01-Algerians are really familian with many social and cultural shields, which might help them in being pelective.

02-the majority of young people are not exposed to the advertising materials that are inconsistent with morals and values , customs and traditions.

03-the majority of young people refused to watch media and advertising materials that make up his embarrassment with his family , and this is the protection and control of the behavior seen

تمهيد.

المتتبع لتطور المشهد الفضائي العربي في السنوات الأخيرة، يلاحظ بأنَّ حصة الإعلانات التي تبث عبر الشبكات البرامجية التلفزيونية في ارتفاع كبير جداً، مما يجعل المشاهد مكرهاً في بعض الأحيان على متابعتها أثناء متابعة برامجه المفضلة. وقد يصطدم المشاهد الجزائري في الكثير من الأحيان بمشاهد إعلانية تتنافى مع قيمه وأخلاقه، وعاداته وأعرافه، والمعايير والآداب السائدة داخل مجتمعه، إذ يكون ذلك من خلال إظهار العلاقات المتحررة بين الجنسين، كتوظيف المرأة إلى جانب الرجال في مشاهد كثيرة تثير وتحرك الغرائز الجنسية لدى المشاهد. وهذا ما أكدته العديد من الدراسات العربية التي توصلت إلى أنَّ "الإعلان في القنوات الفضائية العربية والأجنبية يخاطب الغرائز الجنسية، من خلال الرقص والغناء والحركات التي تقدم بها الموديلات داخل الومضات الإعلانية، وما يحققه المنتج من انتعاش وقتي، وسعادة لحظية بمجرد تناول بعض السلع الاستهلاكية مثل المشروبات الغازية، وهو بذلك لم يركز على المنتج أو قيمته وفائدته، وإنَّما أعطى صورة أبعد ما تكون عن قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، من الإختلاط بين الجنسين بصورة مستفزة، لم يرض عنها الكثير من أفراد المجتمع العربي والإسلامي"(1)، يحدث هذا في ظل غياب المراقبة من قبل السلطات المعنية، أو في ظل سيطرة أصحاب المال والأعمال على مختلف وسائل الإعلام والأسواق التجارية، حيث لا يهمهم سوى الحصول على أرباح كبيرة، من خلال إثارة انتباه الجمهور بمختلف فئاته نحو السلعة أو الخدمة المعلن عنها. أما مراعاة القيم والعادات والتقاليد السائدة داخل المجتمعات العربية والإسلامية، فتصنف بالنسبة لهم في آخر الاهتمامات، ما دام الهدف الأسمى هو

تحقيق الربح والكسب الكثير، وتحقيق حجم أكبر من المبيعات حتى ولو كان على حساب منظومتنا القيمية.

وفي ظل تزايد الفترات الإعلانية في القنوات الفضائية العربية وخصوصاً الإعلانات المستوردة من الدول الأجنبية، أصبح شبابنا في ظلها تائهاً يقلد كل ما يشاهده عبر هذه الومضات الإعلانية، والتي على الرغم من قصر المدة الزمنية للومضة الإعلانية التلفزيونية، إلّا أنَّ أثرها قد يكون عميقاً، خاصة عندما يتكرر عرضها أكثر من مرة حيث تصبح مطبوعة في ذهن المتلقي، وهذا ما يؤكده المفكر عزي عبد الرحمن قائلاً:"إنَّ التأثير يكون إيجابياً إذا كانت محتويات الرسائل الإعلانية وثيقة الصلة بالقيم، وكلما كانت الوثائق أشد كان التأثير إيجابياً، وبالمقابل يكون التأثير سلبياً إذا كانت المحتويات لا تتقيد بأي قيّم أو تتناقض مع القيّم، وكلّما كان الابتعاد عن القيّم أكبر كان التأثير السلبي أكثر"(2). وقد يكتسب الشباب من مشاهدته لتلك الإعلانات المتنوعة العديد من السلوكيات والعادات الغريبة عن مجتمعه، سواء أكانت مفيدة أو مضرة بالنسبة له، وذلك تحت شعار الموضة والتفتح على الآخر ومواكبة تطورات العصر، وما نشاهده يومياً في واقعنا المعيش من مظاهر غير اعتيادية في اللباس والأكل والحوار والعلاقات الاجتماعية، خير دليل على التغيرات والتحولات الحاصلة داخل المجتمع الجزائري، والتي قد يكون لبرامج الإعلانات التلفزيونية دوراً كبيراً في هذا التغيير السلوكي والقيمي سواء على مستوى الأسرة أو المجتمع.

لقد جعلت القنوات الفضائية بمختلف برامجها نسبة كبيرة من الشباب الجزائري يعيش في عالم خيالي بعيداً عن مجتمعه وأسرته، لا يدرك ماذا يفعل في بيئته المحلية، يفكر دوماً في محاولة الوصول إلى العالم الافتراضي الذي صورته وزرعته وسائل الإعلام والاتصال الحديثة في مخيلته، مما "ولد لدى الشباب مرض الإحباط والقنوط واليأس من واقعه الحاضر، لأنَّ أغلبيته في هذه المرحلة يكون مرهف الحس شديد الحساسية ويتأثّر تأثّراً بالغاً بنقد الآخرين، ويستغرق في أحلام اليقظة ويحقّق عن طريقها ما لم يستطع تحقيقه في الواقع"(3)، وهذا ما يجعله يسعى نحو البحث عن حياة جديدة تخلو من المشاكل والضغوطات داخل البرامج التلفزيونية التي تلبي له رغباته.

إنَّ تركيز القنوات الفضائية العربية على الإعلانات كمورد اقتصادي أساسي، يجعلها تهمل المبدأ الذي وجدت من أجله، وهو تلبية رغبات ومتطلبات الشباب، الذي يأمل دوماً لمشاهدة برامج وحصص تلفزيونية تعبر عن رغباته وتطلعاته، ولكن في الغالب يجد نفسه يشاهد في ومضات إعلانية متنوعة لا تعبر عن حاجاته الأساسية وطموحاته المستقبلية، أقل ما يُقال عنها أنها ترويج للثقافة الغربية الاستهلاكية

القائمة على مبدأ الماديات، لذا "يذهب بعض الشباب لشراء وفعل أشياء لا لزوم لها، تؤدي إلى الانحراف في السلوك، وتضييع الحدود، وتكثر التناقضات في صفوف هذا الجيل الفتي الذي يصبو إلى مجاراة صيحات العصر والموضة، والمبالغة في مجاراتها ولو على حساب باقي أفراد أسرته، أو على حساب القضايا الأساسية في الحياة"(4). إنَّ ما تسعى له القنوات الفضائية العربية والأجنبية وغيرها من وسائل الاتصال والإعلام، من خلال برامجها، هو تكوين جيل من الشباب لا يدرك ولا يشعر بما يقوم به من سلوكيات في حياته اليومية، وكأنَّه مخدر بما يصله يومياً من برامج مسمومة، وذلك من خلال ترويج لإعلانات أجنبية تقوم على معادلة توضح كيفية نجاح "والت ديزني" و"الماكدونالدز" في غزو الثقافة العالمية التي وضحها "بن يامين بوربار" (Benjamin Borber)"في أنَّ سبب نجاح استعمار والت ديزني للثقافة العالمية يكمُن في ظاهرة قديمة قدم الحضارة الإنسانية، وهي المنافسة بين الشاق والسهل، والبطيء والسريع، وبين المعقد والبسيط. فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافي يدعو للإعجاب والإكبار، وكل ثانٍ من هذه الأزواج يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا. إنَّ "ديزني" وماكدونالد" وmtv تروج لما هو سهل وسريع وبسيط"(5)، وهذا ما يؤدّي إلى إحداث زعزعة في قيَّم الشباب الجزائري والعربي،كما يؤدي ذلك إلى حدوث اضطرابات في سلوكياته وأفكاره من خلال تنازله عن العديد من القيم التي منبعها الثقافة الإسلامية، وتشربه جملة من القيم التي تُبث من خلال الفواصل الإعلانية المستوردة، تحت شعار التقدم والعصرنة والموضة –عبر نافذة البثّ الفضائي المباشر– والتي تروج للعديد من القيم المادية والاستهلاكية، والتي يطبعها الإغراء والإغواء، وإظهار مفاتن النساء والاختلاط بين النساء والرجال بالإضافة إلى إظهار الخمور والعلاقات الغرامية والممارسات الجنسية على المباشر، دون حذف بعض المشاهد المثيرة للشهوات، مما يؤدى به إلى الوقوع في المحرمات من خلال المشاهدة المتكررة لتلك المشاهد الإباحية التي تزرع في نفوس الشباب الروح الانهزامية.

يعد تكرار تلك الومضات الإعلانية بشكل كثيف عبر البرامج التلفزيونية خطراً على شبابنا من حيث أنها "تخاطب قلب الشباب المولع باستخدام كل شيء جديد إذا أمكن له ذلك. فالسيارة الجديدة تستأثر الشباب وخاصة عند عرضها في الإعلانات، والموضات الحديثة التي تسيطر على تفكير معظم الشباب، لأنَّ للإعلان قوة تأثيرية على هذه المرحلة المهمة من حياة الإنسان، حيث يحرك الدوافع الكامنة داخله، فيلجأ الشباب إلى تلبية هذه الدوافع عبر السؤال عن موضوع الإعلان أو عن السلعة أو الخدمة المعلن عنها ثم يذهب ويفكر بالجواب ملياً، وعند عدم قدرته على شراء السلعة، أو الخدمة، يتبادر إلى ذهنه الشراء بالتقسيط أو بقرض من المصرف، وهكذا يصبح مداناً،

يسدد كل شهر أقساطاً، وتصبح حياته بالتقسيط، ولا يستطيع تحقيق التوازن المالي في حياته، لأنَّ مصاريفه أكثر من دخله، ومن المؤسف أنَّ فئة غير قليلة من الشباب العربي تعيش هذه الحالة السلوكية الاستهلاكية غير الرشيدة.(6) ويقول في هذا الشأن "ماركوس" في كتابه" التحليل الآتي للاستهلاك" "إنَّ المستهلكين يرون أنفسهم في السلع التي يستعملونها، حيث يجدون نشوتهم في سياراتهم، وفي حجم وشكل منازلهم، وفي الأجهزة التي يستعملونها. فالميكانيزمات التي تربط الفرد بمجتمعه قد تغيرت".(7) فلم يعد الأفراد داخل المجتمع يولون مكانة للصدق والأمانة والصبر. فالإنسان الناجح اليوم يقوّم على أساس ما يملكه؟ وهذه الفكرة أكّدها "برمان ماركوس" من خلال الدراسات التي قام بها حيث توصل إلى أنَّ حياة الأفراد تتميز اليوم بالامتلاك كما أنَّ بعض الممتلكات لها معانٍ قوية ورمزية".(8)

والمقصود أنَّ كثرة الومضات الإعلانية التي تحتوى على مشاهد غير أخلاقية في بعض الفضائيات العربية التي دخلت بيوتنا من دون استشراف منّا، تشكل هذه الأخيرة–الومضات الإعلانية التي تحتوى على لقطات خليعة– خطراً كبيراً على قيم شبابنا ونحن نعاينها دُون أن نحرك ساكناً قِبَلها، بدعوى التحضر والانفتاح والتعرف على ثقافات الآخرين، ومن دون أن نقوم بتوجيه وإرشاد شبابنا فيما يختارونه من أفلام ومسلسلات وأخبار وأفلام كارتونية تناسب مرحلة نموهم مع مراعاة البيئة التي يعيشون فيها، كما أننا أصبحنا غير مهتمين (بصفتنا أولياء) بالحوار مع أبنائنا في العديد من القضايا التي أصبحت تشكل حاجزاً داخل الأسرة الجزائرية، مثل العلاقات الجنسية، والزواج والعلاقات الغرامية، والصداقة والتعارف والحب وتبادل المعلومات، والغيرة على اللغة العربية، وطريقة اختيار الأصدقاء واختيار القدوة الصالحة في المجتمع، وطريقة التفكير والحوار، والقناعة في العيش بما نملك من قدرات مادية تناسب مكانتنا الاجتماعية، ...إلخ. وهذا ما يدفع بشبابنا خلال مراحل نموهم إلى اللجوء للبث الفضائي وغيره من الوسائل الإعلامية والاتصالية، لمعرفة بعض المسائل التي تُعَد من الممنوعات، بحكم حب الاطلاع والاستزادة في هذا المجال، وخصوصاً في مرحلة المراهقة التي يميل فيها الشاب إلى محاولة اكتشاف ومعرفة العديد من القضايا المرتبطة بشخصيته، ومراحل نموها وكيفية الظهور وإثبات وجوده داخل الجماعة التي يعيش معها، ومن أجل إشباع رغباته وحاجاته في هذا المجال الذي كان يصنف بالنسبة له من الممنوعات داخل الأسرة، وذلك في ظل غياب دور الأولياء في تلقين أبنائهم لهذه الأمور التي جاء بها الدين الإسلامي، والتي حث على الحديث فيها ومناقشتها، والحوار بخصوصها مع الأبناء، حتى لا تبدو غريبة وجديدة عنهم في الوقت ذاته، مما

يدفعهم للبحث عنها في قنوات أخرى تزيف الحقيقة وتحطم العادات والتقاليد والمبادئ السامية، داخل الأسرة والمجتمع على حدَّ سواء.

إن ما يشاهده الشباب الجزائري من ومضات إعلانية متنوعة عبر بعض برامج القنوات الفضائية العربية، والتي يغلب عليها طابع الترفيه والتسلية المبالغ فيهما، والإغراء والإغواء من خلال إظهار مفاتن النساء، وظهور النساء مع الرجال في أفلام إعلانية خليعة تروج للممارسات الجنسية، وترويجها للمسابقات من خلال القدرة على دخول عالم الشهرة والنجومية أو الربح السريع، وذلك بالمشاركة في تلك البرامج والتفاعل معها، وفي ظل تزايد بث هذا النوع من البرامج المغرية قد يكون لذلك انعكاس خطير على حياة الشباب يدفع بالكثير منهم إلى الانفصال التدريجي عن الواقع الذي يعيش فيه فقد تُصَور للشباب–الإعلانات التلفزيونية– أنَّ الحياة تجري على أساس النمط التي يشاهدونه في الأفلام والمسلسلات، وأنها دوماً هادئة وملونة، وهذا في حقيقة الأمر عزل اصطناعي للشباب عن واقع الحياة كلها بكل ما فيها. وانطلاقا مما تقدم يمكن لنا أن نتساءل:

–ما أثر الإعلان التلفزيوني على قيم وسلوكيات الشباب الجزائري؟

أولاً: نوع الدراسة ومنهجها.

المنهج الملائم لهذه الدراسة هو منهج المسح الوصفي، ويعد من"أنسب المناهج العلمية للدراسات التي تستهدف وصف وبناء وتركيب جمهور وسائل الإعلام وأنماط سلوكه بصفة خاصة، من خلال تسجيل وتحليل وتفسير الظاهرة في وضعها الراهن بعد جمع البيانات اللازمة، والكافية عنها وعن مصدرها، عن طريق مجموعة من الإجراءات المنظمة التي تحدد نوع البيانات ومصدرها وطرق الحصول عليها".(9) كما نستخدمه في مسح التراث العلمي النظري لهذه الدراسة، وذلك لعرض أهم المقاربات العلمية التي تشكل الأرضية، التي يجب أن يعود إليها الباحث، حتى يتعرف على النقاط التي وصل إليها الباحثون، وحتى يستطيع أن يربط بين النتائج المتوصل إليها وصياغة مشكلة دراسته وفرضياتها. ونستعمل هنا منهج مسح جمهور وسائل الإعلام–أحد فروع منهج المسح– للتعرف على الخصائص الأساسية والسمات العامة والاجتماعية والثقافية التي يتميز بها جمهور المشاهدين، التي تفيد في التعرف على مدى أثر الإعلان التلفزيوني على سلوكيات وقيم الشباب. وجاء استعمال ذلك المنهج بوصفه الأكثر ملائمة لهذه الدراسة.

ثانياً: مفاهيم ومصطلحات الدراسة.

يعتبر تحديد المفاهيم والمصطلحات العلمية أمراً لابد منه في الدراسات والبحوث العلمية ويرجع ذلك إلى أنَّ المفاهيم تتعدد في البحوث الاجتماعية والإعلامية والنفسية تبعاً لتلك المجتمعات وخصائصها وكما أنَّ الباحثين أنفسهم اختلفوا حول إعطاء مفهوم واحد لظاهرة معينة، وبذلك اختلفت المفاهيم من باحث إلى لآخر، وفي دراستنا هذه سنتطرق إلى المفاهيم الآتية:

2-1- **تعريف الإعلان:** لقد تعددت التعريفات المطروحة من قبل الباحثين للإعلان, ورغم تعدد هذه التعريفات فإن الإطار الفكري لها يبقى واحداً. و من بين هذه التعريفات، تعريف "اكسيتفلد" الذي عرفه على أنه "عملية اتصال تهدف إلى التأثير على المشتري, من خلال إجراءات ووسائل غير شخصية يقوم بها البائع، حيث يفصح المعلن عن شخصيته, ويتم الاتصال من خلال وسائل الاتصال العامة"، وعرفه أيضا "كروفورد" بأنه "فن إغراء الأفراد على السلوك بطريقة معينة".(10) وعرفته لجنة التعاريف التابعة لجمعية التسويق الأمريكية بـ"الجهود غير شخصية, التي يدفع عنها مقابل, لعرض الأفكار والسلع والخدمات وترويجها".(11) وجاء في موسوعة ويكيبيديا على أنه أحد الأنشطة الإعلامية التي لا غنى عنها في الأنشطة الاقتصادية، من صناعة، وتجارة، وخدمات، وغيرها من الأنشطة الاقتصادية الأخرى. وكذلك بالنسبة للمؤسسات والجمعيات الخيرية غير الربحية والتي بدون الإعلان عن مجهوداتها فلن تحصل على الدعم المجتمعي والتمويل المادي اللازم لاستمرارها في عملها وأدائها لرسالتها. وعرفه أيضا الدكتور "فضل الشعراوي" على أنه "نشاط اتصالي غير شخصي, يتم بواسطة وسائل اتصال عامة, من قبل جهات معلنة تقوم بدفع مقابل مادي, لايصال المعلومات إلى من يعنيهم الأمر, سواء كانوا مستهلكين أو عامة الناس".(12) وعرفه أيضا كل من الكاتبان " A.cadet et B.cathelat "على أنه نمط يؤدي إلى خلق ثقافة معينة توجه الفرد نحو استهلاك ما، أو تؤدي إلى تغيير طريقة تفكيره وتصرفاته". وعرف أيضا من الناحية الاجتماعية من طرفهما على"أنه مؤسسة اجتماعية تعمل على خلق انسجام بين المنتج والمستهلك، فهو إذن تقنية للاندماج الاجتماعي".(13)

❖ 02-2-**الشباب:** تبدأ مرحلة الشباب (Youth) -أو المراهقة(Adolescence) كما تسمى في بعض الكتابات- بتخطي مرحلة بلوغ الحلم(Puberty) أو اكتمال النضج الجنسي-بلوغ القدرة على التناسل وتيقظ الحاجة الجنسية-. ويحدث ذلك عند سن الخامسة عشرة، أو قبلها بقليل. وتغطي مرحلة الشباب مدة عشر سنوات تقريباً فتنتهي في الخامسة والعشرين أو ما حولها. فمصطلح بلوغ الحلم يشير إلى الناحية الجنسية من النضوج، أو الإرتقاء(*)(14) والتي تتمثل في اكتساب القدرة على القذف

عند الذكر والحيض عند الأنثى، بالإضافة إلى الخصائص الجنسية الثانوية. تشهد بداية مرحلة الشباب اقتراب شكل الجسم، ووظائفه من آخر درجات النضج. ومن الناحية النفسية يكاد عمر الفرد العقلي يصل إلى قمته. ويتيقظ إحساس الشخص بأنه لم يعد صغيراً، ويطالب بتوقف معاملته على أنه صغير. ومن الناحية الاجتماعية يتأكد اعتراف الآخرين بأن الشخص لم يعد طفلاً، وإن كانوا يترددون في الاعتراف به كرجل. وبداية الشباب هي بهذا نقطة تحول.(15)

لقد حصل اختلاف كبير بين الدارسين والكتاب حول تحديد مرحلة الشباب، فثمة من يحددون بدايتها بسن الثالثة عشرة، ويطلقون عليها–حتى سن الواحدة والعشرين على الأقل– مرحلة المراهقة. وهناك من يبدأها بالرابعة عشرة ويحدد فترتها الأولى بنهاية الثامنة عشرة، ويصل بفترتها الثانية–أو المتأخرة– إلى سن السابعة والعشرين. ويرى آخرون أن تغطي الفترة من سن السابعة عشرة حتى السابعة والعشرين أو ما بعدها. بل إن بعض الباحثين –الذين يبدؤون بها عند الخامسة عشرة–يصلون بنهايتها إلى حدود الثلاثين. ويراها آخرون عصية على التحديد، تختلف بدايتها ونهايتها من فرد إلى فرد، ومن جنس إلى جنس، ومن ثقافة إلى ثقافة.(16)

ويرجع بعض هذه الفروق إلى اختلاف النقاط المرجعية، أو المعايير التي يعتمد عليها الباحثون المختلفون عليها في التحديد، من جهة، وإلى اختلاف السياقات أو الظروف التي ترى فيها الظاهرة من جهة أخرى، فالبعض يهتم بالنمو الجسمي والجنسي، وآخرون يهتمون بالنمو النفسي، وفريق ثالث يركز على تغير الوضع الاجتماعي والأدوار الاجتماعية. وتختلف السياقات باختلاف الطابع الحضاري، والنظام الاجتماعي، والمستوى الاقتصادي الاجتماعي. وهناك "بعض الدول التي تحصر أعمار الشباب بين سن اثنى عشرة وخمسة وثلاثون(12 و35سنة) وفقاً لتشريعاتها أو انطلاقاً من مسؤولية الشباب الاقتصادية والاجتماعية".(17)

وحدد الباحث السعيد بومعيزة في أبحاثه أن مرحلة الشباب هي التي تبدأ من(19 إلى 29) سنة لأن فترة ما قبل 19 عاماً قد تطغى عليها خصائص المراهقة أكثر، وأن فترة ما بعد 29 عاماً قد تحمل عواقب نفسية بالنسبة للشباب الذي يبلغ الثلاثين سنة ويعتبر نفسه أنه أصبح من عالم الكهول.(18)

وحدد الباحث عبد الله بوجلال في أبحاثه أن مرحلة الشباب هي المرحلة التي تمتد بين سن (15و26 سنة) وقسم هذه المرحلة نفسها إلى ثلاثة مراحل: مرحلة أولية وتقع بين (15 و18 سنة) ومرحلة ثانية بين (19 و22 سنة) ومرحلة ثالثة بين (23 و26 سنة).

ويرى علماء الاجتماع أن الشباب هم كل من يدخل في السن من (15 إلى 25 سنة)، ويبنون رأيهم على أساس أن أولئك قد تم نموهم الفسيولوجي، أو العضوي بينما لم يكتمل نموهم النفسي والعقلي اكتمالاً تاماً، وبالتالي فهم في مرحلة وسط بين الطفولة وبين المراهقة وبين الرجولة الكاملة. والشباب ليس مجرد مرحلة زمنية تبدأ في الخامسة عشر والعشرين، أو ما قبلها بقليل بعدد آخر من سنوات، حيث يكتمل النمو الجسمي والعقلي على نحو يجعل المرء قادراً على أداء وظيفته المختلفة، وإنما هو مجموعة من الخصائص والمواصفات التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عند نظرنا إلى مرحلة الشباب، وهي في كل الأحوال مرحلة لا تنفصل عن بقية مراحل العمر وخاصة مرحلة الطفولة والمراهقة، فالشباب لا يمثل مرحلة نمو مفاجئ وإنما هو استمرار لعملية التنشئة الاجتماعية التي تبدأ من مرحلة الطفولة المبكرة وتستمر خلال مراحل كل الحياة.(19)

❖ 02-3- **تعريف القيم**: اختلف المفكرون حول تحديد مفهوم القيم، فهناك من أرجع مصدرها للدين ومنهم من أرجعها للمجتمع، وتضاربت الرؤى بينهم، مما تطلب منا أن نقدم تعريفات مختلفة حتى نستطيع تحديد التعريف الإجرائي لدراستنا، لأن متغير القيم يعد من أصعب المتغيرات قياساً في الواقع.

تقوم القيم في الفكر المثالي على أساس الاعتقاد في وجود عالمين، إحداهما مادي والآخر معنوي، وأنَّ الإنسان الكامل يستمد من عالم السماء قيمه، وهي مطلقة كاملة (الخير، الحق، الجمال) من عالم المثل، فهي غير قابلة للتغيير. أما القيم في نظر الفلاسفة الواقعيين فهي حقيقة موجودة في عالمنا المادي، وليست خيالاً أو تصوراً، وأن كل شيء له قيمة، وأن الإنسان يستطيع أن يكتشف القيم باستخدام الأسلوب العلمي (عن طريق الفعل). فالقيم عندهم مطلقة، ولكن يمكن الحصول عليها وتقديرها عن طريق المشاهدة، وأيضاً يرون بأن لوجودنا قيماً غنية كافية وشاملة ممثلة للناس، وكل القيم بالتالي هي قيم اجتماعية تحقق للإنسان سعادة ولذة ومنفعة، ومن ثم تحفزه على العمل. أما القيم عند البرجماتيين (النفعيين): تتمثل في أنهم يؤمنون بعدم وجود قيم أخلاقية مطلقة، فأحكامنا حول القيم القابلة للتغيير وبالتالي فالقيم والأخلاق عندهم نسبية فالقيم عندهم تقاس بنتيجتها أي بما يعود فيها بالخير على الفرد. والمجتمع في المواقف التي تطبق فيها وأيضا القيم لديهم ذاتية، لأنهم يرون ضرورة أن تعتمد الأحكام التي تصدرها على شيء ما".(20)

القيمة فكرة يعتقد بها الإنسان ويعتنقها وتجعل منه إنساناً أو مواطناً صالحاً ومتكيفاً مع جماعته أو مجتمعه، ولذلك يطلق على هذه القيم تعبير القيم الاجتماعية، لأنها تنشأ من احتكاك الأفراد بعضهم البعض واتصالهم في جماعة أو مجتمع. فالقيم هي الصفات الشخصية التي يفضلها أو يرغب فيها الناس

في ثقافة معينة، ولهذا كانت القيم هي التي تتصل اتصالاً مباشراً بثقافة المجتمع، فالعادات والتقاليد والأعراف تصنعها القيم في أي مجتمع، ومن هنا كانت القيم مكتسبة، وكلما كانت القيم ذات عمق واضح، تم اكتسابها دون وعي، وتصبح من موجهات السلوك دون إحساس مشعور به(21) وهناك من عرفها بأنها: "المرغوب فيه، أو ما يرغب فيه الفرد أو الجماعة الاجتماعية، وقد تتمثل الرغبة في الأفكار أو في العلاقات الاجتماعية، أو في الجوانب المادية وكل ما يتعلق بمتطلبات المجتمع".(22)

ومن أهم التعاريف التي نالت اتفاق معظم المنظرين في العلوم الاجتماعية تعريف كل من "**كلوكهوهن**" وتعريف "**روكايتش**"، إذ يعرف "كلوكهوهن" القيمة بأنها "مفهوم ضمني أو صريح، مميز من مميزات الفرد أو خاصية من خصائص الجماعة حول ما هو مرغوب فيه، والذي يؤثر على اختيار أنماط ووسائل وأهداف الفعل. أما "**روكايتش**" يميز بين نوعين من القيم، النوع الأول هو القيم الغائية، والأهداف النهائية التي يسعى الفرد إلى تحقيقها كالحرية والاحترام الذاتي والحياة المريحة، والنوع الثاني هو القيم الوسائلية أو الأنماط السلوكية المتبعة لتحقيق الأهداف الغائية كالجدارة والشجاعة والطاعة. وعرف كثير من علماء النفس أمثال "**ميرفي**" و"**نيوكمب**" و"**تولمان**" و"**لادروف**" القيم تعريفات مختلفة تكمل بعضها البعض، ومن خلال هذه التعريفات نقدم هذا التعريف للقيم: "القيم عبارة عن نظام معقد يتضمن أحكاماً تقويمية إيجابية وسلبية تبدأ من القبول إلى الرفض ذات طابع فكري ومزاجي نحو الأشياء وموضوعات الحياة المختلفة بل نحو الأشخاص، وتعكس القيم أهدافنا واهتماماتنا وحاجاتنا والنظام الاجتماعي والثقافة التي تنشأ فيها بما تتضمنه من نواحي دينية واقتصادية وعلمية".(23) وعرفها المفكر الجزائري "**عزي عبد الرحمن**" في نظريته الحتمية القيمية: بأنها –القيمة– "ما يرتفع بالفرد إلى المنزلة المعنوية، ويكون مصدر القيم في الأساس الدين، فالإنسان لا يكون مصدر القيم وإنما أداة يمكن أن تتجسد فيه القيم".(24)

ومن خلال التعريفات المقدمة لمفهوم القيم، يمكن أن نستخلص أن تحديد مفهوم القيم يختلف باختلاف المفكرين ومرجعيتهم الفكرية والبيئية التي تطبق فيها تلك القيم، فهناك من أرجع مصدرها للدين في شكل أفكار خالدة، أو مطلقة أو إلهية، غير قابلة للتغيير وعلى الفرد أن يخضع لتلك القيم وأن يحترمها ويتصرف وفقها في البيئة التي يتفاعل فيها، وهناك من أرجع مصدر القيم للمجتمع والعادات والأعراف والتقاليد السائدة داخل الأنظمة الاجتماعية، بالإضافة لذلك هناك من يفسر القيم على

أساس الرغبات والحاجات والإشباعات التي تتجسد في سلوكيات الأفراد والنشاطات التي يقومون بها يومياً في حياتهم.

ثالثاً: أدوات جمع البيانات.

انطلاقاً من طبيعة بحثنا تطلب منا الاعتماد على أداتين من أدوات البحث العلمي، وهذا بهدف الوصول إلى نتائج دقيقة وموضوعية وهي: الاستمارة (الاستبيان) كأداة أساسية، بالإضافة إلى الملاحظة كأداة مساعدة إلى جانب الاستبيان.

رابعاً: مجتمع الدراسة وعينته: يتضح لنا من الوهلة الأولى أنّ مجتمع الدراسة يتمثل في الشباب الجامعي الجزائري على مستوى جامعات الجزائر الآتية:(باتنة، الجزائر العاصمة، وهران، ورقلة)، والمقدر عدده يوم الدراسة بـ(7188) مفردة لموسم(2012-2013) حسب إحصاءات مقدمة من قبل إدارة الجامعات المحددة في عينة الدراسة. بعد تحديد مجتمع الدراسة، قمنا بتحديد عينة الدراسة باستخدام العينة المتعددة المراحل (العنقودية)، وهي التي يتم اختيار مفرداتها على أكثر من مرحلة، فيتم اختيار وحدات العينة من المجموع الكلي لوحدات المجتمع، على أن يقسم المجتمع الكلي أولاً إلى مجموعة من الوحدات، وهي وحدات إبتدائية نختار منها عينة وهذه هي المرحلة الأولى، ثم يعاد تقسيم الوحدات الإبتدائية في العينة التي أختيرت إلى وحدات ثانوية نختار من بينها عينة جديدة، وهذه هي المرحلة الثانية وهكذا...". من هذا المنطلق تم اختيار عينة الدراسة على عدة مراحل. وقدر العدد النهائي لعينة الدراسة بـ (718 مفردة) موزعة كالآتي: (380 مفردة) تمّ اختيارها من جامعة الجزائر03 (قسم علوم الاتصال والإعلام). و(146 مفردة) تمّ اختيارها من جامعة باتنة (قسم علوم الاتصال والإعلام)، و(92 مفردة) تمّ اختيارها من جامعة ورقلة (قسم علوم الإنسانية)، و(100 مفردة) تمّ اختيارها من جامعة وهران(قسم العلوم الإنسانية).

خامساً: نتائج الدراسة الميدانية: أثر مشاهدة الإعلانات التلفزيونية على قيم الشباب الجامعي.

01-كشفت نتائج الدراسة الميدانية أنَّ (34.13%) من المبحوثين لا يوافقون على أنَّ الإعلان التلفزيوني ينظم حياتهم اليومية من حيث الإنفاق وترشيد الاستهلاك، وهذا راجع إلى نقص تركيز أغلبية الشباب عند متابعة الإعلانات التلفزيونية وانشغالهم بمتابعة البرامج المفضلة، بالإضافة إلى الوضعية الاقتصادية المتوسطة والتي لا تسمح لهم بشراء السلع والخدمات المعلن عنها، وخصوصاً التي تعد مهمة في حياتهم، لأنَّ ما يروج له من خدمات وسلع يصنف في أغلبه ضمن كماليات الحياة. كما تعتبر نقص

ثقافة التعامل مع الإعلان لدى نسبة كبيرة من الأسر سبباً وجيهاً في عدم الاعتماد على ما يقدمه الإعلان لهم من معلومات يومية عن السلع أو الخدمات التي تنظم حياتهم اليومية، وتعينهم على كيفية توجيه سلوكياتهم.

02-أظهرت نتائج الدراسة الميدانية بأنَّ أغلبية المبحوثين يوافقون بشدة على أنَّ أغلبية الإعلانات التي تقدمها القنوات العربية تسيء لمكانة المرأة العربية المسلمة وذلك بنسبة (74.11%)، ويمكن تفسير ذلك بكثرة ظهور المرأة متبرجة وعارية في الكثير من الإعلانات التلفزيونية، بالإضافة إلى كثرة المشاهد التي تجمعها مع الرجال في مواقف مثيرة للغرائز والشهوات. وهذا يعد تشويهاً لصورتها واختزالاً لدورها الفعال في بناء مؤسسات المجتمع وتربية الأجيال.

03-كشفت بيانات الدراسة الميدانية، أنَّ (85.60%) من الشباب الجامعي المبحوث يوافقون بشدة على أنَّ الإعلانات التلفزيونية تزعجهم كثيراً عند متابعتها داخل برامجهم المفضلة، وهذا من خلال قطع فترات المشاهدة وإدراج فقرات خاصة بالإعلانات تتكرر لعدة مرات، وفي بعض الأحيان تتجاوز مدة الإعلانات الحد المعقول، إذ تتساوى مع مدة البرامج التلفزيونية، وهذا مرفوض في أغلب التشريعات والقوانين العربية التي تنظم العملية الإعلانية. ويعود سبب اعتماد وكالات الإعلان على أسلوب إدراج الفواصل الإعلانية داخل محتويات البرامج التلفزيونية، من أجل كسب مزيداً من المشاهدين للسلعة أو الخدمة المعلن عنها.

04-بينت نتائج الدراسة الميدانية أنَّ أغلبية المبحوثين الشباب يوافقون على أنَّ الإعلانات التلفزيونية لا تعكس أسلوب حياتهم وبيئتهم المحلية وذلك بنسبة (66.62%)، إذ تصور لهم حياة افتراضية جديدة تختلف تماماً عن ما هو موجود في واقعهم الحقيقي، ويعد ذلك حسبهم ترويجاً لحياة الرفاهية والمستويات العالية من المعيشة، لأنَّ أغلبية السلع والخدمات المعلن عنها تندرج في خانة السلع الكمالية، وهذا يتجاوز قدرتهم الاقتصادية.

05-أظهرت بيانات الدراسة الميدانية بأنّ أغلبية المبحوثين الشباب يوافقون على أنَّ أغلب الإعلانات التي تقدمها القنوات العربية لا ترقى إلى المستوى والشكل الفني المطلوب وذلك بنسبة (43.12%)، إذ نجد أغلب الحملات الإعلانية التي تقدمها الوكالات الإعلانية المحلية، لا تخضع للمقاييس والمعايير التقنية والفنية التي تعتمد في تصميم الإعلانات الدولية، إذ نجد الوكالات الإعلانية الأجنبية تخصص ميزانيات مالية ضخمة من أجل تنفيذ حملة إعلانية حول سلعة أو خدمة معينة، إذ تقسم هذه الميزانية على العناصر الآتية: طريقة كتابة سيناريو الإعلان، وطريقة إخراجه وتصويره، ونوعية الشخصيات

المقدمة له، ونوعية المؤثرات الصوتية المعتمدة، وهذا من أجل إنتاج فيلم إعلاني قصير –لا يتعدى ثواني أو دقائق معدودة– يثير انتباه الجماهير المستهدفة من الإعلان، ويحدث الأثر المطلوب والمخطط له من قبل المؤسسات المنتجة والمعلنة.أما الإعلان المحلي فأغلبه يخضع للارتجالية في التصميم والإخراج والتصوير.

06–كشفت نتائج الدراسة الميدانية بأنَّ أغلبية المبحوثين يوافقون على أنَّ الإعلانات المقدمة في القنوات الفضائية العربية لا تروج بحجم كبير للمنتجات المحلية ولا تشجع على شرائها وذلك بنسبة(69.92%)، وإنما الترويج للمنتجات والسلع المستوردة هو الغالب على شاشات التلفزيون العربي، وهذا نظراً لكثرة المؤسسات والشركات المتعددة الجنسيات وفروعها داخل البلدان العربية، بالإضافة إلى نقص المنافسة من قبل المنتوج المحلي في الأسواق المحلية والدولية.

07–بينت نتائج الدراسة الميدانية بأنّ أغلبية أفراد عينة الدراسة يوافقون على أنَّ الشخصيات التي تقدم الإعلانات التلفزيونية لا تمثلهم في حياتهم اليومية وذلك بنسبة (67.82%)، إذ تروج أغلب هذه الشخصيات لسلوكيات غريبة عن عاداتنا وتقاليدنا، وأعرافنا وقيمنا الاجتماعية، أثناء الإعلان عن السلعة أو الخدمة، إذ يعد ذلك في نظر المعلنين الاقتصاديين، عبارة عن استمالات لإثارة انتباه الجمهور، ودفعه نحو سلوك الشراء.

08–وافق أغلبية الشباب الجامعي المبحوث على أنّ الإعلان التلفزيوني المقدم في القنوات العربية في تطور مستمر شكلاً ومضموناً وذلك بنسبة (63.32%)، وهذا نتيجة المنافسة الكبيرة التي فرضها الإعلان الدولي عبر شاشات التلفزيون العربي أو الدولي، لأنَّ التطور الكبير الذي شهده هذا الأخير– الإعلان الدولي– على مستوى التقنية والمحتوى جعله يصل إلى جميع أنحاء العالم بمختلف الأشكال والصور والرموز. وهذا يعد دافعاً لتحسين مستوى الإعلانات المحلية خصوصاً من الجانب التقني والمحتوى.

09–كشفت نتائج الدراسة الميدانية أنّ أغلبية المبحوثين يوافقون على أنّ أغلب الإعلانات المقدمة في القنوات العربية ساهمت بحجم كبير في الترويج للثقافة الغربية الاستهلاكية، وذلك بنسبة (75.62%)، حيث غيرت هذه الثقافة العالمية النظام الغذائي للكثير من الأسر والأفراد، ودفعت بهم نحو تناول الوجبات السريعة والجاهزة، فقد يكون لها أضرار كثيرة أكثر من منافعها، حيث ساهمت في انتشار أمراض مزمنة بين فئات المجتمع مثل (السمنة والبدانة، انسداد الشرايين، مشاكل القلب، السكري، الضغط الدموي، داء القولون العصبي، ...إلخ)، وهذا نتيجة لتناول كميات كبيرة من المأكولات المقلية

في الزيوت والشحوم والهمبورغر، وغيرها من الأطعمة السريعة غير المرغوب فيها والمثقلة بالدهون والسعرات الحرارية التي رأوا إعلاناتها على شاشات التلفزيون.

10-بينت نتائج الدراسة الميدانية بأنّ أغلب الشباب المبحوث يوافق على أنّ الإعلانات التي تعرضها القنوات العربية لا تعبر مضامينها عن قيم المجتمع العربي والإسلامي، وذلك بنسبة (79.64%)، حيث أصبح الإعلان وسيلة لترويج قيم الآخر(الغرب) عن طريق الإعلان عن منتوجاته وثقافته، والتي تحمل معها الكثير من القيم والسلوكيات الغريبة عن مجتمعاتنا، والمتعارضة في أغلبها مع قيمنا وعاداتنا، وتقاليدنا وأعرافنا الاجتماعية. فما نلاحظه من إعلانات مستوردة عبر القنوات العربية يحمل في طياته العديد من الرسائل التي قد تكون خطيرة على مستقبل أبنائنا المشاهدين لها مثل (السفور والفجور، العري والاختلاط، كثرة العلاقات غير الشرعية بين الجنسين، المبالغة في عرض أنماط الحياة، الخيال المبالغ فيه، التبذير والإسراف، المبالغة في عرض الواقع، الترويج للثقافة المادية....إلخ).

11-كشفت نتائج الدراسة الميدانية بأنّ أغلبية الشباب المبحوث يوافق على الاتجاه القائل بأنّ الإعلان التلفزيوني يشجع على التبذير والإسراف في الإنفاق وذلك بنسبة (59.74%).لأنَّ التنوع والتعدد في السلع والخدمات المعلن عنها قد يدفع المشاهد إلى الوقوع في تشوش ذهني عند عملية الإنفاق، وهذا نتيجة كثرة الاستمالات الإقناعية المرافقة للسلعة أو الخدمة. إذ نجد الكثير من وكالات الإعلان تعتمد سياسة التكرار والإعادة أثناء بث الإعلانات، وخصوصاً السلع والمواد التي تعتبر من الكماليات في حياة الإنسان، إذ تتشكل في ذهن المشاهد صور ذهنية إيجابية عن هذه السلع المعلن عنها، وقد يقتنع بشرائها نظراً للفوائد التي تحققها في حياة الفرد، حتى وإن كانت قدرته الاقتصادية لا تسمح بذلك، وهذا السلوك قد يجر صاحبه إلى الوقوع في مشاكل كثيرة نتيجة تبذير المال على السلع الكمالية، وإهمال بعض ضروريات الحياة، وقد يدفع به ذلك إلى اقتراض الأموال من جهات معينة، وإذا استمر الوضع على حاله فقد ينجم عن هذه الحالات مشاكل كثيرة داخل الأسرة سواء كانت مشاكل اقتصادية، أو مشاكل اجتماعية.

12-بينت الدراسة الميدانية بأنَّ أغلبية المبحوثين يوافقون على أنَّ الكثير من الإعلانات التي تقدمها القنوات العربية تظهر الاختلاط والتبرج والعلاقات غير الشرعية على أنَّها أمور عادية ومن الحريات الشخصية وذلك بنسبة (51.49%)، فالكثير من القنوات العربية تعمد إلى بث الكثير من الإعلانات التي تظهر المرأة متبرجة وفي ثياب تكشف كل أطراف جسدها وهذا بغية لفت انتباه الجمهور المستهدف من السلعة، كما أن بعض المشاهد تظهر المرأة مختلطة مع الرجال في مواقف مثيرة للشهوات والغرائز

الجنسية، فما يهم وكالات الإعلان والقنوات الفضائية هو تعريف الجمهور بالسلعة أو الخدمة المعلن عنها دون مراعاة للمعايير والمنظومة القيمية السائدة داخل المجتمع.

13-كشفت نتائج الدراسة الميدانية بأنّ أغلبية المبحوثين يعارضون الاتجاه القائل بأنَّ الإعلانات التلفزيونية تدعم عملية انتشار اللغة العربية وتساعد أفراد المجتمع على التمسك بها وذلك بنسبة (39.80%)، إذ يعتقد المبحوثين أنَّ اللغة العربية مهمشة كثيراً داخل محتويات الإعلان، إذ تستخدم وكالات الإعلان اللهجات المحلية واللغات الأجنبية بحجم كبير، في حين نجد أنّ اللغة العربية نصيبها قليل جداً، وهذا نتيجة أسباب واهية تتحجج بها وكالات الإعلان والقنوات العربية، إذ يعتقد المسؤولون عن هذه المؤسسات الإعلامية، بأنَّ اللهجات العربية لغة مفهومة وبسيطة ومتداولة بين أغلبية فئات المجتمع، وتعد الأنسب في عرض الإعلانات، عكس اللغة العربية الفصحى التي تتطلب مستوى علمي وثقافي كبير لفهم معانيها ومفرداتها. وقد أدى استعمال اللهجات المحلية واللغات الأجنبية داخل الإعلانات التلفزيونية، إلى انتشار مفردات وعبارات وتراكيب لغوية غريبة جداً عن لغتنا الأم، قد يكون لها انعكاس خطير على مستقبل أبنائنا في تحصيل لغتهم الوطنية.

14-أظهرت نتائج الدراسة الميدانية بأنَّ أغلبية المبحوثين يوافقون على أنَّ الكثير من الإعلانات التلفزيونية تشجع على الربح السريع، من خلال المشاركة في برامج الألعاب والمسابقات وذلك بنسبة (54.49%)، إذ ساهمت مثل هذه المسابقات في إشاعة الكثير من السلوكيات والقيم الغريبة عن مجتمعاتنا العربية والإسلامية بين شبابنا، مثل (الخمول والكسل، حب الربح السريع، حب التواكل، النفور من العمل، الاختلاط بين الجنسين، حب القمار والميسر، حب الكسب الحرام، تبذير المال والوقت والجهد، الاستهانة بالقدرات العقلية للمشاهدين....إلخ).

15-كشفت نتائج الدراسة الميدانية بأنَّ أغلبية المبحوثين الشباب يوافقون بدرجات متفاوتة على استخدام القيم الآتية داخل الإعلانات التي تبثها القنوات الفضائية العربية: قيّم الطفولة والأسرة بنسبة (76.05%)، وقيمة حب الوطن بنسبة (82.31%)، وقيمة الشباب والمرح بنسبة (75.76%)، وقيمة العادات والتقاليد المحلية بنسبة (77.85%)، وقيمة الخيال والاستعراض بنسبة (48.06%)، وقيمة الجمال والأناقة بنسبة (72.31%)، وقيمة المستويات العادية من المعيشة بنسبة (69.76%)، وقيمة المستويات العالية من المعيشة بدرجة أقل بنسبة (44.77%). وهي كلها قيم إيجابية تؤكد على أنَّ أغلبية المبحوثين حريصون على مشاهدة قيمهم الثقافية، والاجتماعية، والدينية، والجمالية، والنفسية، مجسدة داخل المحتويات الإعلانية التي تبثها القنوات العربية، وهذا حفاظاً على المنظومة القيمية والمعايير

الاجتماعية التي تقوم عليها مؤسسات المجتمع. ولكن ما نشاهده من إعلانات عبر القنوات العربية قد لا يترجم تفضيلات الشباب الجزائري، إذ نجد أنَّ قيمة الجمال والأناقة استخدمت بمفاهيم سلبية داخل محتويات الإعلان، إذ انحصرت هذه القيمة في تبرج المرأة وظهورها عارية مع الرجال، وفي مواقف مثيرة للرغبات والغرائز الجنسية، وهذا يتعارض كلية مع قيمنا التي جاء بها الدين الإسلامي. كما أنّ استخدام الطفولة والأسرة في الكثير من الإعلانات التلفزيونية فيه تلاعب بمشاعر البراءة، من خلال إدراجها في إعلانات لا تهمها إطلاقاً. أما قيمة الخيال والاستعراض فهناك مبالغة في استخدامها أثناء عرض بعض السلع والخدمات، مما قد ينعكس سلباً على المستهلك عند شراء السلعة أو الخدمة. أما قيمة المستويات العادية والعالية من المعيشة، فنجد بأنَّ الإعلان التلفزيوني يروج كثيراً للمستويات العالية من المعيشة، ويتجسد ذلك في عرض السلع والخدمات الكمالية والتي تناسب العائلات ذات الدخل المرتفع، أما المستويات العادية من المعيشة فقليلا ما يعتمد عليها.

وكشفت الدراسة أيضاً بأنَّ أغلبية المبحوثين يعارضون بشدة استخدام السلوكيات والقيم الآتية داخل الإعلانات التي تعرضها القنوات العربية: قيمة الإغراء والإثارة الجنسية بنسبة (74.26%)، والقيم والسلوكيات الغربية بنسبة (61.09%)، وقيم المادة والربح بنسبة (45.5%). ولكن ما نشاهده عبر القنوات العربية عكس ذلك تماماً، إذ أصبحت المواد الإعلانية فضاءً لنشر قيم الإغراء والإثارة الجنسية من خلال إظهار المرأة في مواقف مثيرة للرغبات والشهوات الجنسية، بالإضافة إلى ظهورها عارية أثناء عرض السلع والخدمات، وهذا ما أثبتته الملاحظة العلمية(أنظر الملاحق)، أما القيم والسلوكيات الغربية فقد أصبح الإعلان الدولي وسيلة لترويج قيم وسلوكيات الحضارة الغربية داخل البيئة المحلية التي نعيش فيها عن طريق السلع والخدمات المستوردة، والتي تسوق عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات وفروعها داخل البيئة المحلية. أما برامج المسابقات والألعاب التي تسعى الكثير من الشركات المحلية والدولية إلى دعمها ونشرها عبر القنوات العربية فقد ساهمت في نشر قيم المادة وحب الربح السريع بين شبابنا، من خلال إغرائه واستمالته بالجوائز المالية والمادية، والتي تشتريها من اتصالات المشاركين في هذا النوع من البرامج.

16-كشفت نتائج الدراسة الميدانية بأنَّ أغلبية المبحوثين يعتقدون أنّ مشاهدتهم للإعلانات التلفزيونية عبر القنوات العربية ساعداهم على أن يرتبطوا بالقيم التي اختارها الباحث في دراسته إذ تتراوح نسب الإجابة الموجبة بين (60 و80 %). ومن بين القيم التي يعتقد أغلبية المبحوثين أنّ مشاهداتهم للإعلانات التلفزيونية أدى إلى زيادة ارتباطهم بها نجد: قيمة احترام الذات بنسبة (76.2%)، قيمة

التضامن الاجتماعي بنسبة (76.2%)، قيمة التنوع الثقافي بنسبة (73.95%)، قيمة الجمال بنسبة (70.21%). وتعتبر فئة الإناث الأكثر اعتقاداً بذلك. أما القيم التي يعتقد أفراد عينة الدراسة أنَّ متابعاتهم اليومية للإعلانات التلفزيونية تساعدهم نوعا ما على التمسك بها فنجد: قيمة (احترام المرأة، ضبط النفس، الأمانة، الالتزام الديني، النزاهة والصدق، حفظ النفس، النزاهة والصدق، حفظ النفس والأخلاق، الصبر، وذلك بنسبة موجبة تنحصر بين (59 و65%). ويعتقد أغلبية المبحوثين بأنَّ عادات وأنماط مشاهدة الإعلان التلفزيوني مكنتهم من الارتباط بالقيم ذات البعد النفسي(احترام الذات، ضبط النفس، حفظ النفس والأخلاق، المتعة) أكثر من الأبعاد القيمية الأخرى.

أما القيم التي تكتسي أهمية متوسطة لدى المبحوثين فنجد(الولاء للسلعة المحلية، ترشيد الاستهلاك، المتعة، التوجيه الذاتي، الرضا والقناعة، الادخار، الحياء والحشمة) إذ يعتقدون بأنَّ الإعلان التلفزيوني لا يساعدهم كثيراً على الارتباط بهذه القيم. أما القيم التي لم يعط لها أفراد عينة الدراسة أهمية كبيرة فتتمثل في (قيمة الرقابة الذاتية، حفظ المال، تحقيق الثروة) إذ يعتقدون بأنّ الإعلان التلفزيوني لا يساعدهم على الارتباط بهذه القيم.

17- توصلت الدراسة إلى أنّ أغلبية المبحوثين يعتقدون بأنَّ هناك تزاوج كبير في استخدام الاستمالات العاطفية والعقيلة أثناء عرض الحملات الإعلانية التلفزيونية، مع تغليب الأولى على الثانية، ومن بين الاستمالات العاطفية الأكثر توظيفاً في الرسالة الإعلانية، وتأثيراً في سلوكيات الأفراد حسب المبحوثين نجد: (الشهية، النكهة، الجنس، الموضة، الصحة)، إذ تتراوح نسبتها بين (42.36% و75.60%)، أما الاستمالات العقلية فنجد (السهولة، التعدد والاختيار، الاقتصاد)، إذ تتراوح نسبتها بين (38.18% و48.20%). أما الاستمالات التي يعتقد الشباب المبحوث بأنّ توظيفها وتأثيرها على سلوكياتهم محدود فقد تمثلت في:(استمالة الخوف، التعاون، قدرة التحمل، الشعور بالذنب الاجتماعي)، وذلك بنسبة تنحصر بين (07.78% و31.74%).

18- كشفت الدراسة الميدانية بأنَّ أغلبية الشباب الجامعي المبحوث يعتقد بأنَّ من بين العوامل الأساسية التي قد تؤدي إلى زيادة أثر الإعلانات التلفزيونية على قيمهم وأخلاقهم وسلوكياتهم بالدرجة الأولى هي، حب الشباب مسايرة عصر تكنولوجيا الاتصال، والانبهار الكبير بما تقدمه لهم من موضة وعصرنة في اللباس والحلاقة، والأكل والحوار والتفكير، وغيرها من السلوكيات المستوردة من الغرب، إذ تعتبر أغلبيتها غريبة وشاذة عن مجتمعاتنا، وذلك بنسبة (30.41%)، وتعتبر فئة الإناث الأكثر تأكيداً على ذلك.

ويعد وقت الفراغ من بين العوامل التي قد تؤدي بالكثير من الشباب إلى الإدمان على مشاهدة البرامج التلفزيونية وتصفح الإنترنت، وذلك بنسبة (23.82%) ممن يعتقدون ذلك من المبحوثين، وقد تنعكس كثرة المشاهدة، والتصفح الشبكي بالسلب على سلوكيات الشباب، فقد يدفع بهم ذلك إلى تصفح المواقع والقنوات الإباحية والإدمان عليها، مما يؤدي إلى فساد الأخلاق.

أما العامل الثالث الذي يعتقد الشباب المبحوث أنه يمكن أن يكون سبباً في زيادة أثر الإعلانات التلفزيونية على المنظومة القيمية الإسلامية، فيتمثل في كثرة وتنوع الإعلانات التلفزيونية عبر القنوات الفضائية العربية، وذلك بنسبة (16.30%)، وتعتبر فئة الذكور الأكثر تأكيداً على ذلك.

19- يعتقد أغلبية المبحوثين أنّ من أهم المعايير والمبادئ التي يجب أن يلتزم بها المسؤولون على القنوات الفضائية العربية أو وكالات الإعلان لحماية المنظومة القيمية الإسلامية من الغزو الثقافي الغربي، احترام عادات وتقاليد المجتمعات العربية والإسلامية، وذلك بنسبة (27.52%). واحترام اللغة العربية والدعوة إلى توظيفها أثناء تقديم الإعلانات في القنوات العربية، وذلك بنسبة (25.28%)، بالإضافة إلى حذف مشاهد الجنس والإثارة من الإعلانات التلفزيونية، لحماية ثقافتنا المحلية من الذوبان في ثقافة الآخر، وذلك بنسبة (16.90%).

إذا كان من الضروري المحافظة على اللغة العربية، والعادات والتقاليد أثناء عرض الإعلان التلفزيوني ومراقبة محتوياته، فكل ذلك يتطلب من المسؤولين داخل الجهات الحكومية فرض قوانين رادعة على من يسيء للمنظومة القيمية التي مصدرها الدين الإسلامي، والعرف الاجتماعي، وهذا ما أكد عليه الشباب المبحوث بنسبة (16.12%).

الخـــاتمـــة

شهد الإعلان في السنوات الأخيرة تطوراً كبيراً على مستوى الرسالة والتقنية، وهذا نتيجة استفادته من التطورات الحاصلة في مجال تكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة، بالإضافة إلى استفادته من التطورات الحاصلة في مجال الدراسات والأبحاث المتعلقة ببحوث الإعلان والتسويق.

ولقد أدى هذا التطور في مجال الإعلان إلى زيادة الاهتمام به كنشاط تجاري بالدرجة الأولى، من قبل الوكالات الإعلانية، والمؤسسات التجارية، والاقتصادية، والخدماتية، ومختلف مؤسسات الإعلام.

ويعد الإعلان التلفزيوني من أكثر الأشكال الإعلانية تطوراً واستفادة من التحولات الكبيرة في عالم التقنية، ويتضح ذلك جلياً على مستوى جودة الصورة الإعلانية المنقولة عبر الأقمار الصناعية

المختلفة. مما جعله يعد المورد المالي الأول، الذي تعتمد عليه كل القنوات الفضائية التلفزيونية في تمويل مشاريعها واستمرار بثها عبر الفضاء الخارجي.

وتعد القنوات الفضائية العربية من بين المؤسسات الإعلامية، التي استفادت من عائدات الإعلانات بحجم كبير، إذ أصبحت معظم القنوات التلفزيونية تبحث عن المعلنين الاقتصاديين من أجل عرض سلعهم وخدماتهم، مقابل مبالغ مالية ضخمة، تحددها في الغالب نوعية البرامج التي تقدمها هذه القنوات، فكلما كانت البرامج التلفزيونية التي تعرضها هذه القنوات ذات مصداقية وشهرة لدى الجمهور المستهدف، أدى ذلك إلى ارتفاع ثمن الساعات الإعلانية عبر الشبكات البرامجية، وخصوصاً البرامج التي تستقطب حجم كبير من فئات المجتمع.

تعد فئة الشباب من أكثر الفئات داخل المجتمع الجزائري، التي تستهدفها الإعلانات التلفزيونية عبر القنوات العربية، إذ تعرض عليهم خدمات وسلع ومتنوعة في أغلبها تندرج ضمن السلع الكمالية، إذ تفضل هذه الفئة مشاهدة الإعلانات التي تواكب مرحلتهم العمرية، وتتماشي مع موضة العصر والتقدم الحاصل في العالم، مثل إعلانات السيارات والعقارات، ومواد التجميل والعطور الفاخرة، والهواتف المحمولة المجهزة بأحدث التكنولوجيا، وأجهزة الحاسوب. فهذه السلع والخدمات تشعر أغلبية الشباب الجزائري بنوع من الراحة النفسية والسعادة عند مشاهدتها عبر التلفزيون، وهناك منهم من يتألم لفقدانها وعدم قدرته على شرائها، لأنَّ حالته الاقتصادية لا تسمح له بذلك.

فتعدد وتنوع الرسائل الإعلانية عبر شاشات التلفزيون العربي، جعل منها نعمة، ونقمة في الوقت نفسه، نقمة على الكثير من الشباب الجزائري، لأنَّها تقطع عليهم متعة المشاهدة، وتدفع بالكثير منهم إلى تغيير القناة نحو وجهة فضائية جديدة، لأنَّ سياسة عرض الإعلانات وتكرارها داخل البرامج المفضلة لديهم، فيه نوع من التعدي على أذواق المشاهدة، وخصوصا عند تجاوز الحد الذي تسمح به أخلاقيات العمل الإعلاني. كما أنّ عرضها داخل البرامج يعد نعمة على أصحاب الوكالات الإعلانية والقنوات الفضائية، وذلك بغية كسب أكبر عدد من المشاهدين للسلع والخدمات المعلن عنها.

إنَّ الإعلان التلفزيوني ليس مجرد عملية تجارية فقط، تتم بين المعلن والمستهلك، وإنما تجاوز ذلك، إذ أصبح الإعلان التلفزيون وسيلة لترويج القيم والثقافات والعادات والتقاليد والأعراف، وهذا ما تسعى له الكثير من المؤسسات الإعلانية من خلال الشركات الاقتصادية والتجارية.

وتعد الشركات الأجنبية المتعددة الجنسيات داخل البيئة العربية، من بين المؤسسات التي تعتمد على الإعلان التلفزيوني لترويج الثقافات الغربية، وقيمها داخل المجتمعات العربية، إذ ساهمت بحجم كبير

في نقل وزرع الكثير من القيم والسلوكيات الغريبة عن ثقافتنا المحلية بين شبابنا وأسرنا، منها نشر ما يسمى بالثقافة الاستهلاكية وأنماطها الغريبة، وأيضا إظهار المرأة في مواقف كثيرة متبرجة ومختلطة مع الرجال، كما تم تصوير المرأة على أنَّها جسد أنثوي يستخدم لإثارة الغرائز الجنسية والإغواء فقط، وهذا يعد تشويهاً لصورتها، ولدورها الفعال في بناء المجتمعات.كما أنَّ الكثير من إعلانات المسابقات والألعاب، ساهمت في نشر قيم الكسب والربح السريع، وإظهار الحياة على أنّها ماديات ورفاهية فقط، كما جسدت الواقع المعيش في صورة ذهنية جميلة، يخلو من المشاكل والعراقيل، ولا يتطلب بذل جهد عضلي وفكري من أجل الحصول على ما يطمح له الشباب من تغيرات وتحولات جديدة على مستواه الشخصي، وهذا يعد تشجيعاً على الكسل والخمول والركود الفكري والإبداعي، والاستهانة بقدراته العقلية.

وقد أكد أغلبية الشباب الجامعي أنهم يفضلون كثيراً مشاهدة الإعلانات التلفزيونية التي تروج لقيم الطفولة والأسرة من جهة، وكذلك قيم حب الوطن والاعتزاز به، ونشر العادات والتقاليد المحلية، بالإضافة التمسك بالإعلانات التي تصور الواقع المعيش، وتظهره في صورة جميلة وأنيقة، وفي المقابل يرفضون الإعلانات التي تسئ لمكانة المرأة العربية المسلمة، وأيضا رفض الإعلانات التي تروج للثقافات الغربية وقيمها، بالإضافة إلى رفض إظهار المستويات العالية من المعيشة، التي تدعو لها الإعلانات الدولية.

ولكن ما نشاهده يومياً من إعلانات عبر القنوات العربية، قد لا يعكس كل طموحات الشباب، لأنَّ الكثير من الإعلانات التلفزيونية تروج للثقافات والقيم الغربية، من خلال إظهار العلاقات الجنسية المتحررة بين الجنسين أثناء الإعلان عن السلع والبرامج، بالإضافة إلى أنَّ قيم الجمال والأناقة التي تسعى مختلف الوكالات الإعلانية إلى إظهارها أغلبها لا تلتزم بالمعايير القيمية السائدة داخل البيئة العربية المسلمة، فالجمال ليس في ظهور المرأة شبه عارية من الثياب عبر شاشات التلفزيون، والأناقة ليست في كثرة الحركات التي تثير الشهوات وتغوي الكثير من المشاهدين. بالإضافة إلى ذلك نجد أنَّ انتشار الثقافة الاستهلاكية في أوساط الأسر الجزائرية يعد نمطاً غذائياً جديداً تسعى لترسيخه الشركات المتعددة الجنسيات بمختلف فروعها داخل البيئة المحلية.

إنَّ الاستمالات الظاهرة في الإعلانات التي تبثها القنوات العربية، أغلبها لا يتوافق مع القيم والعادات والتقاليد السائدة داخل المجتمعات العربية والإسلامية، لأنَّ ما يهم الوكالات الإعلانية هو

تحقيق المزيد من الأرباح وفتح أكبر عدد من الأسواق، والوصول إلى أكبر عدد من الجماهير المهتمة بالسلعة المعلن عنها، وذلك على حساب أذواق وأخلاق المشاهدين.

إنَّ زيادة انتشار الإعلانات التلفزيونية الدولية عبر القنوات العربية، يعود بالأساس إلى تراجع المنتوجات والخدمات المحلية في الأسواق الوطنية والدولية، لأنَّ العجز الذي تعاني منه المؤسسات العربية استغلته الشركات الأجنبية للترويج لمنتوجاتها، مما أدى إلى تمسك الشباب المحلي بهذه المنتوجات وتفضيلها على ما يصنع وينتج في وطنه.

ورغم كثرة الحملات الإعلانية التلفزيونية التي تروج للقيم الغربية عبر القنوات العربية إلّا أنَّ تأثيرها على المنظومة القيمية للشباب الجزائري، يظل محدوداً في ظل توفر عدة عناصر قادرة على حماية قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم من الذوبان في ثقافة الآخر، وهي كالآتي:

01-أنَّ الشباب الجزائري مزود بميكانيزمات نفسية واجتماعية وثقافية تجعلهم يستعملون وسائل الإعلام بصفة انتقائية.

02-عدم تعرض أغلبية الشباب إلى المواد الإعلانية التي تتعارض مع أخلاقهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم.

03-رفض أغلبية الشباب مشاهدة المواد الإعلامية والإعلانية التي تشكل له حرجاً مع أفراد عائلته، وهذا يعد حماية وضبط لسلوك المشاهدة. لأنه كلما شاهد الشباب برامجه المفضلة مع العائلة أدى ذلك إلى الابتعاد عن البرامج التلفزيونية التي تروج للقيم الغربية والسلوكيات الخطيرة المنافية لأخلاقه وقيمه.

ونختم بما قاله "ريجيس دوبريه" إنَّ عالم الصورة الإعلانية التلفزيونية، يندرج ضمن حرب اقتصادية ضاربة لا هوادة فيها، فحركة الصورة تتعلق أساساً بحركة تجارية وتباشر صناعة مهمة تتحكم فيها مصالح هائلة وأموال طائلة، وهو الوضع الذي يحول الصور الإعلانية من تحف فنية ذات قيمة جمالية إلى مجرد منتوج تجاري بقيمة مادية، ولذلك فإذا كانت الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى، فالاقتصاد السمعي البصري هو تصريف للسياسة الدولية بوسائل أخرى، فالصراع الذي تخوضه الولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية، اعتمد على السينما بشكل أساسي، لأنَّه حين يمر فيلم أمريكي تمر معه السيارة الأمريكية وغيرها من منتوجات الاقتصاد الأمريكي، إن صناعة الحلم حددت في هذا السياق كأداة أساسية للهيمنة والتحكم، فمن المؤكد —يقول ريجيس دوبريه-: أنَّ الصورة تتضمن قدرة هائلة على الاستحواذ على وعي الناس وانتباههم وأذهانهم وتنفذ إلى زمانيتنا الخاصة، إنها اجتياح لحميميتنا الفردية".

مراجع الدراسة:

01-رجاء الغمراوى: **الإعلان التلفزيوني وثقافة الاستهلاك**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط1، 2011)،ص.148. (بتصرف).

02-عزي عبد الرحمن: **الثقافة وحتمية الاتصال، نظرة قيمية**، المستقبل العربي، السنة26، العدد(295)، أوت/سبتمبر 2003.

03-محمد مصطفي زيدان: **النمو النفسي للطفل والمراهق ونظريات الشخصية**، (جدة: دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة،1990)،ص.53.

04-مصطفى عبد القادر: **الشباب بين الطموح الانتاجي والسلوك الاستهلاكي**،(بيروت:المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2004)،ص.84 .

05- محمد شطاح: **التلفزيون والطفل**، مجلة المعيار، (قسنطينة : جامعة الأمير عبد القادر، عدد 07، ديسمبر 2003،ص91.

06-مصطفى عبد القادر: **الشباب بين الطموح الانتاجي والسلوك الاستهلاكي**،مرجع سابق،ص.82.بتصرف.

07-محمود عودى: "**أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، دراسة ميدانية في قرية مصرية**"،(القاهرة: سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، 1980)، ص 179.

08-Berman, Ronald : « Advertising and social chang », sage publications, Beverly Hilles, 1992, P 127.

09-محمد عبد الحميد: **دراسة الجمهور في بحوث الإعلام**، (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1993)، ص،122.

10-طاهر محسن الغالبي: **الإعلان**، (عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، دس)، ص،17.

11- أشرف محمد خوجة: **الدعاية والإعلان**، (الأسكندرية: درا المعرفة الجامعية، 2005)، ص،13.

12- عايد فضل الشعراوي: **الإعلان والعلاقات العامة**، (بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر،2006)،ص،15.

13-Andre Cadet, Bernard Cathelat: la publicite de l'instrument economique a l'institution social, paris, édtion payot,1968,p.157.

14-الارتقاء: عملية التغير الكمي والكيفي التي تطرأ على الكائن الحي منذ الحمل حتى اكتمال النضج. وتختلف اليقظة التي تتحقق عندها النضج باختلاف الأعضاء والوظائف ففي حين يتحقق النضج الجنسي قبل سن الخامسة عشرة. يكتمل النضج العقلي حول سن السادسة عشرة ويصل النمو الجسمي آخر مراحله حول سن العشرين. أما التغير في الاتجاهات فليست له فيما يبدو حدود زمنية.

15- عزت حجازي: **الشباب العربي ومشكلاته**، (الكويت: عالم المعرفة، 1985)، ص، ص، 27.28.

16-عزت حجازي: الشباب العربي ومشكلاته: المرجع السابق، ص، 29.

17- السعيد بومعيزة: **أثر وسائل الإعلام على القيم والسلوكيات لدى الشباب**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر: كلية العلوم السياسية والإعلام، 2005-2006، ص، ص،175.176.

18- السعيد بومعيزة: المرجع السابق ، ص، 176.

19-عبد الله بوجلال، (وآخرون): مرجع سابق، ص، ص، 147-150.

20-منى كشيك: **القيم الغالبة في الإعلام**، (السودان: دار فرحة للنشر والتوزيع، 2003)، ص.ص، 59-62.

21-عبد الله بوجلال: **أثر مشاهدة التلفزيون على القيم الثقافية والاجتماعية لدى الأطفال** ، مجلة المعيار، (قسنطينة: كلية الشريعة، الأمير عبد القادر، العدد ،07، ديسمبر، 2003)، ص.36.

22- أمينة علي كاظم: **التغير الاجتماعي والثقافي في المجتمع القطري**، دراسة ميدانية لمدينة الدوحة، (قطر: دار هجر للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع، ط1، 1993)،ص.46.

23-عبد الله بوجلال: **أثر مشاهدة التلفزيون على القيم الثقافية والاجتماعية لدى الأطفال**، مرجع سابق، ص.ص.37.38.

24- عزي عبد الرحمن : **الثقافة وحتمية الاتصال نظرة قيمية**، مجلة المستقبل العربي السنة26، العدد 295، سبتمبر، 2003،ص.15.

فهرس العدد العاشر لمجلة التراث

التوابع عند علماء الجزائر دراسة تحليلية

د. فاطمة عبد الرحمن جامعة الشلف .....ص 3

آليات اشتغال التصوير الفني في ديوان الشيخ عبد القادر بطبجي المستغانمي – مقاربة بلاغية للخطاب الشعري الصوفي الشعبي الجزائري–

د. عبد اللطيف حني – جامعة الطارف.....ص 27

ابن مرزوق الحفيد ومنهجه في كتابه المتجر الربيح في شرح الجامع الصحيح للبخاري د.حفيظة بلميهوب جامعة الجزائر1.....ص 50

أدبيات الخط والتسفير في التراث العربي

أ/ لبسير سمراء ج المسيلة.....ص 72

الأسرة في ظل غزو الإلكترونيات دراسة تحليلية

أ/ قجالي آمنة جامعة أم البواقي– الجزائر.....ص 87

العلاقات التجارية بين الجزائر وإسبانيا بين 1786–1830
د/عبد القادر فكاير /جامعة خميس مليانة.....ص 106
أثر الإعلان التلفزيوني على قيم وسلوكيات الشباب الجزائري.
أ/محمد الفاتح حمدي.جامعة الأغواط.....ص 130
الفهرس ....ص 153